

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة عموم الاوقاف والشؤون الاسلامية بالمملكة المغربية

شارك في هذا العدد الأساتيذ:

محمد السائح
تقي الدين الهلالي
محمد الحمداوي
الطاهر زنيبر
انور الجندي
عبد القادر زمامة
سعيد اعراب
المهدي البرجالي
عبد العلي الوزاني
عبد القادر الصحراوي
محمد بن عبد العزيز الدباغ
الراجي التهامي الهاشمي
محمد العنبري
محمد بنعبد الله
عبد الكريم التواتي
احمد عبد السلام البقالي
احمد عبد الرحيم السائح
محمد عبد المنعم خفاجي
محمد السوفاني
عبد السلام الهراس
محمد الحلوي
المدني الحمراوي
محمد شمس الدين
محمد التازي
محمد بن ادريس العلمي
عبد الحق حموش
محمد احمد اشماعو
عبد الرحيم بن سلامة
الامين ابو احمد



العدد السادس
السنة الثانية عشرة
صفر 1389
ماي 1969



مجلة تصدرها وزارة
عموم الأوقاف والشؤون
الإسلامية بالمملكة المغربية

دعوة الحق

العدد السادس
السنة الثانية عشرة
صفر 1389
ماي 1969
ثمن العدد
درهمان

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :
مجلة «دعوة الحق» ـ قسم التحرير ـ وزارة عموم الاوقاف
الرباط ـ المغرب . الهاتف 10 ـ 308

الاشتراك العادي عن سنة 20 درهما ، والشرفي 30 درهما
فأكثر .

السنة عشرة اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حساب :
مجلة «دعوة الحق» رقم الحساب البريدي 55 ـ 485 ـ الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

او تبعث رأسا في حوالة بالعنوان التالي :
مجلة «دعوة الحق» ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ
الرباط ـ المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية
والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
في كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :
«دعوة الحق» ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط
تليفون 10-308 ـ 03-327 ـ الرباط

كلمة العدد



تركز اهتمام الرأي العام فى العالم الاسلامي خلال الشهر الماضي على جنوب شرقي آسيا ، فتتبع باهتمام بالغ ، وعناية يقظة اعمال المؤتمر الاسلامي الدولي الذي انعقد فى كوالالمبور عاصمة ماليزيا بمقتضى الدعوة الكريمة التى وجهتها حكومة هذه البلاد الى الاقطار الاسلامية ..

وقد كان التمثيل فى هذا المؤتمر العالمي الخطير فى مستوى الوزراء ، ورجال الفكر والراي والعلم ، ممن تشرفوا فحملوا تفويضا من حكوماتهم. حيث بلغت الدول المشاركة نحو اربع وعشرين دولة .

وانعقاد المؤتمر على هذه الصفة كان استجابة لفكرة قديمة طالما خامرت المسلمين المسؤولين من زعماء ماليزيا وفى مقدمتهم صاحب الفكرة وممضيها فخامة رئيس وزراء ماليزيا سمو الامير الحاج تنكو عبد الرحمن فترا ... لقد اراد هؤلاء القادة ، منذ أن ألقى الله بين ايديهم مقاليد البلاد ، أن يطوروا امتهم فى اطار اسلامي محض ، ويبوؤوها مقاما عليا بين الشعوب فى نطاق العقيدة المحمدية ، ويجددوا ما انهار من البناء الاخلاقي ، وما انطمس من معالم الايمان والاسلام ، بفعل عمليات التبشير والاستعمار ، ويدفعوا بها فى مضمار التقدم والحضارة الى صراط قويم وسليم بعيد عن بهرج الحضارة الغربية الزائف التى اشرفت على الانهيار ، وآذنت بالافول والزوال ، للوصول الى درجة التوفيق والهداية ، وقيادة النوع الانساني الى معارج الرشد والكمال .

وفى هذا السبيل عملت حكومة السيد الرئيس بمؤازرة مساعده الايمن رئيس اللجنة التحضيرية صاحب المعالي الحاج داتوء عبد الرحمن بن يعقوب وزير الاراضي والمعادن على توفير أسباب النجاح للمؤتمر فجندت كل طاقاتها لتيسير الوسائل الضامنة التى تكفل نجاحه ماديا وأدبيا ، كما بذل الشعب المالي الكريم جهودا مضاعفة ، ورعاية كريمة ، وعناية بوفود العالم الاسلامي مما أثلج الصدور ، وأفعم القلوب اكبارا وتقديرا .

لقد أصبحت كوالالمبور عاصمة ماليزيا تموج ، فى موسم حافل ، وأيام مشهودة ، ومهرجان اسلامي رائع ، بالوفود الاسلامية التى وردت عليها من شتى الاقطار والاصقاع الاسلامية تحفزها رغبة ملحة ، ويشغفها حب الخير ، ففكرت وأملت ، ثم آمنت وعملت ، وتوجهت فى عزم مومن ، وارادة مصممة ، واصرار واثق الى هذه المدينة الجميلة الساحرة التى تبسم بالنعيم ، وتفيض بالخير ، وتشرق بالجمال، وتروق بالرواء البهيج، لتتدارس المشاكل الملحة التى تعترض العالم الاسلامي فى العصر الحاضر حتى يقدموا المسلمين ، المتطلعين فى العالم ، نظام الله خالصا كما أوحاه كافلا للفوز ضامنا للفلاح ، ويعرفوا ، فى هذه المناسبة ، بحقائق الاسلام وآثرها الالاهي فى تكريم الانسان ، وتنظيم العيش ، واصلاح الارض، وتهذيب النفوس بحر الخلال ، وكريم السجايا والاخلاق .

لقد كانت الحكومة الماليزية المسلمة المومنة موفقة المسعى ، ملهمة بالصواب حينما فكرت فى عقد هذا المؤتمر ، فعملت له ، ودعت اليه ، لانها تؤمن ، كغيرها من الحكومات الاسلامية الرشيدة ، بعقيدة الاسلام قولا وسلوكا ، وتسعى لتجديد حبل الدين ، ونشر فضائله ، وبعث تراثه ، حتى تصبح امة الاسلام ، كما كانت فى الصدر الاول وفجر الاسلام ، قوية رائدة ، مرهوبة الجانب ، موفورة الكرامة ، متماسكة الاجزاء ، متحدة الاهواء ، متساندة القوى .

وان انعقاد هذا المؤتمر الاسلامي الدولي فى جنوب شرقي آسيا ، وفى بلد ، نال حديثا استقلاله ، وملك زمام امره ، ليدل على تيقظ الروح الهاجد فى الجسم الاسلامي ، ويشير الى دلالة قاطعة هي رغبة المسؤولين الملحة فى تخطيط مشاريع التعاون المثمر فى نطاق الشؤون الدينية والاجتماعية والاقتصادية لخير الاسلام والمسلمين وتقوية أواصر المودة والاخاء ، وتوكيد روح النضال واقرار الوجود ، فقد تفككت الاواصر، وتحللت العقد، وانماعت النفوس، ولم يعد صالحا ان نبقى كواو عمر زوائد فى القوم، نرضى بالدون ، ونعيش هوامش على صفحة الحياة .

لقد ناقش المؤتمر الاسلامي الدولي مسائل ضرورية أصبحت اليوم تفرض نفسها فى الحاح على المجتمعات الاسلامية الراقية ، وتتعلق بالدين على الوجه العام ، وبالاحوال الشخصية ونظام الاسرة ، والتكامل الاقتصادي فى العالم الاسلامي، ونقل الاعضاء السليمة الى جسم مريض بوجه خاص .. وهي قضايا اصبح بعضها موضع الشك والحيرة فى اذهان بعض المسلمين نتيجة التقدم العلمي والتطور الاجتماعي ، فلم يقف اعضاء المؤتمر فى دراستهم للقضايا المطروحة عند حرفية النصوص ، ومناقشة الفكرة ، ومواضعة الرأي ، بل تعدوا كل ذلك الى الاسترشاد بروح التشريع ، ثم امضاء العزيمة ، وانجاز العمل .

* * *

ففي شهر مارس الماضي دعت حكومة ماليزية المسلمة علماء الدين فى بلدها الى عقد مؤتمر محلي ناقشوا على بساطه قضايا من صميم الاسلام تصلح بها الدنيا ، ويعز الدين ، فاتخذوا عدة قرارات جديدة فى ذلك المؤتمر مستمدة من الفكر الاسلامي ويمكن أن تكون أسسا عامة فى تقدم الحياة الاجتماعية والاقتصادية عند المسلمين فى ذلك البلد ، لكن هناك قضايا ما زالت مستعصية ومحتاجة الى الحل ، ومفتقرة الى آراء علماء المسلمين واقطابهم كانت موضوع مناقشة ومثاقفة من طرف أعضاء المؤتمر الاسلامي الدولي العام .

وهكذا كان جدول الاعمال الذى عرض على انظار المؤتمرين للمناقشة يشمل عشر موضوعات انتزعت من صميم الحياة اليومية للمسلمين ، وتتطلب الحـــل السريع الذى يطابق روح التشريع الاسلامي ، ويواجه الحياة العصرية ، والتيار الحضاري الجديد ، وهذه المواضيع المدروسة هي :

— التبادل التجاري ، والتكامل الاقتصادي فى العالم الاسلامي .

— الزكاة والانتفاع بها فى تنمية وتطور المجتمع الاسلامي .

— التاميــــن

— تنظيـــم الاســـرة .

— قانون الاسرة الاسلامية أو الاحوال الشخصية .

— التربيـــة والتعليـــم .

— توحيـــد رؤيـــة الهـــلال ، وابتداء شهر الصيـــام فى البلاد الاسلامية .

— نقــل اعضـــاء الانســـــان من جســـم الى آخــــر .

— فلسطين ، وبيت المقدس من وجهة الشرع الاسلامي .

والوفد المغربي الذى شارك مشاركة فعلية برئاسة الاستاذ الكبير سيـدي عبد الله كنون قام بدور كبير فى هذا المؤتمر الدولي الاسلامي فكان محل عنايـة ورعاية من طرف اعضاء المؤتمر المحترمين والمسؤولين الماليين لما قام به من نشاط ملحوظ ، وحيوية ومرونة ، وتفهم لاوضاع المسلمين فى كل البلاد .

ان حكومة وشعب ماليزيا كانا موفقين ، الى أبعد الحـــدود ، فى عقد هــذا المؤتمر الاسلامي لاول مرة فى التاريخ على هذا المستوى فى الظروف الحالية ، وان مقرراته وتوصياته ستاخذ طريقها الى التنفيذ من طرف الحكومات المشاركـة التى تحدوها الرغبة الصادقة الامينة ، والنية المخلصة المومنة للوصـــول بالامـة الاسلامية المتوثبة الى بر الأمان ، ومرفا النجاة ، ودار السلام .

دعوة الحق



لما رايت كثيرا من الناس يتناول ما في كتاب الفروع والنوازل على انه فقه صالح لكل زمان ومنطبق على كل حادثة في اي اوان من غير التفات الى ما كان من النصوص مبنيا على عـادة حكمت او مصلحة اعتبرت، او لسد ذريعة تنوسيت واغفلت ، وما هو سبب خاص قد زال وما هو في قضية عينية كان ذلك فيها هو مقتضى الحال على ان كثيرا من الروايات ورد على موضوع مخصوص يجب ان يقصر عليه ويساق حديثه اليه واخذ النصوص مع قطع النظر عن مواردها من الخطأ العظيم في الدين وانظر الى ما ذكروه في شروط العمل بالفعل مما هو منظوم في قول القائل :

والشرط في عملنا بالعمل
ثبوته عن ثقة مؤهل
معرفة الزمان والمكان
وجود موجب الى الاوان

ولقد كان اهل العلم رضي الله عنهم يبحثون عن سبب ورود الحديث كما يبحثون عن اسباب النزول ليهتدوا بذلك الى مواقعه ، والمراد منه ، وقصارى القول انه لا يجوز للقاضي والمفتي ان يكتفي من المنقول بمجرد المفهوم والمدلول ، بل لابد له من معرفة كاملة وزماع تام ليقف على مقاصد الايمة والغايات التي تضمرها افكارهم وترمي اليها انظارهم رايت ان اجمع بهذا التقييد ما تيسر الوقوف عليه من النصوص المصرحة بوجوب مراعاة الاعراف المختلفة وامعان النظر في تطبيق الروايات على النوازل المتجددة حتى يكون الناظر فيها وضع الهناء موضع النقب والساه صدر الدست . وسميته **نجعة الرائد في ابتناء الحكم والفتوى على المقاصد والعوائد** . والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ما هو العرف ؟..

العرف غلبة معنى من المعاني على جميع البلاد او بعضها وهو معمول به في الشرع لقوله تعالى : « وامر بالعرف » وقوله سبحانه : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » ، وقوله صلى الله عليه وسلم لهند بنت عتبة زوج ابي سفيان حين قالت له عنه انه مسيك لا يعطيها ما يكفيها وولدها : (خذي من ماله ما يكفيك وولدك بالمعروف) اي المعتاد من النفقة عند الناس اخرجه البخاري وغيره . وقالت عائشة رضي الله عنها : لو راى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما احدث النساء لمنعهن المساجد اخرجه مالك والبخاري رحمهما الله . وقال شارح للغزالين : سنتكم بينكم ، اورده البخاري ايضا ، وفي الاحكام لابن العربي لدى قوله تعالى : « وان تعاسرتم فسترضع له اخرى » ، الآية في المسالة الرابعة في تقدير الانفاق قال قد بينا انه ليس له تقدير شرعي وانما احاله الله سبحانه على العادة وهي دليل اصولي بنى الله عليه الاحكام وربط به الحلال والحرام وقد احاله الله على العادة

فيه فقال: « فكفارته اطعام عشرة مساكين من اوسط ما تطعمون اهليكم او كسوتهم » وقال: « فاطعام ستين مسكينا » وقد تكلمنا عليه في موضعه (هـ). وفي جمع الجوامع وان العادة محكمة وفي الاحكام ايضا العرف والعادة اصل من اصول الشريعة يقضى به في الاحكام (هـ). ثم ان محل العمل به ما لم يخالف دليلا شرعيا والا وجب نبذه والعمل بالشريعة لانها لا تنسخ به ، وقد انكر العلامة الامير تقييد الونشريسي ومتبوعه الا في الجمع ليلة المطر بما اذا لم يجر العرف بتركه في موضع كالجامع الاعظم بتونس وجامع القرويين والاندلس بفاس وقال انما يحكم العرف في امور المعاملات ولا ينسخ له سنة وقد جمع صلى الله عليه وسلم وهو صاحب الشرع (هـ) كلامه وهو حسن الا ان ما ذكره من الحصر غير صحيح كما تعلمه مما ياتي :

المواضيع التي يحكم فيها العرف :

هي الاحكام الفرعية التي وكل الشارع امرها الى العرف كمعرفة اسباب الاحكام من الصفات الاضافية كصغر ضبة الفضة وكبرها وغالب الكثافة في اللحية ونادر العذر ودائمه وطول الفصل في السهو وقصره وقرب منزله وبعده وكثرة فصل او كلام وقلته في الصلاة وثمن مثل ومهر مثل وكفؤ نكاح وكتقدير نفقات الزوجات والاقارب وكسوتهم وما يختص به الرجال عن النساء ومتاع البيت وما يختص به النساء عن الرجال وكالرجوع اليه في المقادير كالحيض والطهر واكثر مدة الحمل وسن الياس وكالرجوع اليه في فعل غير منضبط تترتب عليه الاحكام كاحياء الموات والاذن في الضيافة ودخول بيت قريب وتبسط مع صديق وما يعد قبضا وايداعا وهدية وغصبا وحفظ وديعة وانتفاعا بعارية وكالرجوع اليه في امر مخصص كالفاظ الايمان والوقف والوصية والتفويض ومقادير المكاييل والموازين والنقود وغير ذلك (هـ.) من الفتح بتصرف حسن ، وفي لامية الزقاق :

بيان وتخصيص وتفسير مبهم
شهيد وتمييد لعرف جرى حلا
به الحكم والفتوى فان صح ما جرى
من العرف فاحكم ناظرا ومنخلا

وفي العمليات :

واعتبر الاعراف في الفتوى وفي
الحكم لكن بانتقالها تفي

وفيها ايضا :

وروعي المقصود في الاحباس
لا اللفظ في عمل اهل فاس

والنصوص في هذا المعنى متواترة متطابقة وفي مبحث القضاء بقول المدعي لرجحانه بالعوائد ، وفصل القضاء بالعرف والعادة من تبصرة ابن فرحون وفي هذا الموضوع تنبيهات (الاول) اختلفوا هل ينزل العرف منزلة الشاهد الواحد وعليه فلا يعتبر فيما لا يثبت الا بشاهدين ويحلف معه من شهد له فيما يثبت بالشاهد واليمين وينزل منزله الشاهدين والام المشهور وعليه قول التحفة :

وهاهنا عن شاهد قد يغني
ارخاء ستر واحتياز رهن

وقول اللامية وكملا باحلاق ذي عرف صحيح ، والمسالة على طرف التمام (الثاني) اذا تعارض العرف والاصل قدم العرف قال ابن عبد السلام اذا تعارض الاصل والغالب فالحكم للغالب والغالب والعرف مترادفان كدعوى الزوج على ولي الامة انه غره بحريتها فالاصل عدم الغرور والغالب عدم رضى الزوج بنكاح الامة ، فالقول له وكدعوى الزوجة على زوجها الحاضر عدم الانفاق فهي متمسكة بالاصل وهو بالغالب فالقول له ، وكدعوى العبد الحوز بالملك انه حر ، فهو مدع للاصل مخالف للعرف وفي ذلك يقول ابن عاصم في مرتقى الوصول :

وغالب ان عارض الاصل رجح
وقيل عكسه واول اصح

نعم يستثنى من هذا الاصل مسائل الم القرافي بعشرين منها في الفرق التاسع والعشرين بعد المائتين، فراجعه (الثالث) العادة تنزل منزلة الشرط المدخول عليه وقد بنوا على ذلك عدة احكام في عدة ابواب (الرابع) ذكروا انه ينبغي في القاضي ان يكون بلديا ليجري الناس على اعرافهم وعوائد بلدهم قال ابن رشد من خصال القاضي المستحبة ان يكون بلديا وكذا المفتي ، ففي كتاب الاحكام للقرافي رحمه الله ما نصه ينبغي للمفتي اذا ورد عليه مستفت لا يعلم انه من اهل البلد الذي منه المفتي وموضع الفتيا فلا يفتيه بما عادته يفتي به حتى يسأله عن بلده وهل حدث لهم عرف في تلك البلد في هذا اللفظ اللغوي ام لا وان كان اللفظ عرفيا فهل عرف ذلك البلد موافق لهذا البلد في عرفه ام لا وهذا امر متعين واجب لا يختلف فيه

علماء وان العادتين متى كانتا فى بلدين ليسا سواء ان حكمهما ليس سواء انما اختلفت العلماء في العرف واللغة: هل يقدم العرف على اللغة ام لا ؟. والصحيح تقديمه لانه ناسخ والناسخ مقدم على المنسوخ اجماعا فكذلك هاهنا (هـ) منه بلفظه قال فى التبصرة اثر ما نقله ايضا تنبيه . ونقلت من الرحلة لابى عبد الله بن راشد فيمن حلف بالايمان اللازمة وحنث هل يلزمه الطلاق الثلاث او واحدة ثم قال والمعتبر فى ذلك عرف الحالف لا عرف المفتي فلو دخل المفتي بلدا لا يكون عرفهم فيه انه يراد به الطلاق الثلاث لم يجز له ان يفتي فيه بذلك ، ولا يحل ان يفتي بما يتوقف على المعروف الا بعد معرفة المعروف ولو تغير المعرف لتغير الجواب، هذا من الامر المهم معرفته (انتهى) وهذا يعضد كلام القرافي مع كلام التبصرة واذا انتهينا الى هنا فلنسق من النصوص ما هو شاهد لموضوع التقييد قال ابن عبد السلام اكثر العلماء لا يقول بسد الذرائع ولا سيما فى البيع وقد علمت ان المنع فى البيع والسلف انما نشا عن اشتراط السلف نصا وبيعات الاجل لا نص فيها ، باشتراط ان البائع يشتري السلعة التى باع وانما هو امر يتهمان عليه ويستند فى تلك التهمة الى العادة ، ثم قال وهب ان تلك العادة وجدت فى قوم فى المائة الثالثة بالمدينة او بالحجاز فلم قلتم انها وجدت بالعراق والمغرب فى المائة السابعة ثم قال وانا اتوقف فى الفتيا فى هذا الباب وفيما اشبهه من الابواب المستندة الى العادة بما فى الكتب لان الذى فى الكتب من المسائل لها مستوى من السنين وتلك العوائد التى هي شرط فى تلك الاحكام لا يعلم حصولها الآن والشك في الشرط شك في المشروط (ومن الذخيرة) قاعدة كل حكم مرتب على عرف او عادة يبطل عند زوال تلك العادة فاذا تغير تغير الحكم (هـ) نقلهما المواق، ومن كتاب الاحكام فى تمييز الفتيا عن الاحكام فى السؤال التاسع والثلاثين ما نصه ان اجراء الاحكام التي تدركها العوائد مع تغير تلك العوائد خلاف الاجماع وجهالة فى الدين بل كل ما فى الشريعة يتبع العوائد يتغير الحكم فيه عند تغير العادة الى ما تقتضيه العادة المتجددة وليس تجديد الاجتهاد من المقلدين حتى يشترط فيه اهلية الاجتهاد بل هذه قاعدة اجتهد فيها من غير استئناف اجتهاد ، الا ترى انهم لما اجتمعوا على ان المعاملات اذا اطلق فيها الثمن يحمل على غالب النقود فاذا كانت العادة نقدا معينا حملنا الاطلاق عليه فاذا انتقلت العادة الى غيره عينا ما انتقلت العادة اليه والغينا الاول وانتقال العادة عنه

وكذلك الاطلاق فى الوصايا والايمان وجميع ابواب الفقه المحمولة على العوائد اذا تغيرت العادة تغيرت الاحكام فى تلك الابواب وكذلك الدعاوي اذا كان القول قول من ادعى شيئا لانه العادة ثم اذا تغيرت العادة لم يبق القول قول مدعيه بل يعكس الحال فيه بل ولا يشترط تغيير العادة بل ولو خرجنا نحن من تلك البلد الى بلد آخر ، عوائدهم على خلاف عادة البلد الذي كنا فيه وكذلك اذا قدم علينا احد من بلد عادته مضادة للبلد الذي نحن فيه لم نفته الا بعادة بلده دون عادة بلدنا ومن هذا الباب ما روى عن مالك اذا تنازع الزوجان فى قبض الصداق بعد الدخول ان القول قول الزوج مع ان الاصل عدم القبض قال القاضي اسماعيل هذه كانت عادتهم بالمدينة ان الرجل لا يدخل بامراته حتى تقبض جميع صداقها واليوم عادتهم على خلاف ذلك فالقول قول المراة مع يمينها لاجل اختلاف العوائد (انظره) وفي انوار الفروق له في الفرق الثاني بعد كلام فاذا احطت به علما ظهر لك الحق فى هذه الالفاظ وهو انا لا نجد احدا فى زماننا يقول لامراته عند ارادة تطليقها حبلك على غاربك ، ولا انت برية ولا وهبتك لاهلك هذا لم نسمعه قط من المطلقين ولو سمعناه وتكرر ذلك على سمعنا لم يكف ذلك فى اعتقادنا ان هذه الالفاظ منقولة كما تقدم تقريره ، واما لفظ الحرام فقد اشتهر فى زماننا فى اصل ازالة العصمة فيفهم من قول القائل انت علي حرام او الحرام يلزمني انه طلق امراته اما انه طلقها ثلاثا فانا لا نجد فى انفسنا انهم يريدون ذلك فى الاستعمال هذا قوله فيما يتعلق بمصر والقاهرة فان كان هناك بلد آخر تكرر الاستعمال عندهم فى الحرام او غيره من الالفاظ فى الطلاق الثلاث حتى صار هذا العدد هو المتبادر من اللفظ فحينئذ يحسن الزام الطلاق الثلاث بذلك اللفظ ، واياك ان تقول انا لا نفهم منه الا الطلاق الثلاث لان مالكا رحمه الله قاله او لانه مسطور فى كتب الفقه لان ذلك غلط بل لابد ان يكون ذلك الفهم حاصلا لك من جهة الاستعمال والعادة كما يحصل لسائر العوام كما فى لفظ الدابة والبحر والرواية فالفقيه والعامي فى هذه الالفاظ سواء فى الفهم لا يسبق الى افهامهم الا المعاني المنقول اليها فهذا هو الضابط لا يهم ذلك من كتب الفقه ، فان النقل انما يحصل باستعمال الناس لا بتسطير ذلك فى الكتب بل المسطر فى الكتب تابع لاستعمال الناس فافهم ذلك ، واذا تقرر ذلك فيجب علينا امور احدها ان نعتمد ان مالكا وغيره من العلماء انما افتى فى هذه الالفاظ بهذه الاحكام لان زمانهم كان فيه عوائد اقتضت

نقل هذه الالفاظ للمعاني التى افتوا بها صونا لهم عن الزلل (وبابيها) انا اذا وجدنا زماننا عريا عن ذلك وجب علينا ان لا نفتي بتلك الاحكام في هذه الالفاظ لان انتقال العوائد يوجب انتقال الاحكام كما نقول فى النقود وفى غيرها فانا نفتي فى زمن معين بان المشتري تلزمه سكة معينة من النقود عند الاطلاق لان تلك السكة هي التى جرت العادة بالمعاملة بها فى ذلك البلد فى ذلك الزمان ، فاذا وجدنا بلدا آخر وزمانا آخر يقع التعامل فيه بغير تلك السكة تغيرت الفتيا الى السكة الثانية وحرمت الفتيا بالاولى لاجل تغير العادة ، وكذلك القول في نفقات الزوجات والذرية والاقارب وكسواتهم تختلف بحسب العوائد ، وتنتقل الفتوى فيها وتحرم الفتوى بغير العادة الحاضرة وكذلك تقدير العواري بالعوائد وقبض الصدقات عند الدخول او قبله او بعده في عادة نفتي ان القول قول الزوج فى الاقباض لانه العادة وتارة بان القول قول المراة في عدم القبض اذا تغيرت العادة او كانوا من اهل بلد ذلك عادتهم وتحرم الفتيا لهم بغير عادتهم، ومن افتى بغير ذلك كان خارقا للاجماع ، فان الفتيا بغير مستند مجمع على تحريمها وكذلك التلوم للخصوم فى تحصين الديون للغرماء وغير ذلك مما هو مبني على العوائد مما لا يحصى عدده متى تغيرت فيه العادة تغير الحكم باجماع المسلمين وحرمت الفتيا بالاول ، وفى الفرق الثامن والعشرين ، منه ايضا بعد كلام لان الاحكام المترتبة على العوائد تدور معها كيف دارت وتبطل معها اذ ابطلت كالنقود فى المعاملات والعيوب فى الاعراض فى البياعات ونحو ذلك فلو تغيرت العادة فى النقد والسكة الى سكة اخرى لحمل الثمن فى البيع عند الاطلاق على السكة التى تجددت العادة بها دون ما قبلها ، وكذلك اذا كان الشيء عيبا فى الثياب فى عادة رددنا به المبيع فاذا تغيرت العادة وصار ذلك المكروه محبوبا موجبا لزيادة الثمن لم نرد به، وبهذا القانون تعتبر جميع الاحكام المرتبة على العوائد ، وهو تحقيق مجمع عليه العلماء لاخلاف فيه بل قد يقع الخلاف فى تحقيقه ، هل وجد ام لا ، وعلى هذا التحرير يظهر ان عرفنا اليوم ليس فيه الحلف بصوم شهرين متتابعين فلا تكاد تجد احدا بمصر يحلف به فلا ينبغي الفتيا به وعادتهم يقولون عبدي حر وامراتي طالق وعلى المشي الى مكة ، فتلزم هذه الامور وعلى هذا القانون تراعى الفتاوي على طول الايام فمهما تجدد فى العرف اعتبره ومهما سقط اسقطه ، ولا تجمد على المسطور فى الكتب طول عمرك بل اذا جاءك رجل من غير اهل اقليمك يستفتيك لا تجره على عرف بلدك واساله عن عرف بلده واجره عليه ، وافته به ، دون عرف بلدك والمقرر فى كتبك ، فهذا هو الحق الواضح والجمود على المنقولات ابدا ضلال فى الدين ، وجهل بمقاصد علماء المسلمين، والسلف الماضين ، وعلى هذه القاعدة تتخرج ايمان الطلاق والعتاق وصيغ الصرائح والكنايات فقد يصير الصريح كناية يفتقر الى النية وقد تصير الكناية صريحا مستغنية عن النية ، وكما نقل الهلالي فى شرح المختصر كلام القرافي المذكور ، آنفا، قال ومن امثلة هذا القانون مسائل اختلاف المتبايعين فى قبض العوضين وفى الصحة وضدها وغير ذلك ومسائل التناول فى المبيعات ومسائل التهمة فى بيوع الآجال ومسائل المرابحة ومدلولات الالفاظ فى الايمان وغير ذلك ، الا ترى ان المنصوص عليه فى المدونة وغيرها فى لفظ اليمين عند عدم النية ان اللازم فيها كفارة يمين بالله فقط ، والذى به الفتوى هو لزوم الطلاق ، وما ذاك الا ان السلف حملوها على اليمين الشرعية اذ لم يكن فى عرفهم ارادة الطلاق بلفظ اليمين والعرف المطرد لا ارادة الطلاق بها (انظره) والى ذلك يشير صاحب العمل بقوله (وفى اليمين طلقة رجعية) اذ هي قد حصلت الماهية افتى به والدنا كالقصار كابن مؤلف كتاب المعيار ومن فتوى والده سيدي عبد القادر التى احال عليها اللفظ اليمين اصله فى اليمين بالله لكن عرف الناس فى هذه الاعصار وفيما قبلها صرفه لعصمة الزوجة فيعمل على مقتضاه لان الايمان ابدا دائرة مع عرف الحالف او بلده وتختلف الفتاوي باختلاف الاعراف والعادات ، وفى اوائل نوازل الاحباس من المعيار اثناء جواب لسيدي عبد الله العبدوسي ما نصه ينبغي للمفتي ان ينظر فى مقاصد الناس ومقتضى خطاباتهم فيبنى عليها الحكم ويرتب عليها الجواب وكل من ينظر الى الروايات فيفتي فيما تختلف فيه الاحكام باختلاف المقاصد والعوائد فقد اخطأ وكان ذلك منه فسقا ان عنى ذلك وقصده (ه) جواب لابن منظور وما نصه لا شك ان احكام الاقضية والفتاوي تتبع عوائد الزمان وعرف اهلها وفى نوازل الجهاد منه بعد كلام اذا الحكم فى القضايا والفتيا فى النوازل يختلف كثيرا وبحسب العوائد والحال الحاضرة، وفيه ايضا قال اهل العلم : ان الفتوى فى المسائل الفقهية تكون بحسب النازلة والحال الحاضرة فيوخذ فى بعض القضايا ببعض الاقوال بعض من غير خروج على المذهب ، وفى نوازل العلامة الوزاني ان الواجب على القاضي والمفتي النظر الى جزئيات المسائل فى كل نازلة نازلة والى العوائد والاعراف لانه

اسلوب معتاد في الشريعة فلا يعتمد في جميع النوازل على فقه مجمل به لابد من النظر في الصور الجزئية وما اشتملت عليه من الاوصاف الكلية ، وقد طرق هناك هذا الموضوع في عدة مباحث وكذا ايضا صاحب البهجة في مواضع في سبع المنيا والدماء وغيرهما والشيخ الرهوني في مبحث تنازع الزوجين وراجع ايضا ما اهم في تعازير الجناة عند عدم التمكن من اقامة الحدود وما لسيدي العربي الفاسي في ذلك تاليف اورده ابو حفص في شرح السلامية قال الولاتي في شرح مرتقى الوصول مبحث الكلام على العرف والعادة ومتى انتقل العرف في هذه المسائل تبعه الحكم وحكى المقري على ذلك الاجماع (هـ). وقال ايضا مبحث الافتاء ، واما كتب النوازل فلا يجوز لهم الافتاء بها لان الغالب فيها فتاوي المتاخرين التي لا نص فيها للاقدمين وتلك لا تكون مبنية الا على مصلحة مرسلة او عادة محكمة او سد ذريعة الى مفسدة ونحو ذلك فلا يجوز الافتاء بها الا لمن نظر في اصلها المبنية عليه فاذا كان باقيا افتى بها واذا ارتفع رماها والتمس للنازلة حكما باجتهاده (انظره) وقال البساطي على قول مالك رحمه الله في اهل الذمة ارى ان توضع عنهم اليوم الضيافة والارزاق لما حدث عليهم من الجور ، واعلم انه لا يوخذ قول الائمة مع قطع النظر عن المقاصد لانه اذا انتفى الظلم وكانوا هم الظلمة كما في نصارى مصر فالواجب ان يغلظ عليهم وان يزاد على ما كان مقررا عليهم (هـ) نقله الدسوقي في الجزية ، وفي شرح الزرقاني للموطأ على قول عائشة لو ادرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ما احدث النساء الخ .. ما نصه واستنبط من قول عائشة ايضا انه يحدث للناس فتاوي بقدر ما احدثوا كما قال مالك ، وليس هذا من التمسك بالمصالح المباينة للشرع كما توهمه بعضهم ، وانما مراده كمراد عائشة ان يحدثوا امرا تقتضي اصول الشريعة فيه غير ما اقتضته قبل حدوث ذلك، ولا غرو في تبعية الاحكام للاحوال (هـ) . ومن مسامرة العالم الاستاذ محمد الخضري الحسين التونسي نشرتها مجلة البدر التونسية بالجزء الثامن ما نصه: ومن وفاء الاسلام بحق المصالح ان جعل للعرف والعادة اعتبارا في تفاصيل الاحكام ما يبنيه الشارع على رعاية حال مستمرة . وسبب لا ينقطع ، فيتعين العمل به في كل مكان وزمان كالمنع من الربا ومطالبة المدعي بالبينة ، منها ما يبنيه على رعاية احوال تتغير وعادات تتجدد، وهذا النوع من الاحكام لا يلزم طرده في كل عصر ولا اجراؤه بكل مواطن بل يجري العمل فيه على ما يقتضيه العرف السائد بين الناس ، قال شهاب الدين القرافي في قواعده : ان الاحكام تجري مع العرف والعادة وينتقل الفقيه بانتقالها ، ومن جهل المفتي بعوده على النصوص في الكتب غير ملتفت الى تغير العرف فان القاعدة المجمع عليها ان كل حكم مبني على عادة اذا تغيرت العادة تغير الحكم والقول باختلاف الحكم عند تبدل الاحوال والعادات لا يستلزم القول بتغيره في اصل وضعه والخطاب به كما توهمه بعضهم ، وانما الامر تدعو اليه الحاجة عند قوم او في عصر فيكون مصلحة وتتناوله دلائل الطب فان لم تقتضه عاداتهم ولا تعلقت به مصلحتهم دخل تحت اصل من اصول الاباحة او التحريم .

ومن حقق ان في احكام الشريعة ما يجري بحسب اختلاف الزمان شهاب الدين القرافي حيث قال ان التوسعة على الحكام في الاحكام السياسية ليس مخالفا للشرع بل تشهد له القواعد ومن جملتها ان الفساد قد كثر وانتشر بخلاف حاله في العصر الاول ، ومقتضى ذلك اختلاف الاحكام بحيث لا تخرج عن الشرع ويوافق هذا قول عمر بن عبد العزيز تحدث للناس اقضية بقدر ما احدثوا من الفجور، وقول عز الدين ابن عبد السلام تحدث للناس احكام بقدر ما يحدثون من السياسات والمعاملات والاحتياطات فيحدثون اسبابا فتستدعي احكاما تنتزع لها من دلائل ومن هنا الزم ان يكون المقرر لاحكام السياسة وغيرها ممن اوتي العلم بقوانين الشريعة والفهم الراسخ في مداركها حتى لا يخرج في تقديره عن الرسوم المطابقة لمقاصدها (هـ). وقال الحافظ جلال الدين السيوطي رحمه الله في الحبل الوثيق ان المفتي حكمه حكم الطبيب ينظر في الواقعة ويذكر فيها ما يليق بها بحسب مقتضى الحال والشخص والزمان ، فالمفتي طبيب الاديان وذاك طبيب الابدان . وقد قال عمر بن عبد العزيز: تحدث للناس احكام بحسب ما احدثوا من الفجور . قال السبكي : ليس مراده ان الاحكام الشرعية تتغير بتغير الزمان بل باختلاف الصور الحادثة فانه قد يحصل بمجموع امور لا يحصل الكل واحد منها فاذا حدثت صورة على صفة خاصة علينا ان ننظر فيها فقد يكون مجموعها يقتضي الشرع له حكما خاصا (هـ) . وقال السبكي ايضا في فتاويه ما معناه يوجد في فتاوي المتقدمين من اصحابنا اشياء لا يمكن الحكم عليها بانها المذهب في كل صورة لانها وردت على وقائع فلعلهم راوا ان تلك الوقائع يستحق ان يفتى بها بذلك ولا يلزم اطراد ذلك واستمراره (هـ). وفي كتاب

تلبيس ابليس لابن الجوزي رحمه الله في نقد مسالك الصوفية في الغناء والسماع وانما ينبغي للمفتي ان يزن الاحوال كما ينبغي للطبيب ان يزن الزمان والسن والبلد ثم يصف على مقدار ذلك (انظره). وفي كشف الظنون في بحث الاحتساب ما نصه وفائدته اجراء امور المدن في المجاري على الوجه الاتم ، هذا من ادق العلوم ولا يدركه الا من له فهم ثاقب وحدس صائب ، اذ للاشخاص والازمان والاحوال سياسة خاصة ، وذلك من اصعب الامور فلذلك لا يليق بمنصب الاحتساب الا من له قوة قدسية مجردة عن الهوى كعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، كان عالما في هذا الشان (انتهى) . وقال الحافظ شمس الدين بن القيم الحنبلي في اعلام الموقعين ، فصل في تغيير الفتوى واختلافها بحسب تغير الازمنة والامكنة والاحوال والنيات والعوائد ، هذا فصل عظيم النفع جدا وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة اوجب من الحرج والمشقة وتكليف ما لا سبيل اليه ، ما يعلم ان الشريعة الباهرة التي في اعلى رتب المصالح لا تاتي به ، فان الشريعة مبناها واساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد ، وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها ، فكل مسالة خرجت عن العدل الى الجور وعن الرحمة الى ضدها وعن المصلحة الى المفسدة وعن الحكمة الى العبث فليست من الشريعة ان ادخلت فيها بالتأويل فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه وظله في ارضه وحكمته الدالة عليه ، وعلى صدق رسوله صلى الله عليه وءاله وسلم اتم دلالة واصدقها ، وهي نوره الذي ابصر به المبصرون وهداه الذي به اهتدى المهتدون وشفاؤه التام الذي به دواء كل عليل وطريقه المستقيم الذي من استقام عليه فقد استقام على سواء السبيل فهي قرة العيون وحياة القلوب ولذة الارواح فهي بها الحياة والغذاء والدواء والنور والشفاء والعصمة وكل خير في الوجود فانما هو مستفاد منها وحاصل بها وكل نقص في الوجود فسببه من اضاعتها ولولا رسوم قد بقيت لخربت الدنيا وطوى العالم وهي العصمة للناس ، وقوام العالم وبها يمسك الله السماوات والارض ان تزولا فاذا اراد الله سبحانه وتعالى خراب الدنيا وطي العالم رفع اليه ما بقي من رسومها ، فالشريعة التي بعث الله بها رسوله هي عمود العالم وقطب الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة ونحن نذكر تفصيل ما اجملناه في هذا الفصل بحول الله وتوفيقه ومعونته بامثلة صحيحة والله الموفق سبحانه وهو حسبنا ونعم الوكيل. وقد تم تبييضه في خواتم ذي الحجة الحرام ختم عام 1346 بعد تسويد . والحمد لله اولا واخيرا .

الرباط ــ محمد السائح

ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا

للأستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ

القرءان الحكيم أكبر معجزة ثابتة خالدة حققت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وهدت المسلمين لما فيه الخير لهم وللبشر جميعا .

ينبوع القرءان لا ينضب ، فيه من الحكمة والموعظة الحسنة والتوجيه السليم والارشاد الرائع البديع ما لا يحد بحد ولا يقتصر على زمن ولا يختص بفئة دون فئة أو جيل دون جيل فهو نور الله الذي لا ينطفىء وكلام الله الذي يطمئن النفوس ويرغب في الخيرات ويبعد عن الشرور والآثام .

وليس من الطبيعي ان يكون المسلم مسلما حقيقيا اذا انحرف عن تعاليم الله وصد عن تعاليم القرءان وغفل عن تشريعاته المثلى وعن مبادئه في الاخلاق ذلك لان القرءان يعد المصدر الاساسي في أصول الدين والاحكام من سار على نهجه نجا ومن اهتدى بهديه رشد .

وهذا هو السر في كون الله تبارك وتعالى امتن علينا بتركه القرءان فينا واعتبر ذلك فضلا كبيرا فقال: « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير » (1)

والمتدبر في هذه الاية يجد ان المؤمنين بالنسبة للقرءان ثلاث طبقات :

الطبقة الاولى : طبقة المقصرين في تطبيق تعاليمه والمهملين لبعض أحكامه وهؤلاء هم الذين ظلموا انفسهم فلم يزجروها ولم يهذبوها فتغلبت عليهم وسطت بهم واصبحوا ملكا لها ، لا يستطيعون خلاصا من مفاتنها ولا انفكاكا من شهواتها الا اذا اخذ الله بيدهم فهداهم الى الخير وتابوا من ظلمهم ومخالفتهم .

الطبقة الثانية : طبقة المقتصدين وهم الذين يعملون بالقرءان اكثر الاوقات وتتغلب حسناتهم على سيآتهم ، ويجدون في ضبط انفسهم ويتمسكون بدين الله وبتعاليم القرءان ، وهؤلاء تكون لهم الغلبة على النفس في غالب الاحيان كلما ارادت ان تستبدهم او حاولت ان تستميلهم اليها قاوموها ولم يستسلموا لها.

اما الطبقة الثالثة : فهي طبقة السابقين بالخيرات قال الجلال المحلي وهم الذين يضمون الى العمل التعليم والارشاد الى العمل .

ولا شك ان هذا القسم الثالث هو اسمى الاقسام واعلاها واكثرها صلاحية لرفع مستوى الاسلام والمسلمين .

ولذلك نرى ان هذا القسم يمثل الدرجة الرفيعة في الامة الاسلامية ولا يصل اليه الانسان الا اذا اعتاد الطاعة ومارس العبادة وآمن بالله حق ايمانه وسعى الى نشر الاسلام بكل الوسائل التي يجدها بين يديه فيتخلق بالاخلاق الفاضلة ويتحلى بالصفات الحميدة ، وينشر المعرفة بين الناس ، ويدعو الى العلم ويهيىء للقرءان الذيوع ويرفع من مستوى الايمان في النفوس ، ويربط بين القرءان والعزة ، وبين الايمان

1) سورة فاطر الآية 32 .

والقوة ، ويرشد الناس للتي هي اقوم ، ويجادلهم بالتي هي أحسن ، حتى يبقى الاسلام دينا محبوبا ، وتصبح تعاليمه قوانين عامة ، يطمئن اليها تابعوها ، ويميل اليها مطبقوها ، ويدافعون عنها في كل مجال .

ولا يتيسر ذلك في العصر الحاضر الا اذا اصبحت تعاليم الاسلام اساسية في التفكير الاسلامي واصبح المسلمون حريصين على التقيد بقيود الدين ، وعلى الانشراح لمبادئه واسسه ، وعلى العمل على اذاعة محاسنه ، وعلى نشر القرءان في جميع المجالات حتى تعود الوحدة بين النفوس ، والالفة بين الارواح ، والاخوة بين المسلمين .

ومن اقوى الوسائل على تحبيب القرءان في النفوس تقريب اللغة العربية الى المسلمين ليتذوقوا بذلك الاساليب البيانية التي ما زالت لماعة في القرءان منذ نزول الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم الى الان ، وليتدبروا الاحكام الصادرة عن القرءان ، وليستطيعوا بذلك ان يعملوا بها ، وأن يعلموها الناس ويرشدوهم اليها من جديد ليدخلوا تحت لواء الاية الكريمة التي تجعلهم من السابقين بالخيرات .

وليس معنى نشر القرءان هو وجوده بين طبقة لا تعرف له معنى ولا تستطيع ان تتصرف فيه الا في اطار ضيق لا يكسب للقرءان جلاله ولا يبين للقارئين او السامعين جماله ، بل ان القرءان يحتاج الى طبقة من المتعلمين والمثقفين والمطلعين على القوانين البشرية والعلوم المختلفة حتى اذا قارنوا بينه وبين ما يعرفون وربطوا بين معرفتهم وبين ايمانهم استطاعوا ان يضعوا القرءان في مكانه وان يجعلوه راسا لكل تشريع وجوهرة لكل حكمة ولسانا لكل حق ، اما ان يبقى القرءان في اطار قد يبعده عما هو اهل له ، فان ذلك لا يسمح به الذوق السليم والايمان الطاهر .

اليس من الغريب ان يكون هناك اقتران شرطي في اذهان بعض الناس يجعلهم لا يتذكرون القرءان ولا يتصورونه الا اذا حضروا جنازة من الجنائز او مأتما من المآتم حينما يرون جماعة من المتسولين والبؤساء يتسابقون على القبور بثياب رثة ، ووجوه شاحبة ، وأرجل مغبرة او حافية ، وهم يرفعون اصواتهم ويخفضونها في غير انسجام ، فيظنون ان القرءان لا يقترن الا بالفقر والبؤس ، او هو الذي يؤدي الى الفقر والبؤس والحرمان .

وهذا امر يجب ان ننتبه اليه وان نعمل على تلافيه وذلك بجعل القرءان اساسيا في جميع المدارس الاسلامية ، في المشرق والمغرب ، يحفظ ويشرح ويرشد به الى الايمان والطاعة ، ويضاف اليه ما نحتاجه في هذا العالم من علوم حديثة ، ومن الاطلاع على مختلف الثقافات حتى لا نكون عالة في الوجود ، لا نملك ما نثبت به وجودنا .

ومعنى هذا ان القرءان يجب ان يكون حماية لنفوسنا ومرشدا لاحكامنا ، وان نذيعه بين طبقات المتعلمين والمثقفين ، فيكتسبوا منه تهذيبا لارواحهم ، وحرزا لنفوسهم من الضياع ، وتبقى له بسبب ذلك هيبته التي منحها الله له ، وحكمته التي جاء من اجلها، وآنذاك نشعر بجلال القرءان ، ونخشع لتلاوته ، ونخضع لمعانيه ، وتطمئن اليه اذا ما تلي امام موتانا ، لانه يوحي الينا حينئذ بالرحمة والحكمة ، ويحرك فينا نزعة الايمان بالله لنتجنب غضبه وعصيانه .

ان نشر القرءان بين طبقة المثقفين ونشر الوعي الديني بينهم يرفع من قيمة الاسلام في العصر الحاضر، ولا يدعه غريبا عند طوائف من المسلمين ينتمون اليه ولا يعرفونه ، وينسبون اليه وهم جاهلوه .

ان المعرفة القرءانية لا تقتصر على معرفة الاحكام أو معرفة الجوانب الخلقية فيه ، وانما يجب ان يضاف اليها الاعتزاز بالايمان حتى تكون تعاليم القرءان منبعثة من النفس ، هادفة الى اصلاحها ، جامعة بين الطاعة والدعوة ، وبين الخشوع لله والاستبشار بآياته ، والاستئناس باحكامه واوامره ونواهيه ، وبذلك نستطيع أن نجمع بين التربية الاسلامية وبين المعرفة القرءانية ، لان المعرفة المجردة عن العمل ، انما هي مظهر من مظاهر العجز ، لا تؤدي الى نتيجة ولا تصل بنا الى غرض شريف .

وانا على يقين اننا اذا استطعنا ان نسير بالتعاليم القرءانية قدما الى الامام ، وان نربط بينها وبين النفوس الطامحة الى المعرفة لامكننا بذلك ان نهيىء اجيالا لها من القوة النفسية والقوة الخلقية ما تستطيع ان تتحدى به جميع معالم الضعف والتخلف ، لان هذه التربية وهذه التعاليم تقوي العقيدة ، وتمحو من النفس آثار التواكل الذي اضعف الامم الاسلامية حينا من الدهر لم يكن يسيرا .

واذا اصبح القرءان شعارا للحق والخير والعدل في نفوس العلماء والمثقفين فانهم بدورهم سيعملون على نشره بين العامة بطريقة عملية تهدف الى اصلاح النفوس وتهذيب الطباع ، فيلقنونه تلقينا سليما ، ويؤثرون باعمالهم واقوالهم في مختلف المقلدين والاتباع؛

وهذا امر واضح تمام الوضوح ، تقره اسس التربية ، ولا يتنافى مع اسس الاخلاق ، ذلك ان العوام يكتسبون من العلماء والمثقفين كثيرا من الخصال الحميدة ، كما يكتسبون منهم ـ ان كان هؤلاء منحرفين ـ كثيرا من العيوب والمساوىء والآفات .

وان اهتمام العامة بما عند الخاصة من المثقفين والعلماء لا شك انه يظهر فى التقليد اكثر مما يظهر في تلقي التحليلات والتفسيرات ، لذا كان من الواجب على المثقفين أن يظهروا أمام العامة متحلين بمكارم الاخلاق، معتزين بالقيم العلمية والقيم المثلى التي لا تتجلى فيما يربحه العالم من علمه ، وانما تتجلى فيما تستفيده الدولة منه ، لان مجال الربح عند العالم يجب ان يكون مجالا جماعيا اكثر منه مجالا ذاتيا ، وهذا هو الفرق الاكبر بين الجاهلين والعلماء . « وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » !

وبالتحام المعرفة القرءانية بالاخلاق الفاضلة يستطيع العلماء ان يكتسبوا قيمتهم فى المجتمع ، ويستطيعون ا يحققوا ما يرجى منهم من توجيه ، سواء كان داخل اطار الاعمال الادارية ، أو كان فى مجال الإطارات الحرة ، لان الغاية هي السعي فى تنمية الامة وازدهارها ، وابعاد شبح الجهل والذل والفقر والمرض عنهـــا .

وهكذا راينا ان التربية القرءانية ضرورية في التوجيه ، يجب ان لا تقتصر على طائفة دون اخرى ، بل يجب ان تكون عامة بين جميع الاتجاهات الثقافية، لا فرق بين شعبها العلمية او شعبها الادبية او التشريعية ، لان هذه التربية تعد مقوما اساسيا لكياننا، ورابطا متينا بين طبقات الامة الواعية المثقفة وبين باقي الطبقـــات .

ومن المعلوم ان الدراسات القرءانية والمعرفة الدينية لن نجعلها فى البرامج العامة فى درجة واحدة ، فالمختص فى الدين الاسلامي يحتاج الى دراسات قرءانية مختلفة ، تتصل بمختلف علوم القرءان ، وتمزج بين دراسة الاحكام ودراسة القوانين ودراسة الاصول العامة التي يستطيع بها القارىء استنباط بعض الاحكام ، كما يحتاج الى دراسة عميقة واسعة لاحاديث الرسول . وهو دون ريب فى حاجة الى معرفة الناسخ من المنسوخ فى الآيات ، والى معرفة الصحيح من غيره فى الاحاديث ، حتى يستطيع بذلك استخلاص الاحكام السليمة الموافقة للدين ، والتي يمكنها ان تتلاءم مع روح الاصلاح البشرى .

اما غير المختصين فيكفيهم الاطلاع على بعض الاحكام وتلقي المبادي العامة التي تطبع اتجاههم الفكري بالدين والاخلاق .

ومن هنا تستطيع جامعاتنا ان تكون علماء المسلمين ، متاثرين بالاخلاق الاسلامية التي لا تتنافى مع التقدم العلمي والتقني ولا تضيق فى الوقت نفسه بالانسجام مع الاتجاهات الفكرية العامة .

وبهذه الخطة لا يبقى الفرق بين رجال الدين وغيرهم الا من حيث الاطلاع العام المتصل بالاختصاصات العلمية ، اما من حيث التمسك بالاخلاق القرءانية فيكون امرا مشاعا بين علماء الدين وعلماء الدنيا ، لان هدفهم جميعا هو الاصلاح والخير .

وحيث أن تحقيق هذه البرامج يحتاج الى زمن والى تدرج بالفكرة من حيز النظريات الى حيز التطبيق نرى أن الدعوة اليها اصبحت ضرورية ، وان تهييىء النفوس اصبح من آكد الواجبات .

ومن اهم المناسبات التي تحققت فيها هذه الدعوة مناسبة ذكرى مرور اربعة عشر قرنا على نزول القرءان ، فلقد اكتسبت فى بلاد المغرب ـ بصفة خاصة ـ روحا دينية قوية جمعت بين علماء الاسلام على اختلاف اقطارهم وطبقاتهم ووجهاتهم، وجعلتهم دعاة ومرشدين وشارحين لاسس القرءان واحكامه واهدافه .

وكنا نرى فى هذه المناسبة قلوبا مصغية ، ونفوسا خاشعة ، واسماعا تتلهف الى تلك الاحاديث عساها تجد عند الباحثين ما يطفيء غليلها .

وكم كنا فى حاجة الى هذه الذكرى لتصحيح الاوضاع الفكرية التي طغت عليها اتجاهات اخرى وفلسفات دخيلة جعلت كثيرا من الناس لا يعرفون من الاسلام شيئا فأحيت الذكرى فى نفوسهم عزة الدين وذكرتهم بمعجزة القرءان ، وكانت سببا فى التأمل والنظر ، ومن هنا نفسه للتامل والنظر فقد فتح بابا من العلم لا يغلق ، واذكى شعلة من الايمان لا تنطفيء .

وكل ما نرجوه هو ان تكون هذه الذكرى حافزة المسلمين جميعا على التامل فى كتاب الله وعلى العمل على نشر فضائله والتحلي بها حتى تكون محبتهم فى الله ثابتة تستمد أصولها من الكتاب العزيز الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ومما لا يخفى على القراء ان ركون النفس الى القرءان لا يتاتى الا بخلق ذوق ديني وادبي فى نفوس

المسلمين من جهة ، وفى العمل على تقريب المعاني القرءانية الى النفس وربطها بالعقل من جهة اخرى .

وبهذه الوسيلة تستمر المعجزة القرءانية الى عصرنا هذا ولا تقتصر على العصر الذي نزل فيه القرءان ، وبها يمكن للمقارنين بين المصالح التشريعية ان يروا ما يتجلى فى القرءان من محاسن ، وفى الدين من آيات ، ويستطيعون آنذاك ان يشرحوا فضائل هذا الدين للشباب الاسلامي المتعطش الى المعرفة ، الطامح الى اليقين ، الراغب فيمن يبعد عنه كابوس الشك والارتياب .

وتحتاج هذه المرحلة الى تبسيط فى الافكار والى تحليل للمعاني والى تفسير للقرءان عن طريق التحليل النفسي الذي يجمع بين الذوق والاقتناع ، وبين العلم والايمان .

وما اجدر علماء التفسير فى هذه المرحلة ان يكون لهم اطلاع كبير على علم النفس ، وعلى الفلسفة ، وعلى الدراسات الاجتماعية ، وعلى تطور الاحداث التاريخية وعلى اثر المفاهيم الاقتصادية فى معنى التطور ، وعلى ما يلفت اليه العلوم الطبيعية من ابحاث ونظريات وتطبيقات .

انهم بذلك يستطيعون ان يتصلوا بالشباب الاسلامي اتصالا ليس غريبا عن الواقع الذي يحياه هؤلاء الشباب ، فاذا شرحوا اليهم القرءان لم يجدوا فيهم نفورا ، ولم يجدوا بينهم معرضين .

وآنذاك يمكننا ان نقول ان هؤلاء المفسرين الحريصين على تفسير القرءان وتوجيه الشباب الى مضمونه سيكون لهم الفضل فى هذا العصر ، لانهم سيكونون من المقربين كتاب الله الى خلقه ، ومن العاملين على ارشاد الناس لما فيه الخير ، وقد يندمجون حينئذ فى مضمون القسم الثالث من الآية التي سبق لنا الاستدلال بها فى صدر هذا المقال .

فاس : محمد بن عبد العزيز الدباغ





كانت رحلة الفكر الاسلامي منذ ظهوره الى العصر الحديث رحلة طويلة نحو احد محورين : التكامل والتجزئة ـ الوسطية والانحراف ـ الحركة والجمود . فى مراحل نمو وانصهار وضعف وتجدد، يجري مجرى دورة التاريخ بين طرفين ، القوة والضعف .

وقد قام الفكر الاسلامي اساسا منبثقا من « القرآن » بحسبانه المصدر الاول الذى حدد اطاره ورسم منهجه ومقوماته الاساسية .

ولما كان طابعه قائما على « التكامل والوسطية والحركة » فقد كان دوما متفتحا للفكر البشري قادرا على الالتقاء به اخذا وعطاء ، وقادرا على التفاعل معه : تقبلا ورفضا ، فيه طابع الصمود والقدرة على تأكيد القاعدة وثباتها ، وفيه طابع القدرة على حركة الاطراف وحيويتها . ومن حيث انه فكر انساني فهو مرن الجوهر قادر على الحياة والتعامل مع مختلف الحضارات وجميع البيئات وعلى توالي العصور

وقد صادفته فى طريقه الطويل صراعات ومعارك وازمات وتحديات حاولت اخراجه عن جوهره ، او ايقافه ، او تجميده او اعلاء عنصر من عناصره على العنصر الاخر ، ولكنه كان دوما قادرا عن طريق المصلحين والمجددين ومصححي المفاهيم ان يستعيد اصالته ومفهومه وقوته وتوازنه ، وان يلتمس طابعه الاساسي من « القرآن » المصدر الاول والاطار الاكبر لحركته ، وكان هذا الالتماس مصدره الاساسي من القرءان هو العامل الوحيد القادر على تحويل ازمته الى نهضة ، وسموده الى حركة ، وضعفه الى قوة .

ولقد واجهت حركة الفكر الاسلامي تحديات داخلية وتحديات خارجية خلقت كليهما احزابا ونحلا ومذاهب ودعوات . وكان بعض هذه الدعوات داخل اطار الاسلام ، فى اجتهاد واختلاف حول الفرعيات والتفاصيل ، او محاولات هدامة خارج اطار الاسلام تحاول القضاء عليه وتحطيم مقوماته ، مصطنعة ظاهرا منه وقشرة تغرى بها العامة والسذج .

اما هذه المحاولات الهدامة فقد وجدت من مجددي الاسلام ومصلحيه القدرة على الكشف عنها وتمزيق سرها وفضح دعواها ، فتهدمت واحدة بعد اخرى وان كانت ما تزال ستجمع وتتشكل فى كل عصر بصورة جديدة .

اما الدعوات التى تدور فى اطار الاسلام ، فهي تتفق فى الجوهر والجذور، وتختلف فى التفاصيل والفروع، فقد حاول الفكر الاسلامي فى دعوته الى مذهب السنة والجماعة ان يمتصها ويستصفي جوهرها فيقضي عليها كوسيلة للفرقة او الاختلاف او تمزيق جبهة الفكر الاسلامي ، وقد اختلفت مع الزمن احزابها السياسية وعناصرها الحزبية وعواملها الزمنية وبقي لها تراثها الضخم من وجوه النظر فى قضايا السياسة والاقتصاد والفقه والاخلاق .

ولقد حق لعصرنا ان يستصفي حركة الفكر الاسلامي من خلافاتها التي لم تكن في الواقع الا اجتهادا وتطلعا الى وجهة نظر اوسع ، تختلف باختلاف العقليات والموروثات والبيئات ، حق لعصرنا ان تبرز حركة الفكر الاسلامي في جوهرها حركة واحدة هادفة الى السعة والنمو والمنفعة وان يزهد في صور الصراع التي حفلت بها كتب التاريخ ووجوه الحماسة والخصومة والعنف التي كانت تظاهرها ، حق لنا ان نكتب حركة الفكر الاسلامي على نحو جديد ، خالص من تلك الاشواك مرتفع فوق تلك المسالك المتشعبة بحيث يبدو جوهره متألقا ، صافيا ، غير مختلط بالزبد الذي يذهب ويبقى ما ينفع الناس .

◆ ◆ ◆

هذا من ناحية تطور الفكر الاسلامي .

اما من ناحية هذه الحصيلة الضخمة من التراث فقد حق ان تستصفى وتعزل عن ملابسات الخلاف وان تقدم صافية خالصة في اطارها الاصيل ، ومع عوامل تطورها ونمائها الطبيعي دون تجاهل لظروفها والتحديات التي واجهتها ، ذلك اننا اليوم نعيش (عصر يقظة الفكر الاسلامي والثقافة العربية) وان القضايا التي تواجه فكرنا العربي بل والفكر البشري كله اليوم تجد من تراث فكرنا الاسلامي العربي حلولا ومثلا واستجابات وقيما جديرة بالنظر والاعتبار .

ويزيد في أهمية هذا العمل ان اوربا في اوائل عصر النهضة قد استاثرت بحصيلة ضخمة من الفكر العربي الاسلامي ، كانت بعيدة المدى في بناء الفكر الغربي الحديث الذي قام على اساس ثلاث عناصر رئيسية : هي الفلسفة اليونانية والمسيحية والفكر العربي الاسلامي .

ولا شك كان للفكر العربي الاسلامي القائم في اوربا نفسها على هيئة الجامعات والمعامل في مختلف مدائن الاندلس التي انحازت الى الحضارة الغربية بمختلف ما تحمل من تراث وكتب ومعامل بعد ان اخرج منها أهلها العرب والمسلمون ــ هذا الفكر الادبي الناشيء الى حد بعيد الاثر ، لم يشا الاوربيون ان يفصحوا عنه خلال اكثر من اربعة قرون، بل حاولوا بكل ما يستطيعون من براعة ومهارة اخفاءه وتجاهله وشجبه ، بل اعلان الحملة عليه في موطنه وبين اهله .

غير ان الحق لم يلبث ان تكشف في عشرات من الابحاث والدراسات العلمية التي كشفت عن ثلاث حقائق هامة :

(الاولى) ان المسيحية والكنيسة تأثرت بالفكر الاسلامي وبفلسفة ابن رشد تأثرا كان بالغا في تطويرها وتحريرها من القيود التي كبلتها بها العصور الوسطى .

(الثانية) ان المنهج التجريبي الاسلامي كان هو الاساس الاول ، والاكبر ، في بناء النهضة العلمية الحديثة ، وان جذور هذه النهضة في مختلف فروع الفلك والطب والعلم والطبيعيات والكيمياليات وغيرها كان مصدره الفكر العربي الاسلامي وآثار العلماء المسلمين في جامعات قرطبة وبلنسية وغرناطة .

(الثالثة) ان الفكر العربي الاسلامي كان بعيد الاثر في مختلف نظريات ومناهج السياسة والاجتماع والاقتصاد والاخلاق وعلم النفس والتربية التي بناها الفكر الغربي الحديث ، وان هذه الجذور والاسس ما تزال واضحة .

كل هذا جعل من الضروري اعادة النظر في قيم الفكر العربي الاسلامي بعد تحريرها من قيودها واجوائها السياسية والتاريخية التي كبلتها بغشاء كاد يقضي على مضمونها الحي وجوهرها القوي الاثر .

ولا شك أن قيم الفكر العربي الاسلامي لم تكن قيم حضارة متحجرة كالحضارة اليونانية والرومانية ولكنها قيم حضارة حية لا تزال متفاعلة في المجتمع الاسلامي ، وان ضعفت مقوماتها واثارها في المجتمع البشري عما كانت عليه من قبل . واذا كان الفكر الغربي قد استصفى التراث اليوناني والروماني والمتحجر والميت ، والذي انفصل عنه الف عام كاملة ، وجعله اطارا سياسيا في النهضة الحديثة ، فما اجدر الثقافة العربية وهي وليدة الفكر الاسلامي ان تستصفي تراثها الحي ، وان تعيد النظر فيه على نحو علمي وعصري ، وان تلتقي به كجوهر أساسي وكارضية طبيعية متفاعلة مع الثقافة العربية وهو منها اساسا . ولقد كان المصلحون والمجددون المسلمون في العصر الحديث ، منذ بدات اليقظة بالدعوة الى التوحيد منذ اكثر من قرنين يلتمسون هذا الميراث الحي ويتصلون به ويجدون فيه الوسائل والقيم القادرة على الاستجابة مع تطور الحياة وروح العصر وحركة الحضارة .

واذا كانت قضية الفكر الاسلامي والثقافة العربية الكبرى هي هذه المواءمة بين الميراث الاصيل (البعيد عن الضعف والصراع والجمود) وبين حضارة العصر وروحه، فانما تستطيع هذه القيم اذا استصفيت وجددت ورفع من فوقها غبار الزمن وخلافات النحل وصراعات السياسة، ن تقدم «ارضية» اصيلة لحركة الفكر الاسلامي والثقافة العربية .

والواقع ان الثقافة العربية لا تستطيع — فى حركتها المتجددة مع الحياة والعصر الحاضر ، وفى مواجهة المذاهب والتيارات والدعوات التى يقدمها الفكر الغربي بشطريه والفكر البشري كله اليوم — اقول ، لا تستطيع أن تواجه هذه التيارات والقضايا مجردة من قيمها الاساسية واصولها المؤصلة ، وهي لن تستطيع أن تبني حياة قادرة على البقاء ، الا اذا قام بناؤها على هذ الاساس الصلب وهذه الارضية الراسخة المسماة : « القيم الاساسية للفكر الاسلامي والثقافة العربية »

فاذا حاولت الثقافة العربية ان تتصل بالفكر البشري فى تياراته المتعددة وايديولوجياته المتغايرة المتعارضة بين مذاهب الراسمالية والماركسية ، ودعوات الوجودية والبشرية والعالمية والاممية والصهيونية

اذا حاولت هذا الاتصال خارجة عن قاعدتها وقيمها ، غير راسخة البناء على جذورها ، وغير واضحة التقدير لملامح شخصيتها ، فان هذه التيارات جديرة بان تذيبها فى بوتقة الاممية الضخمة ، وان تصهرها فى مفهوم العالمية الذى يقضي على قيمها الاساسية ويفتك بها ، وهذا هو التغريب الاساسي الذى يحمل فى جوهره محاولة تذويب الامم والحضارات والقيم الاساسية لكل فكر حي ، فى اتون « الحضارة العالمية » حضارة الرجل الابيض المسيطر والمؤمن بانه هو السيد ، وان كل الشعوب والامم والحضارات تابعة له ولفكره ونفوذه وثقافته .

◆ ◆ ◆

واذا كان الدعاة والمصلحون فى مرحلة اليقظة الحالية قد انتفعوا بهذا الميراث الضخم وافادوا منه اسلحة قادرة على مقاومة حركات الغزو والتغريب والشعوبية والرد على الشبهات دون أن يصوغوه فى « كل متكامل » ، فقد آن الوقت لان يقدم الفكر الاسلامي على نحو يتمثل فيه جوهره وهو : التكامل والوسطية .

ولما كان أساس الفكر الاسلامي هو التقاء الروح والمادة ، والعقل ، والقلب ، والدين والدنيا ، فان الانفصال بين هذه المفاهيم ليس من طبيعة الفكر الاسلامي الذى يمثل « التكامل » بمعنى ان مختلف هذه الفروع من السياسة والدين والاجتماع والاقتصاد والتربية والاخلاق .

وانما هي اجزاء فى واحد لا يستطيع جزء من هذه الاجزاء ان يمثل الكل ، ولا أن يعمل منفصلا عنه ، وهي تتكامل فيما بينها وتتلاقى .

ويمثل الفكر الاسلامي فى نفس الوقت : الوسطية ، وهي المرحلة الوسطى بين الطرفين او المحورين المتباعدين ، هذه المرحلة هي الوسط بين الانحراف والجمود .

ومن هنا يتمثل الفكر الاسلامي دوما قادرا على الحركة فى مواجهة الاحداث والعصور والحضارات والازمنة والبيئات . وفق هذا القانون : قانون التكامل والوسطية والحركة ، يمكن ان يرسم القيم الاساسية للفكر الاسلامي صورة واضحة لمنهج شامل مرن قادر على الالتقاء بالفكر البشري متفاعل معه ، معط له ، محافظ فى نفس الوقت على شخصيته ومعالمه الاساسية .

◆ ◆ ◆

وجملة القول ان هذه محاولة اولية لتقديم « زبدة » الفكر الاسلامي وعصارة جوهره خالصة من الخلافات والمصارعات والمساجلات فهي أساسا جهد عقول ضخمة ونفوس قوية ، وقلوب صادقة ، وعيون انكبت طوال عمرها على البحث والنظر واستخلاص الحقائق ، فهو فى جوهره كل متصل لم ينفصل لا من خلال فرقه المعاصرة بعضها البعض ، ولا فى مراحله المتصلة جيلا بعد جيل ، وانه كان فى حملته محاولة للاستجابة للحياة على نحو يجعلها دائما قادرة على الحركة فى اطار « القرآن » وان هذه المحاولة قد استمرت وامتدت حلقات بعضها وراء بعض ، تكاملا لا تعارضا ، وانما كانت اشبه بدورة التاريخ قوة وضعفا ، واتصالا وتجزئة ، ثم عودة الى القوة والاتصال ، ولذلك فهي على هذا النحو المستصفى تمثل ايديولوجية كاملة لحركة فكر انساني حي فى اطار الاسلام ومنهج التوحيد .

القاهرة — انور الجندي

هل الثقافة الإسلامية أصبحت خاضعة لمرور الزمن ؟

للأستاذ محمد العنبري

كل نظام ــ كيفما كان ــ لابد له من اداة تعبر عنه وتربط الناس به وتجمعهم عليه وتقيم له من حوله انصارا وادلة . وتدفع عنه جميع الملاحقات التى قد تسيء اليه .

والرسالة الاسلامية ــ ككل الانظمة ــ لها ملابساتها التاريخية والموضوعية ولها تفسيراتها الواضحة للحياة وللكون كله . ولها وسائلها التى تخدم فكرتها العامة . ولها ايحاءاتها التى تتفق مع طبيعة التصور الاسلامي . ولها اخيرا تسجيلاتها على الظروف النفسية والاجتماعية التى تسبح فى المحيط الانساني . ولا يمكن بحال تجريدها عن هذه الملابسات، وهذه التسجيلات ، والزج بها فى مجالات اخرى ، قد يكون لها اثر عليها ، وتنحرف بها عن مجراها الطبيعي الذى اراده لها الله .

وخير وسيلة لتغطية هذه الجوانب ولخدمة الفكرة الاسلامية بصفة عامة وللاستجابة لمطالبها الكبيرة ، ومعالجة ما قد يطرا عليها من سوء تقدير او سوء تفكير ــ هو سبيل الثقافة الاسلامية بمعناها الصحيح ، الذى لا ينفك عن مدلول الصوت الالهي الذى يتجاوز حدود الزمان والمكان ، ويتجاوز البيئات والاحداث ويتجاوز المحيط البشري بكامله . فقد تنقضي ءاراء الناس بصوابها وخطئها ــ وتنقضي مذاهب الناس وافكارهم ، ولا تنقضي رسالة الاسلام هذه الرسالة التى لا تخضع لنتاج هجين . ولا لاي مجهود بشري يختلف كثيرا او قليلا عن فكرتها الاساسية التى تستطيع طبع جميع التجارب الانسانية وجميع التطورات المختلفة ــ فى اي شكل من الاشكال ــ ما استقامت على طريقها . وربما يفضي بنا ذلك الى القول ــ بأن الثقافة ــ فى مفهومها الاصيل المتحرر من نوازع الاهواء والشعارات ــ لا تعكس خلافات ولا خصومات، ولا تحتاج الى الدق فى الطبول والنفخ فى المزامير . بل فيها ما يعزي الناس عن كل مآسي الحياة . وفيها ما يتحرى التعبير عن آمال الانسانية الصادقة فى مفاهيمها الواضحة . تجاه محاولات لسيطرة مفاهيم اخرى عليها تبعد عنها كثيرا فى الصدق والاتجاه . وكما قال صاحب كتاب: « الانسان ذلك الكائن المجهول » : «ان العلم النقي لا يأتينا ابدا بالشر مباشرة . ولكنه يصير خطرا حين يحبس داخل المادة التى لا روح فيها ولا حياة. » ولكن الامر ينعكس حين تنعكس هذه المفاهيم، وينمحي اثرها عندما نقف على عتبة الباب الذى دخل منه الفكر البشري .. بغروره وجموحه وجحوده وجموده وخضوعه وقسوته وتصرفاته التى تنطوي على الكثير من المتناقضات ، والتى هي نتيجة حتمية لظروفه النفسية والفكرية والاجتماعية . اذ كل انسان محكوم بهذه الظروف التى لا قدرة له على تخطيها، ولا على اسدال الستار عنها . محكوم بجهله بضعفه بضرورته بغريزته . ومحكوم اخيرا بعدم قدرته على مقاومة التيارات التى قد تحيط به احيانا فتسلبه الانفعالات الخلاقة ورضى النفس ويقظة الضمير ،

وبعض هذه الاشياء قد يكون لها اسبق الآثار الى نفسه ، وبعضها قد يستبد به فيرمي به في حيرة مريرة وقلق مستمر .

وكل ذلك ــ كيفما كان الامر ــ يشكل مخايل التفاهة في مقدار ما يملكه الانسان من قوة وارادة وحرية، وفي حظوظه الهزيلة التي ربما تخطاها العين . وازاء ضراوة هذه الاحداث التي توحي خطورتها بكثير من المبادرات ــ فان الانسان لا يجد نفسه مضطرا لشيء كما يجد نفسه مضطرا لان يستوثق من صلابة الطريق . وفي كل طريق يمر بها الى تشييد صرح حياته وتحصينها عن الاضرار وملء جميع فراغاتها التي لا تنتظره ولا تعذره . وهذه الطرق ــ مهما تعددت ــ فانه لا يجد لنفسه معبرا الا على طريق الله الذي رسم خطوطها لعباده في رسالته الخالدة التي هي كفيلة بتبديد مخاوفه وتحقيق مطالبه ، وتصحيح اوضاعه ، وضمان نموه الطبيعي في غنى عن الصنعة البشرية القاسية .

ومن اجل ذلك كانت الحياة الاسلامية ــ بعد اعتمادها على الايمان الصحيح ــ تعتمد كذلك على الفهم الصحيح وعلى الوعي الصادق الذي يكون فكرة حية قوية متناسقة مع الروح الاسلامي من اجل حماية اهدافه ومخططاته ، اتقضي على كل ضجيج زائف من حوله ، وعلى كل الشعارات العابرة . وكما يصاب الاسلام من جانب اعدائه ــ وهذا مفهوم لنا جيدا ــ كذلك يصاب من جانب اوليائه ــ اذا هم نصبوا انفسهم للدفاع عنه بالباطل ــ عن حسن نية ــ نتيجة افهام عليلة ووسائل معطوبة واوعية غير نقية .

وتكوين هذه الفكرة هو معنى البناء الثقافي الذي ننشده ، والذي هو جدير بخدمة التصورات الاعتقادية والتعبدية والتشريعية ، وبترديد اللحن الازلي من اجل صياغة اجيال مومنة وبناء حياة اسلامية متمتعة بشعورها بالامن وبالاستقرار وبسكينة الله وببشائر الامل وبالسعادة الروحية التي لا يغني غناءها شيء . ومن شأن هذا البناء الثقافي ــ ان يقضي على كل واقع سيء وعلى كل حركة معاكسة وعلى كل شعور محترق وعلى كل عزلة ثقافية . وعلى كل تصرف يتعامل مع الفروض والتقديرات ولا يتعامل مع الواقع ويشل كل نشاط من شانه الا يربط على قلوب الناس ويجمعهم في صعيد واحد . فلا قيمة لهذه الثقافة ــ دع الثقافات الاخرى ــ اذا لم تتحول الى قوة كبيرة تحقق الاستجابة المطلوبة منها وتكيف الناس بها . ولا قيمة لها ايضا ــ اذا لم يكن لها نصيبها المعلوم من المشاركة في الحياة كما يقول اندري جيد ، ولا مكان لها بين الناس ــ اذا لم تكن مسبوقة بقوة الدفع والتلقي الصادق حتى يتم الانطباع بالمفهوم الثقافي في احسن الظروف واحسن الاحوال . ومن ثم كان لا مكان ايضا لضروب المعرفة المجردة المستقلة عن المعرفة العملية والخاضعة للمتاع الفكري وللمران الذهني ولرياضة عقلية تقرا في خضوع . ويعلم الله اننا نبلغ بها حد الاسفاف حين نفهمها على هذه الوجوه المقلوبة التي تعكس لها فكرتها الشمولية الواسعة المدى التي تحفها سكينة الله ــ في وحدة شاملة تصل الارض بالسماء وتنظم الدنيا بالدين وتكشف الجهالة بالعلم وتحيي المادة بالروح ، وتحمل معاني كبيرة للحياة في نطاقها الواسع . فنظرا لذلك ــ فنحن وان استنفدنا ما لدينا من جهد ــ فلا نستطيع ــ باي ثمن ــ تخليد مجدنا الثقافي الذي اصبح تحوم حوله الشكوك ، ومشكلة تطلب الحل ، ومسالة تريد الجواب ــ الا اذا طبعناه بذلك الطابع البارز المتميز الضارب في اعماق الماضي البعيد ، وجردنا له من انفسنا كل العوامل والدوافع الكفيلة بفهمه وترويجه واقناع الناس به وتقريبه من اذهانهم ، بدلا من ان يفرض عليهم فرضا باسم الدين ، فلا قيمة للحق المجرد ، اذا لم يكن نصيب في حس الناس ولا في شعورهم ولا في مجالاتهم . لانه ــ كما قال صاحب كتاب « كفاحي » : « ــ لا يكفي ان يكون الانسان صاحب حق ، بل عليه ان يعمل لاقناع الناس بهذا الحق . »

بيد انه ينبغي الا يفهم من المحافظة على هذا الطابع الثقافي المتميز ــ ما دمنا بصدد بناء الفكرة الاسلامية عن طريق هذه الوسيلة الطبيعية ــ اننا نريد لها الانعزال عن الركب البشري وعن التراث الانساني ونجعلها في حجر صحي . فقد يصبح حديثنا عنها ــ والحالة هذه ــ حديثا عن شيء غير مفهوم في اذهان الناس ولا في واقع الناس . وانما المهم الا تمس الصورة الاسلامية ، والا تتعرض لسوء تعديل او تغيير في القصد والاتجاه ، ولك ان تستفيد منها ــ بعد ذلك ــ ما تشاء . دل على ذلك ضرورة الاستفادة من المناهج التجريبية ومن العلوم التطبيقية التي لا يشك احد في جدواها ، ولا في ضرورة الاستفادة منها ، بدون قيد ولا شرط كما دلت عليه ــ ايضا ــ المفاهيم الاسلامية .

غير ان الذى نخشاه هو ما يرجع الى الغرض الثقافي الذى لا ينسجم ولا يتكيف مع المزاج الثقافي الاسلامي ، لان لكل ثقافة ذوقها واسلوبها ومقوماتها وابعادها واهدافها التى تنتظرها والتى تنطلق منها .

فمن جودة الحس وكمال اليقظة والانتباه – حينئذ – ان نكون حذرين عند الاقتباس من الطرق التربوية ومن النظم التعليمية من جهات اخرى ، حتى لا تتسم تغذيتنا من هذه الاقتباسات . ومن هذه الطرائق التفكيرية التى طبختها عقول اخرى ، وحتى لا نصطدم بواقع ثقافي غير واقعنا ، ونصدر عن مفاهيم غير مفاهيمنا ، لان كل ثقافة هي ملك للامة ، والحضارة ملك للجميع .

على اننا – فى مجال هذه التحريات لا نخشى على الفكرة الاسلامية من الدخول عليها من ابوابها الضيقة ومن تسلط الافكار المتلصصة عليها . لان لها قوتها من الضلاعة والاصالة والقدرة على التصرف ورد صاع بصاعين – ما يجعلها قادرة على الاخذ والعطاء . وعلى مطاردة القوى المجهولة ان اقتضى الحال . ولكن اخشى ما نخشاه ان يضيع المسلمون فى غمرة هذه المادية الجارفة ، وتحت تأثير « التطور المطلق » الذى هو شعار الفكر الغربي المعاصر ، والذى اصبح فى مقدوره ان يستضعف الاقوياء ويتملك الضعفاء ويستفز الناس من ارضهم ومن عقائدهم ومن تقاليدهم ويضرب على اقفيتهم فلا ينهضون الا وقد استولى عليهم الفقر والياس والقنوط وسوء الحال . وكيفما كان الحال ، فليس من شك فى ان الوقوف على الاحداث الاسلامية فى الماضي والحاضر وما نزل بالمسلمين – مما يزيدنا ايمانا بأن الاسلام – بالرغم من ذلك – لم يستطع ان يتقلب عليه متقلب، وان ذاق اهله الوانا من التظلم وصنوفا من التحكم . كما ساعدنا كذلك على فهم مغزى الخصومات والانحراف بالمفهوم الاسلامي. وعلى الغاية من تصيد كثير من الشبه له . وعلى تفسير كثير من الاضافات السيئة التى الصقت به .

وبعد .. فما هو المنهج العملي الذى تمليه الرغبة الصادقة فى تحسين المجال الثقافي وفى تحسين الاستفادة منه؛ وما هي الوسيلة التى تجود بالخير الكثير على الوجه الذى تنشده الامة الاسلامية ازاء هذه التركة الثقيلة وهذا الميراث الضخم الذى وضعه الله بين يد المسلمين ، ائتمنهم الله عليه وشرفهم به .؟

اننا لا نستطيع الاخذ فى المناهج التفصيلية وتحرى حسن التوزيع والتصنيف للنظم التعليمية – شأن كل ثقافة – ولا يمكن ان نخوض فى ذلك قبل ان نقول كلمة صريحة فى هذا الصدد تعتبر اساسا لتوفير كثير من ضروب النجاح وضروب الالتقاء وتقريب مسافات الخلق تتلخص فيما يلي :

ان الواقع الثقافي كشف ان اعمالنا فى هذا الميدان ستنساق مع كثير من ضروب العبث ومع دواعي الفشل – اذا لم تستهدف القضاء على كل المعوقات فى سبيل تعميق الفكرة الاسلامية الصحيحة على هدى من هذه الثقافة وترسيخها فى قلوب الناس . وننتزع لها كل قوة من نفوسنا لتكون لها صورتها الواضحة فى جميع مظاهر حياتنا . فما دامت القدرة على التعبير عنها خاضعة للتزييفات وللاعمال الغير الهادفة ولخداع العواطف وللجهود الضائعة المحصورة فى نطاق ضيق – فلن ننتهي الى رأي واضح . وستبقى علاقتنا بها وبماضينا المجيد كذلك مبتوتة الصلة وامرا مفروضا – كما ستبقى – ايضا مستمرة دوافع التعبير ودوافع التفكير من جهات اخرى . وبخاصة فى الوقت الذى اختلط فيه الدعاة بالادعياء . والنائحة الثكلى بالنائحة المستاجرة . فلا الصراع بين الثقافتين ، ولا مدى التلاؤم بينهما ، ولا سيطرة الاوضاع المادية ولا اسبقية الاحتياجات والمطالب الا قتصادية ولا نشوة الاكتشافات العلمية والفتوحات الفكرية المعاصرة ولا الاهتمامات المتزايدة فى غمار ملحمة التصنيع – هو الذى سلط عليها الاضواء الزائفة ، وجند لها كل القوى . وانما الاسباب الحقيقية التى ارهقت اعصاب هذه الثقافة ، تتمثل فى فقدان شعورها الشمولي، وفى فقدان فعاليتها الكبيرة فى اذهان الناس، وفى دنيا الناس، والتي هي جديرة بالتصفية والتمهيد لكل ما من شأنه ان يشهد لها مواقفها الاصيلة المدخرة . فحينئذ ، الامر لا يحتاج الى اكثر من اصلاح مواقف الناس من هذه الثقافة ، وتصحيح الانتساب اليها والرأي فيها ، ومعالجة ضعفهم وقصر نظرهم على هدى وبصيرة مما تخدمه هذه الثقافة فى تعبئاتها الواسعة . فهم – لذلك فى حاجة الى الصدق مع انفسهم ومع رسالتهم ومع افكارهم وتحديدها فى وضوح لتعيش فى وضوح بدلا من القاء الاتهامات على الآخرين .

ويشهد الله انهم اذا ما عملوا على ذلك – بصدق واخلاص – فانهم يستفيدون من ثقافتهم الكثير ويفهمون عنها الكثير ويفهم الناس عنهم الكثير كذلك .

فاذا اراد رجال الفكر الاسلامي ان يستمتعوا بثقافتهم ـ من اجل استئناف حياة عملية واسعة طافحة بالبشر جديرة بالاحترام ـ فعليهم ان يجددوا كل شيء من حولهم ، يجددوا شعورهم بهذه الثقافة وبالغرض منها وبمطالبها الواسعة التى تتخطى البيئة والاقليم، ويجددوا كذلك تصوراتهم ومواقفهم مما تخدمه هذه الثقافة فى اصالتها وصفائها وفى انطباع الناس بها على الوجه المقبول ـ لضمان مسيرة مومنة صادقة طويلة الى الله ، تكمن بواعثها في المنطقة الوجدانية العملية البعيدة عن التزوير والمتاجرة وفى قلوب المومنين الذين راضوا انفسهم على تلمس ما فى هذه الثقافة من معنى صحيح ، لتصحيح الاوضاع ، والكشف عن وجوه الريبة والالتباس فى حياة الناس وفى تقييمهم للاشياء وفى التفاضل بينها على اساس الوضع الاسلامي الذى يضع الاشياء فى موضع سلم القيم الانسانية لا فى غيرها . وعلى اساس الغايات الخلقية والخير العام الذى لا يعيش فى دنيا الاطماع ولا فى دنيا الفتوح ، ولا فى دنيا النفوس المفتونة بشهواتها ومغرياتها .

وكم يكون الفكر الاسلامي سعيدا اذا حقق رجل الفكر ما ينتظر منه من الالتزام الجاد المخلص بمقدرات هذه الثقافة وبمعنوياتها وباصولها وفروعها ، لان فى الالتزام بذلك ، التزاما لهم بالانتصار على قوى التسلط لتفتيت الفكرة الاسلامية ، وعلى كل القوى والاشباح المخيفة ، والا فعليهم ان ينتظروا ويحتملوا اكثر ما يلزم واكثر ما يمكن من ثمن فشلهم. والله بالغ امره .

فاس ـ محمد العنبري

اثقب اللؤلؤ

دخل بشار على المهدي وعنده خاله يزيد بن منصور الحميري ، فانشده قصيدة يمدحه بها ، فلما اتمها قال له يزيد : ما صناعتك ايها الشيخ ؟ فقال له : اثقب اللؤلؤ . فقال له المهدي : اتهزا بخالي ؟ فقال : يا امير المومنين ما يكون جوابي له وهو يراني شيخا اعمى ينشد شعرا . فضحك المهدي واجازه .



للأستاذ : الراجي التهامي الهاشمي

- 16 -

قبيلة مذحج

اتفق الجميع اصحاب المطولات اللغوية والجغرافيون والمؤرخون والنسابون على ان مسكن مذحج الاصلي هو اليمن (1) .

اما وزنها فعلى مسجد (2) واكد سيبويه ان الميم من اصل الكلمة ومنهم من راى ان دالها غير معجم .

اما سبب تسمية هذه القبيلة بمذحج فالمشهور عند العارفين بالانساب ان جدهم الاول مالك بن ادد بن زيد ازداد على اكمة كانت تعرف بمذحج فسمي باسمها .

ويظهر ان خلقا كبيرا منهم استوطن فى عصر قديم حضرموت ، ويقول المؤرخون ان تلبيتهم فى الجاهلية اذا حجوا ، كانت : « لبيك رب الشعرى ، ورب اللات والعزى » .

وصنمهم المشهور هو يغوث المذكور ، مع اصنام جاهلية اخرى فى الآية 23 من سورة نوح : « وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا » .

ويذكر بعض المفسرين ان يغوث كان على صورة اسد ، ويظهر ان عبادته بدات من زمن نوح وبقي معبودا حتى ظهور الاسلام .

ومن الد اعداء هذه القبيلة ابناء عامر بن صعصعة الذين حاربوها محاربة لاهوادة فيها وقت ظهور الاسلام .

ولقد انتقل خلق كبير منهم فى العهود الاسلامية الاولى الى البصرة حيث كان لهم فيها النفوذ القوي .

شاركت هذه القبيلة فى القرآن الكريم بستة الفاظ وزعت فيه على الشكل الآتي :

1 ــ مفردة : « **رفث** » الموجودة فى الآية 187 من سورة البقرة . جاء فيها : « احل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم ، هن لباس لكم وانتم لباس لهن ، علم الله انكم كنتم تختانون انفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم ، فالآن باشروهن ، وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر ، ثم اتموا الصيام الى الليل الآية» .

والرفث هو اللفظ الوحيد المستعمل فى القرآن الكريم الدال على القبح فى هذا المعنى ، وقد اتفق على هذا عدد كبير من المفسرين (3) وبينوا ان الحق سبحانه وتعالى استعمل لهذا المعنى فى آيات اخرى كثيرة الفاظا مختارة ك : « افضى بعضكم الى بعض » (الآية 21 من سورة النساء) و « فلما تغشاها » (الآية 189 الاعراف) و « باشروهن » (الآية 187 من سورة البقرة) و « او لامستم النساء » (الآية 43

---

(1) الصحاح ج 1 صفحة 340 ، المنجد فى اللغة صفحة 489، الاعلام ج 8 صفحة 80

(2) باتفاق جميع الباحثين الا لويس معلوف الذى ضبطها بالفتح وهو خطأ شنيع ، اما ابن خلكان فقد ضبطه بالضم فى الوفيات .

(3) ومن بينهم الراغب الاصفهاني الذى قال فى كتابه المفردات فى غريب القرآن : « الرفث كلام متضمن لما يستقبح ذكره من ذكر الجماع ودواعيه » صفحة 199

(النساء) « دخلتم بهن » (الآية 23 النساء) و « فاتوا حرثكم » (323) و « من قبل ان تمسوهن » (227 البقرة) و « فما استمتعتم به منهن » (24 النساء) و « تقربوهن » (222 البقرة) .

واعتقد ان الحق سبحانه وتعالى استعمل هذا اللفظ الخشن ، اللفظ الدال على القبح استهجانا لهم لما وجد منهم قبل الاباحة (4) ، وقد وردت هذه المفردة مرة اخرى فى السورة نفسها الآية 197 . ومعناها بلغة مذحج جماع .

2 ـ كلمة : ((**الحليم**)) التي تفيد عكس ما تفيده الآية 80 التى يقول فيها سبحانه وتعالى : « من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها ، وكان الله على كل شيء مقيتا » ومعناها بلغة مذحج مقدرا . وقد اعطاها الزمخشري معاني اخرى (5) هي شهيد وحفيظ (6) واضاف و « قيل مقتدرا » .

ولابد ان اشير الى ان هذه اللفظة لم ترد الا مرة واحدة فى القرآن .

3 ـ لفظة : ((**ظاهر**)) الآية 33 من سورة الرعد التى جاء فيها : «افمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ، وجعلوا لله شركاء قل سموهم ، ام تنبئونه بما لا يعلم فى الارض ام بظاهر من القول ، بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ، ومن يضلل الله فما له من هاد » ومعناها بلغة مذحج « كاذب » والملاحظ ان الراغب الاصفهاني اغفل هذه اللفظة فلم يشر اليها فى كتابه : « المفردات فى غريب القرءان » .

4 ـ كلمة : ((**وصيد**)) الموجودة فى الآية 18 من سورة الكهف التى جاء فيها : « وتحسبهم ايقاظا وهم رقود، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا » ومعنى الوصيد بلغة مذحج الفناء . وذهب كثير من المفسرين (7) ان معناها المقفلة، وعززوا قولهم بالآية : « عليهم نار موصدة » .

5 ـ مفردة : ((**كبت**)) الكائنة فى الآية 5 من سورة المجادلة التى يقول فيها سبحانه وتعالى : « ان الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم ، وقد انزلنا آيات بينات ، وللكافرين عذاب مهين » .

ومعناها بهذه اللغة « لعن » ومن نزلت عليه لعنة الله فهو هالك لا محالة . وقال الراغب الاصفهاني : « الكبت : الرد بعنف وتذليل » وعزز تفسيره بقوله تعالى : « ليقطع طرفا من الذين كفروا او يكبتهم فينقلبوا خائبين (8) » .

6 ـ كلمة : ((**الخرطوم**)) اعتقد عدد كبير من المفسرين والمهتمين بلغة القرآن ان هذه اللفظة من لغة مذحج (9) وليس ببعيد ان تكون هذه المفردة ظهرت اول ما ظهرت فى مذحج بعد ان تسربت اليها من اللغة الآرامية او لعلها تبتت وانتشرت فى هذه القبيلة اكثر مما تبتت وانتشرت فى القبائل العربية الاخرى الامر الذى جعل هؤلاء المهتمين يحسبونها مذحجية ، وهي فى الآرامية : « Hartoumo » بمعنى الانف (10) .

وتوجد هذه المفردة فى الآية 16 من سورة القلم التى يقول فيها الحق سبحانه وتعالى : « سنسمه على الخرطوم » وفى كلمة الخرطوم ما فيها من الاستخفاف والاستهانة بالكافر المجرم .

19 ـ قبيلة مدين

شاركت هذه القبيلة فى القرءان الكريم بثلاث مفردات وردت فيه كما يلي :

1 ـ فعل : ((**افرق**)) فى قوله تعالى : « قال رب اني لا املك الا نفسي واخي فافرق بيننا وبين

(4) الكشاف الجزء الاول صفحة 115 .
(5) الكشاف الجزء الاول صفحة 286
(6) وقد وردت نفس هذه المعاني فى كتاب «المفردات فى غريب القرآن » لابي القاسم الحسين بن محمد الراغب الاصفهاني صفحة 414 .
(7) منهم الراغب الاصفهاني « مفردات غريب القرآن صفحة 525 » والزمخشري « الكشاف الجزء 11 صفحة 383 » وغيرهما .
(8) نفس المصدر اعلاه صفحة 420
(9) من بينهم ابو القاسم ابن سلام
(10) غرائب اللغة العربية 180

القوم الفاسقين » الآية 25 من سورة المائدة وهي هنا فى هذه الآية بمعنى فاقض بلغة مدين (11) وبهذا فسرها الزمخشري اولا فقال (12) : « فافصل بيننا وبينهم بأن تحكم لنا بما نستحق وتحكم عليهم بما يستحقون » ثم اردف هذا القول بما تفيده هذه اللفظة فى معناها العام وهي دلالة توافق معنى الآية ايضا فى نظري ، قال : « او فابعد بيننا وبينهم وخلصنا من صحبتهم . » غير ان الراغب الاصفهاني يدقق اكثر ويحصرها فى المعنى الذي تفيده اللفظة فى لغة مدين فيقول (13) : « وفرقت بين الشيئين فصلت بينهما سواء كان ذلك بفضل يدركه البصر او بفعل تدركه البصيرة » .

وقد تكررت هذه المفردة بصيغ اخرى فى القرآن الكريم . جاء فى سورة المرسلات الآية 4 « فالفارقات فرقا » وهم الملائكة الذين يفصلون بين الاشياء » وبنفس المعنى وردت فى قوله تعالى : «وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا (14) . وفى قوله عز وجل « فيها يفرق كل امر حكيم (15) » ويغلب على الظن انه ما سمي عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاروقا الا لكونه نصب نفسه فارقا بين الحق والباطل .

2 ــ كلمة : **« الحليم »** التى تفيد عكس ما تفيده كلمة الاحمق وكلمة « الرشيد » التى تعطي معنى معاكسا للسفيه فى لغة مدين (16) وردتا فى الآية 87 من سورة هود التى يقول فيها الحق سبحانه وتعالى : « قالوا يا شعيب اصلواتك تامرك ان نترك ما يعبد آباؤنا او ان نفعل فى اموالنا ما نشاء انك لانت الحليم الرشيد » ولقد كرر عز وجل كلمة الحليم بهذا المعنى كثيرا فى القرآن الكريم سيما فى السورة المذكورة الآية 75 « ان ابراهيم لحليم اواه منيب » وفى الصافات الآية 101 « فبشرناه بغلام حليم » كما كرر كلمة « رشيد » بهذا المعنى فى اماكن كثيرة من القرآن الكريم (17) .

3 ــ لفظة : **« آنية »** (18) فى قوله تعالى : « تسقى من عين آنية » وهي فى لغة مدين بمعنى حارة .

ولا يستبعد ان تكون كلمة « آن » فى قوله تعالى : « يطوفون بينها وبين حميم آن» (19) من اصل مدين ايضا دالة على شدة الحرارة وان كان اللغويون يذهبون الى ان انى الشيء يأني ادرك منتهاه ، فيقولون فى هذه الآية : « بين حميم آن » بالغ اناه فى شدة الحر . وكل مدرك آن (20) ولكنني ارى ان القرآن الكريم الذى اعجز الشعراء الفطاحل والناثرين المجيدين ببلاغته اتى بما لا يستطيع الانسان وصفه من الدقة فى المعنى فى كلام وجيز خفيف ينساب بنساب كما لا تقدر ان تنساب احسن سنفونية عرفها البشر، فوصف الحميم بلفظة من مدين اغنت عن الاتيان بكلمة كثيرة لا تفي ، وهي مجموعة ، بما تفي به هذه الكلمة التى شرفها الله فاوردها فى هذه الآية الكريمة .

اما التى فى قوله تعالى : « ويطاف عليهم بآنية من فضة واكواب كانت قواريرا (21) فتدل على ما يوضع فيه الشيء وهي جمعا لاناء .

20 ــ قبيلة خزاعة

قبيلة قحطانية ، خزعت (اي تخلفت) عن الازد لما خرجت هذه الاخيرة من مكة لتتفرق فى البلاد (22)

---

(11) ابو القاسم بن سلام ، حاشية الجلالين صفحة 104 من الجزء الاول
(12) الكشاف الجزء الاول صفحة 332
(13) المفردات فى غريب القرآن صفحة 377
(14) الاسراء الآية 106
(15) الدخان الآية 4
(16) ابن سلام حاشية الجلالين 198 من الجزء الاول وجدير بالذكر ان اشير هنا الى ان الامام جلال الدين السيوطي الشافعي الذى اخبرنا ان نقل جميع ما اورده ابو القاسم بن سلام من الالفاظ غير القرشية فى القرآن لم يذكر هاتين اللفظتين فى اتقانه رغم ورودهما عند ابن سلام
(17) 78 هود و 7 الحجرات وغيرهما .
(18) أبو القاسم بن سلام حاشية الجلالين صفحة 284 من الجزء 2 ولم يذكره السيوطي فى الاتقان
(19) الرحمن الآية 44
(20) الصحاح الجزء السادس صفحة 2273
(21) الانسان 15
(22) الصحاح الجزء الثالث صفحة 1203
(23) الاعلام الجزء الثاني صفحة 338

وفضلت المكوث فيها . ولقد رايت ان من النسابين من يجعلها عدنانية من مضر ، ولكنهم قلة . كانت تسكن اراضي شاسعة فى الجزيرة وغيرها ولكني اعتقد ان منازلهم الاصلية كانت « الابواء » بين مكة والمدينة وفى وادي غزال ووداي دوران وعسفان فى تهامة الحجاز (23) اما صنمها التى كانت تقدسه فيدعى : « ذو الكفين » تعبده مع قبائل « دوس »

شاركت هذه القبيلة فى القرآن الكريم بلفظتين :

1 ـ « افيضوا » فى قوله تعالى : « ثم افيضوا من حيث افاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم» الآية 199 من سورة البقرة ومعناها فى لهجة خزاعة انفروا (24) ؛ واعتقد ان القرآن الكريم قيد معناها قليلا فصار : « افاض الناس من عرفات الى منى ، بمعنى دفعوا ، وكل دفعة افاضة (25) » اي « دفعتم بكثرة تشبيها بفيض الماء (26) ».

والعجب العجاب ان يقول: Edouard Montet مترجم القرءان الكريم الى اللغة الفرنسية (27) بسبب وقوفه على هذه اللفظة : « ما معنى هذه الجملة الغامضة ! المعتقد ان المقصود من الاماكن المقدسة التى تزار قصد الحصول على المغفرة (28) » .

اما ان تكون الجملة غامضة فهذا امر لم يقله احد ، وعيبها الوحيد انها غاية فى الوضوح ، حملت فى كلمات قلائل ، وباسلوب شعري جميل امرا الى السادة المتعجرفين بالاختلاط بالناس ، موحدة بذلك العباد فى شعائر الله.

2 ـ كلمة : « **افضى** » فى قوله تعالى : « وكيف تاخذونه وقد افضى بعضكم الى بعض واخذن منكم ميثاقا غليظا » الآية 21 من سورة النساء، ومعنى الافضاء الجماع بلغة خزاعة (29) ، ولم ترد هذه المفردة الا مرة واحدة فى القرآن الكريم ، ولا يخفى ما فى هذه المفردة من البلاغة والتصريح لان المقام يقتضي اكثر من ان يقول : « خلا بامراته » وهذا هو البيان الذى اخرس العرب . وليحقق هذه المعجزة الكبرى شرف القرآن الفاظا غير قرشية فادخلها فيه حين كان استعمال هذه المفردات يزيد المعنى دقة ، والاسلوب جمالا ، والمقام رفعة ، والكلام حلاوة ، والسياق خفة، والموسيقى رشاقة ، والنغم غنة .

اكادير ـ الراجي التهامي الهاشمي

---

(23) الاعلام الجزء الثاني ص 338

(24) حاشية الجلالين ابي القاسم بن سلام صفحة 31 والاتقان للسيوطي

(25) الصحاح صفحة 1099

(26) المفردات في غريب القران صفحة 288

(27) Le Coran, Payot, Paris, 1949 1949

(28) ورد هذا التعليق فى الحاشية رقم 7 من صفحة 107 الجزء الاول جاء فيها :

« Quel est le sens de cette phrase obscure ! Il s'agit probablement des Lieux Saints qu'on visite pour obtenir le pardon divin ».

(29) ابو القاسم بن سلام حاشية الجلالين صفحة 77 من الجزء الاول والاتقان صفحة 136 .



الأستاذ : عبد الكريم التواتي

في العدد الثالث من السنة الثانية عشرة من مجلة « دعوة الحق » الغراء جاء في مقال « الرق والذمة » للاستاذ الدكتور محمد عزيز الحبابي هذه العبارة « او باصح عبارة : لم يستطع ان يفعل ـ اي الاسلام ـ ذلك » وهذا الاسلوب لا يتناسب والتحليل الفلسفي الذي ينبغي أن يكون محال بحث تهذا .. على ان الاستاذ يعلم بان الاسلام في كل مقرراته ـ باستثناء عقيدة التوحيد ، وما تستتبعه من مساواة واخوة وعدالة ـ لم يعالج القضايا الانسانية بغير التدرج الطبيعي والاخذ لها باللين والروية فهو عندما اراد ان يحرم الخمر .. كانت الاستعدادات النفسانية لدى الصحابة من السمو والنبل بحيث لم يكن عن التعذر ان تستجيب دفعة واحدة لاوامر الله والرسول، فان الروايات التاريخية التي لا تحتمل الشك او الجدل اثبتت ان عمر هو الذي ما انفك يسال الرسول ان يفتيهم الله في الخمر .. اقول ان الاسلام عندما هم بتحريم الخمر .. لم يصدر الحكم النهائي ابتداء وانما صدر على مراحل كانت المرحلة الاولى ما اشارت اليه سورة البقرة : « يسالونك عن الخمر والميسر، قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس ، واثمهما اكبر من نفعهما » .. اما المرحلة الثانية فكانت تلك التي اشارت اليها آية سورة النساء التي يقال انها نزلت بعد شجار حدث بين جماعة من الصحابة اثر تناولهم العشاء عند بعضهم وقيامهم للصلاة وراءه وهو سكران فاخذ يخلط في الآيات القرآنية « يا ايها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » .. اما المرحلة الثالثة والاخيرة فكانت تلك التي اشارت اليها آية المائدة : « انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » .

وتطبيقا لهذه السياسة لم ير الاسلام ان يحرم الاسترقاق دفعة واحدة ـ والاحوال الزمنية لم تكن

ملائمة ـ فآثر ان يستخدم اولا التاثير الادبي الذي اشرتم الى بعض مظاهره لا انه لم يستطع .. ولهذا فآمل من كاتب فيلسوف زاده هو الكلمة ويعرف مدى خطورتها ان يتحرى في الكلمات التي يستخدمها لاعطاء مضامينه مداولا مقروءا .

كما ان حكمكم بان مجرد معاملة السيد عبده بالمعاملة السيئة توجب على القاضي تحرير العبد دون معارضة السيد ، يحتاج الى سند شرعي .

وقولكم ان « الاسلام يرحب ايما ترحيب بالزواج بالعبيد ..» اطلاق للكلام على عواهنه ، فالاسلام في هذه القضية بالذات يقول « ولا تنكحوا المشركات حتى يومن ولأمة مومنة خير من مشركة ولو اعجبتكم ، ولا تنكحوا المشركين حتى يومنوا ولعبد مومن خير من مشرك ولو اعجبكم » وسبب هذا النزول ـ على الاصح ـ ما رواه السدي عن ابن عباس من انها نزلت في عبد الله بن رواحة وكانت له أمة سوداء ، وانه غضب عليها فلطمها ثم انه فزع فاتى النبي (ص) فاخبره خبرها ، فقال له (ص) : ما هي يا عبد الله ؟. قال : هي يا رسول الله تصوم وتصلي وتحسن الوضوء وتشهد ان لا اله الا الله وانك رسوله. فقال : يا عبد الله انها مؤمنة. قال عبد الله فوالذي بعثك بالحق لاعتقنها ولاتزوجنها ففعل فطعن عليه ناس من المسلمين فقالوا نكح امة .. والخيرية في الآية كما هو واضح نسبية .. والجمهور على ان المراد بالأمة والعبد الرقيق . وان المعنى « ان الامة المملوكة المومنة خير من الحرة المشركة ، ولو اعجبكم جمالها ، وكذلك القن المومن خير من الحر المشرك وان كان معجبا ، **وتعلم منه خيرية الحر المومن والحرة المومنة بالاولى (1)** » تلك بعض التعقيبات على مقال الرق والذمة آمل من الاستاذ الحبابي ان يفحصها بصدر رحب وان يتقبلها والسلام على اخوة الدكتور ورحمة الله .

فاس ـ عبد الكريم التواتي

(1) المنار الجزء الثاني ص 351 الطبعة الثالثة

تقويم اللسانين

للدكتور تقي الدين الهلالي

« 9 »

44 ـ **تاشيرة السفر** ، ومن الاخطاء الشائعة الفاضحة التعبير بالتاشيرة في جواز السفر بمعنى الاذن الذي تعطيه سفارة دولة من يريد السفر الى بلادها ، فهذا اللفظ بهذا المعنى لا اساس له في اللغة العربية ، وسبب استعماله ان بعض البلدان العربية يستعملون في لغتهم العامية اشر بفتح الهمزة وتشديد الشين مفتوحة بمعنى اشار فيقولون يؤشر له بيده اي يشير له ، فاستعمل بعض جهلة الكتاب التاشير بمعنى الاشارة يريد بذلك سمة الدخول الى بلاد دولة من الدول وتبعه امثاله في ذلك وانتشرت هذه الكلمة عند العامة واستعملتها الخاصة تبعا لهم بدون مبالاة والذين لا يعرفون اللغات الاجنبية منهم يظنون انها مقتبسة منها وانها شيء محتم لا بد منه ولا غنى عنه فيذعنون له كما يذعنون الى غيره من الالفاظ الدخيلة والمولدة وبذلك يخدش وجه اللغة العربية وتزول محاسنها ويقضى عليها ، حتى اذا قابل العالم بها انشاء اهل هذا الزمان بانشاء اسلافهم يصيبه من الدهشة مثل ما يصيبه اذا قابل هممهم بهممهم واعمالهم بأعمالهم فينشد قول الشاعر :

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم
وبقيت في خلف كجلد الاجرب

وقول الآخر :

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم
والمنكرون لكل امر منكر
وبقيت في خلف يزكي بعضهم
بعضا ليسكت معور عن معور

المعور : الذي فيه خلل .

والتاشير في كلام العرب غير مهمل ولكن له معنى ، غير ذلك قال صاحب اللسان تاشير الاسنان تحزيزها وتحديد اطرافها وقد اشرت المراة اسنانها تاشرها اشرا واشرتها (بتشديد الشين) حززتها .

ثم مضى الى ان قال : والتاشيرة ما تعض به الجرادة والتاشير شوك ساقيها ، اهـ . المراد منه .

والصواب ان يقال بدل التاشيرة (السمة) بكسر السين وفتح الميم مخففة وهذا اللفظ مستعمل فعلا في العراق يقال فلان منح سمة الدخول الى البلاد العراقية او المرور بها وهو استعمال صحيح .

45 ـ **سلام حار، وشكر حار** هذا مما اخذه المستعمرون بفتح الميم من المستعمرين بكسرها ، والسلام عند العرب لا يوصف بالحرارة بل بالكثرة والطيب والزكاة ، فيقال ازكى السلام واطيبه ويشبه السلام عند العرب بالنسيم الذي يهب على الروض فيحمل اطيب روائحه الى المحبوب قال بعضهم :

سلام على الاحباب في القرب والبعد
سلام كما هب النسيم على الورد

لا يقال هذا اقتباس حسن يقتبسه الكاتب العربي من الكاتب الاوربي لا ان نقول ان انشاء العربي

سبق الانشاء الاوروبي وبلغ اوج الكمال فلا حاجة به الى ان يقتبس من الآداب الاوروبية شيئا سبقهم اليه وعلمهم اياه وليس هذا من المخترعات ولا من المكتشفات التى كانت مجهولة حتى يقتبسها العرب من مخترعيها ومكتشفيها اهـ .

46 ـ الليلة الماضية او ليلة امس ، ومن الجهل باللغة العربية تعبيرهم بالليلة الماضية او ليلة امس كما تعبر به الاذاعات ويقتدي بها المتكلمون ، والصواب ان يقال البارحة . قال صاحب اللسان : والبارحة اقرب ليلة مضت ، تقول : لقيته البارحة ولقيته البارحة الاولى . وقال ثعلب : تقول مذ غدوة الى ان تزول الشمس رايت الليلة فى منامي فاذا زالت قلت رايت البارحة، ومن امثال العرب : ما اشبه الليلة بالبارحة ، اي ما اشبه الليلة التى نحن فيها بالليلة الاولى التي قد برحت وزالت ومضت ، اهـ كلام صاحب اللسان . وقد ضمن بعضهم هذا المثل فقال فى ذم اصدقائه :

كل خليل كنت خاللته
لا ترك الله له واضحة
كلهم اروغ من ثعلب
ما اشبه الليلة بالبارحة

يقول ان اصدقاءه يشبه بعضهم بعضا فى الخيانة والغدر ويدعو عليهم بان لا يترك الله لاحدهم واضحة اي سنا ، اقول البارحة الاولى : هي الليلة التى قبل البارحة وهذه العبارة لا تزال مستعملة عندنا فى سجلماسة (تافيلالت) وقد غير لفظها الى ان صار هكذا (البارحتلولى) .

47 ـ **اما عن كذا وكذا ..** وهو من التعابير المأخوذة من لغات المستعمرين ولا تزال طرية يعرفها كل من يعرف اللغات الاجنبية واستعمارها للعربية وطغيانها عليها ومسخها لجمالها والصواب ان يقال اما ويؤتى بالكلمة المقصودة مرفوعة ، ان كانت عارية عن العوامل التى توجب نصبها نحو :

ولم ار كالمعروف اما مذاقه
فحلو واما وجهه فجميل

واما ان كانت فى متناول عامل ينصبها فيؤتى بها منصوبة كقوله تعالى : (فاما اليتيم فلا تقهر واما السائل فلا تنهر)

واما ان كانت الكلمة جارا ومجرورا فيوتى بها بعد اما نحو (واما بنعمة ربك فحدث)

واما هؤلاء الكتاب المخطئون فانهم جعلوا كل كلمة تاتي بعد اما مجرورة بعن ، فيقولون مثلا : اما عن فلان فقد فعل كذا وكذا . فيقحمون عن بدون معنى لموافقة جهلة المترجمين ، ولو سالت أحدهم : لماذا عبرت بهذه العبارة لقال لك: سمعت كتابا محترمين وخطباء ومذيعين يعبرون بها فهل يجوز ان يكون هؤلاء كلهم مخطئون ، ولو سالت اولئك الكتاب والخطباء لما كان جوابهم افضل من جواب مقلدهم وهذا مضرب المثل (تمسك غريق بغريق) .

اعمى يقود اعمى !، وما المانع ان يكون مخطئين فهل هم معصومون !.. فالمعصوم من الخطا عند علماء هذا الشان هو القرآن وما صح من كلام العرب الخلص الى آخر عهد بني امية قبل ان يفشو اللحن والخطا وتختل اللغة ويرجع كذلك الى قواعد اللغة ، ومن نظر فى كتاب الله وكلام العرب يتبين له لاول وهلة جهل هؤلاء المركب ، فانهم يجهلون ويجهلون انهم يجهلون ، وما اكثر هذا الجهل المركب فى البلدان المتاخرة التى اختلط حابلها بنابلها ، والتبس حقها بباطلها .

48 ـ **لم ترضخ للاستعمار** ـ من الافعال الشائعة الاستعمال فى الصحف والمجلات والخطب وكلام الناس والاذاعات استعمال رضخ له بمعنى خضع وهو استعمال مخترع مكذوب لا اصل له فان الرضخ اذا تعدى بنفسه فمعناه الكسر ، واذا تعدى باللام فمعناه العطاء القليل ، يقال رضخ راس الحية اي كسره ، ورضخ له من ماله اي اعطاه شيئا قليلا ، ورضخت المراة النوى بالمرضخة اي كسرته لتجعله علفا للمواشي ، ومن لا يزن كلامه بقسطاس مستقيم بل ياخذ انشاءه من كلام كل من هب ودب فانه يقع فى اخطاء لا تعد ولا تحصى ولا نتعجب من العامة اذا فعلوا ذلك وانما نتعجب من الخاصة الذين يرجى منهم ان يسهروا على تحقيق اللغة واصلاح الخطا ، فاذا بهم يرتكبون الاخطاء ولا يبالون وربما يغضبون اذا نبهوا ويتعصبون، وهذا مضرب المثل: (بالملح يصلح ما فسد، فكيف اذا الملح فسد) فلسان اللغة العربية ينشدهم :

اذا رمتم قتلي وانتم احبتي
اذن فالاعادي واحد والحبائب

49 ـ ومن مساويء استعمار بل استعباد اللغات الاوروبية للغة القرآن تسميتهم الرجل العظيم شخصية ، والرجال العظماء شخصيات .

وقد راجعت كتب اللغة على سبيل الاحتياط فلم ازدد الا يقينا بفساد هذا الاستعمال ، والصواب ان يقال بدل الشخصية رجل عظيم او نبيل او سري، والشخصية لفظ مؤنث ففيه نقص وذم لمن وصف به تكيف يكون تعظيما ، وفي لسان العرب ما نصه : والشخيص العظيم الشخص والانثى شخيصة والاسم الشخاصة . قال ابن سيده ولم اسمع له بفعل فاقول ان الشخاصة مصدر ابو زيد ، رجل شخيص اذا كان سيدا ، وقيل شخيص اذا كان ذا شخص وخلق عظيم بين الشخاصة وشخص الرجل بالضم فهو شخيص اي جسيم . اهـ .

قال محمد تقي الدين يرحم الله ابن سيده ما اشد حرصه على سلامة اللغة العربية والمحافظة عليها من الاختلال فحيا الله ذلك الزمان الذي كان فيه للغة العربية حماتها وانصارها يذودون عن حماها ويصونونها من العابثين والجاهلين فانه رحمه الله لم يستطع ان يقيس فيوجد لهذه الصفة فعلا لانه لم يسمعه مرويا عن العرب مع انه قياس وجيه فان فعيلا ياتي في الغالب من فعل بالضم كعظم فهو عظيم وجمل فهو جميل وكرم فهو كريم وقد ذكر بعد ذلك صاحب اللسان الفعل فان لم يسمعه ابن سيده فقد سمعه غيره واثبته وتبين مما نقلته من كلام اللسان انه يمكن ان يقال رجل شخيص بمعنى سيد نبيل فيكون بديلا عن اللفظ الاعجمي الاصل وهو الشخصية ، فيقال شخيص وشخصاء بدل شخصية وشخصيات وشخيص اجمل لفظا مع كونه مرويا وليس فيه تأنيث فيصح ان يكون ترجمة لذلك اللفظ الانكليزي اذ احتيج اليه .

واقبح من ذلك لفظ تحيرت في معناه الالباب اخترعه شخص جاهل فنشرته مجلة دعوة الحق الغراء بدون تعليق مع انه تكرر في مقالات هرف بها ذلك الشخص ولا اقول انه شخيص وقد تعجب احد كبار العلماء المصريين وهو صاحب الفضيلة الشيخ عبد الرحمان الوكيل من هذا اللفظ حين كتب اليه ذلك الشخص كتابا خاصا واستعمل فيه ذلك اللفظ المخترع المكذوب على اللغة العربية الا وهو (الشخصانية) ثم والد لفظا آخر وهو (التشخصن) فصار ابنا للشخصانية ومثل هذا يزري بمجلة دعوة الحق وهي مجلة لها مقام سام في النوادي الادبية في انحاء العالم فعسى ان يتنبه سيادة رئيس التحرير لذلك وما نقلته من تعجب الاستاذ الوكيل وتحيره في ذلك اللفظ نشره في مجلة (الهدي النبوي) التي كان يصدرها في القاهرة الى ان توقفت بعد حرب يونيو .

50 — ومن التعابير التي شاعت في هذا الزمن قولهم **ساعدته الظروف او حالت الظروف بينه وبين ما يريد** وهو كثير في كلام الخاصة والعامة وهو استعمال غير عربي ولنبدا بمعرفة معنى الظرف والظروف لننظر هل يصح اسناد الفعل اليها على سبيل المجاز العقلي كما يسند الى الزمن والدهر والليل والنهار او لا يصح ؟ اما اسناد الفعل الى الدهر على سبيل المجاز العقلي فهو شائع في كلام العرب، فمن ذلك قول وزير عزله ملكه من الصباح الى الزوال ثم رضي عنه ورده الى مكانته من مخلع « البسيط »

عاداني الدهر نصف يوم
فانكشف الناس لي وبانوا

يا ايها المعرضون عني
عودوا فقد عاد لي الزمان

وذلك انه حين عزل تنكر الناس له وتغيروا فقال لهم ارجعوا الى ما كنتم عليه من التملق والتعظيم والتعلق فان الزمان الذي عاداني واعرض عني فاقتديتم به قد عاد الي واقبل علي فعودوا انتم ايضا، فاسند العداوة الى الدهر والعود الى الزمن على سبيل المجاز والزمن لم يعاده في الحقيقة ولم يقبل عليه .

ومثل ذلك قول آخر :

رايت الدهر في خفض الاعالي
وفي رفع الاسافلة اللئام

فقيها صح في فتواه قول
بتفضيل السجود على القيام

والدهر لم يرفع احدا ولم يخفضه بل الخافض الرافع هو الله تعالى وانما ذلك مجاز اسند الفعل فيه الى ملابسه وهو زمانه الذي وقع فيه ، فقوله عاداني الدهر اي عاداني الناس او السلطان في الدهر، وعاداني الزمان اي عاد لي الحظ في الزمان ، ومثل ذلك اسناد الفعل الى الدنيا والعرب تفعل ذلك كثيرا قال ابن الوردي في لاميته :

اترك الدنيــا فمــن عادتهــا
تخفض العالي وتعلي من سفل

وقال غيره :

سالت عن الدنيا الدنية قيل لي
هي الدار فيها الدائرات تـدور

اذااقبلت ولت وان احسنت اسبت
وان عدلت يومــا فسوف تجـور

واسناد الفعل الى الدنيا كاسناده الى الزمـان لان الدنيا في الاصل صفة الحياة وبذلك جاء القرآن في غير موضع .

والمراد بالدنيا القربى فعلى من الدنـو وتقابلهـا الحياة الاخرى واسناد الافعال الى الظروف يقصد به ما قصد باسنادها الى الزمان والدهر فالظاهر انهـم اخذوا ذلك من تعبير النحاة بظرف الزمان ، فان قيل فهمنا من كلامك انك لا تنكر اسناد الفعل الى الزمـان على سبيل المجاز وقد اعترفت بان مراد المعبريـــن بالظروف الازمنة والاوقات فلماذا حملت عليهم هـذه الحملة الشديدة ؟ فالجواب ان هناك فرقا كبيرا بين اسناد الفعل الى الزمان واسناده الى الظرف مفـردا او مجموعا لان تعبير النحاة اصطلاح وليس بحقيقـة لغوية فان العرب لم تسم الزمان ظرفا ولا الاوقـات ظروفا ، قال صاحب اللسان وظرف الشيء وعاؤه ، ومنه ظروف الازمنة والامكنة الليث الظرف وعـاء كـل شيء حتى ان الابريق ظرف لما فيه والصفـات فـي الكلام التي تكون مواضع لغيرها تسمى ظروفا من نحو امام وقدام وما اشبه ذلك ، تقول خلفك زيد انمـا انتصب لانه ظرف لما فيه وهو موضع لغيـره ، وقـال غيره الخليل يسميها ظروفا والكسائي يسميها المحال والفراء يسميها الصفات والمعنى واحد اهـ . فالظرف كما قلنا اصطلاح لبعض النحاة يشمل الزمان والمكان ولا يجوز ان يعبر في اللغة عن الزمان فلا يقال اقمت في المدينة الفلانية ظرفا طويلا او قصيرا وانما يقـال اقمت زمانا .

واما قول الشاعر رايت الدهر في خفض الاعالي ... فانه يشير الى خلاف جار بين الفقهاء فيما هو افضل اطول القيام في صلاة النوافل ام كثرة السجود؟ اي السجدات ، فقال قوم كثرة السجود افضـــل واحتجوا بما رواه مسلم عن ربيعة بن مالك الاسلمي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلـم : ســل . فقلت : اسالك مرافقتك في الجنة . فقال : اوغيـر ذلك؟ . قلت: هو ذاك . قال: فاعني على نفسك بكثرة السجود . وقال اخرون طول القيام افضل من كثرة السجود واستدلوا بحديث ورد في ذلك اهـ .

51 ـ **ثلاثينات او الثلاثينيات** ـ ومن التقليد القردي ما يعبر به المذيعون في اذاعة لندن وغيرها اذا ارادوا ان يؤرخوا حادثة من الحوادث انهم يقولون وقع ذلك في حدود الثلاثينات او الثلاثينيات او الاربعينات من القرن التاسع عشر مثلا وهذه العبارة ترجمة لفظية للتعبير الانجليزي وهي في غاية الفساد لان القـرن الواحد لا تتعدد فيه اربعون ولا ثلاثون ولا عشرون فلا حاجة الى جمعها ولا معنى له .

52 ـ **بيانات وخلافات وقـرارات** وما اشبـه ذلك . ومن الاخطاء التي شاعت وذاعت في هـــذا الزمان جمع كثير من الاسماء المذكورة من مصـادر غيرها بالالف والتاء ، فيقولون في جمع بيان بيانات، وفي جمع قرار قرارات ، وفي جمع خلاف خلافات، وفي جمع جواز السـفر جوازات وهذا من ابين الخطا لان المفردات التي تجمع هذا الجمع معروفة ولا تجوز الزيادة عليها الا ما سمع من العرب وقد جمعـــــها بعضهم في قوله :

وقسه في ذي التا ونحو ذكرى
ودرهـم مصـغـرا وصـحـرا
وزينب ووصـف غيـر العاقـل
وغيـر ذا مسلـم للنـاقـل

فالاول ذو التاء يعني تاء التانيث كغرفة وغرفات وصلاة وصلوات وكاتبة وكاتبات وفاطمة وفاطمات ولو كان مذكرا كطلحة وطلحات . والثاني ما كان آخره الف التانيث المقصورة نحو ذكرى وذكريات ، وبشرى وبشريات ، وحبلى وحبليـات . والثـالث الاسم اذا صغر وكان لمذكر ولما لا يعقل ، كدريهم ودريهمات ، وغزيل وغزيلات . الرابع الف التانيث الممدودة ، كحمراء وحمروات ، وصفراء وصفروات . كل اسم علم مؤنث وان لم تكن فيه التاء كزينب وزينبات، وهند وهندات . السادس وصف غير العاقل كقوله تعالى (الحج اشهر معلومات) (اذكـروا اللـه في ايـام معدودات) فان معلومات جمع معلوم ، ومعدودات جمع معدود . هذه ستة يقاس فيها الجمـع بالالـف والتاء ، وقد سمع من العرب جمع الحمام على حمامات وجمع السرادق على سرادقـات ، قال في اللســان السرادق ما احاط بالبناء والجمع سرادقات ، قـال سيبويه : جمعوه بالتاء وان كان مذكـرا حيـن لـم

بكسر وفي التنزيل « احاط بهم سرادقها » ، في صفة النار اعاذنا الله منها سورة الكهف رقم 29 . وقال ابن كثير في تفسيره وقال ابن جريج قال ابن عباس احاط بهم سرادقها قال حائط من نار اهـ . فان قلت فكيف نجمع هذه الالفاظ اقول ، اما القرار فيستغني بجمع المقر عن جمعه فيقال المقررات وهو داخل في القسم السادس مما تقدم ، واما البيان فيجمع على ابينة لان فعالا يجمع على افعلة ، واما الخلاف فهو مصدر لا حاجة الى جمعه فاذا اردنا كثرته نقول : خلاف كثير ، اما جواز السفر فيجمع على اجوزة ، وكل اسم يراد جمعه ينظر في قواعد جموع التكسير ويجرى عليها .

المدينة المنورة ــ الدكتور محمد تقي الدين الهلالي





لو سئلت هذا السؤال بالنسبة الى العلم فقيل لك : ماذا اعطى العلم حياة الانسان ؟ لاجبت على الفور وبدون تفكير الى اقرب ادوات الحضارة اليك فقلت : أعطى اشياء كثيرة كهذا التلفزيون ، وهذه الساعة ، وذلك التليفون . ولو سئل نفس السؤال ابسط الناس، لما احتاج الى ادنى صعوبة ليجيب بما اجبت به انت المثقف الحصيف . ذلك ان معطيات العلم ليست معنوية فقط ، ولكنها ايضا مادية ، تلمس باليد ، وترى بالعين . وهي قد دخلت جميع البيوت ، واتصلت بحياة الناس العملية ، وكان لها اكبر الاثر في اساليب حياتهم . ومن ثم اصبحت بالنسبة اليهم جزءا منهم لا يمكن الاستغناء عنه .

والناس غالبيتهم لا تعرف كيف صنعت تلك الآلة او هذا الجهاز ، فذلك لا يدخل في نطاق اختصاصهم ، وليس من الضروري ان يعرفوه ، الا انهم يعرفون كيف يستعملون اجهزة العلم ومخترعاته المختلفة بقليل من الخبرة والمران . ومعنى هذا ان الناس اذا فاتهم العلم في ادق شؤونه ونظرياته ، فقد وصلت نتائجه اليهم ، واصبحت في خدمتهم ، وفي متناول ايديهم لتحقيق رفاهيتهم وراحتهم ، بحيث بشيء من المال يستطيعون ان يقتنوا من اقرب متجر اليهم آلة علمية لاستخدامها في بيوتهم ، غافلين عن ان وراءها ـ اي الآلة ـ متاعب كثيرة قاسية عاناها العلماء قبل ان يتوصلوا الى اختراعها على الشكل الذي هي عليه .

ذلك هو الشأن في مخترعات العلم ، ولو اننا حاولنا القيام بنفس العملية بالنسبة الى الشعر فتساءل ماذا أعطى الشعر حياة الانسان ؟ لصادفنا عدة مصاعب تعترض سبيلنا ، وتمنعنا من التوصل الى جواب واضح حاسم نطمئن اليه . لان ثمرات الشعر ليست مما يدخل في نطاق الماديات كجهاز التلفزة او جهاز التلفون ، ولا هي مما يستخدم في مرفق من مرافق الحياة ، ليؤدي لنا خدمة معينة كالشأن في مخترعات العلم . ونحن لا نستطيع ان نلجأ الى الشعر في حل مشاكلنا المعلقة ، او نقضي بواسطته حاجات الآخرين ، وادق مخترع علمي قد يفيدنا من حيث تعجز عن ذلك جميع دواوين الشعر منذ أن بدأ الانسان يقول الشعر الى اليوم. فاذا نحن ذهبنا الى اقرب مكتبة الى بيوتنا فاقتنينا ديوانا شعريا كما نقتني ثلاجة او مكواة، فليست قصائد الديوان بالتي يمكن استخدامها او الانتفاع بها كما ينتفع بالثلاجة والمكواة . هذا علاوة على كونها تحتاج في تناولها ـ اي قصائد الديوان ـ الى مهارة خاصة ناتجة عن الثقافة والتربية الفنية ، على حين ان افراد البيت الذين لا يملكون هذه المهارة يبقون بعداء عنها، بل هم يجهلون وجودها وان كانت منهم على بعد خطوات ..! في الوقت الذي يتمكنون فيه جميعا من استعمال كل مخترعات العلم مما تمتلىء به بيوت الموسرين ، وحتى بيوت متوسطي الدخل من الناس .

لذلك يسهل تداول مخترعات العلم ببيعها او رهنها لتؤدي نفس المهمة التي كانت تؤديها في

البيوت التي خرجت منها ، اما دواوين الشعر فنادرة هي البيوت التي تستقبلها بحفاوة وعطف ، وتنزلها منزلتها التي تستحقها ، ولو انك سالت سيدة من السواد الاعظم ـ حتى ولو نالت قسطا من الثقافة ـ ماذا تفضلين : ديوان شعر ام آلة لعصر الفاكهة ؟ لما ترددت في تفضيل الثانية وعلى شفتيها ابتسامة سخرية لتفاهة السؤال وسخافته ..!

ونخرج من ذلك بفائدة ، وهي ان من الصعوبة تحديد ما اعطى الشعر حياة الانسان ، بنفس الدقة والوضوح اللذين نحدد بهما معطيات العلم الكثيرة المادية المحسوسة . ولكن هذا لا يصدنا عن محاولة ذلك ، وان كنا غير طامعين ـ ونعترف بهذا منذ الآن ـ في ان نكون واضحين بالقدر الكافي لازالة كل غموض او التباس ، بل سنحتاج الى غير قليل من الجهد لنكون واضحين نسبيا. واذا كان العلم لا يحتاج الى محام على الاطلاق ، لان مخترعاته التي توجد تقريبا في كل بيت عصري ، هي التي تتولى الدفاع عنه ، ضد الذين يكيلون له التهم ويحملونه مسؤولية جرائم الحرب ، فالشعر يحتاج الى الف محام ومحامي ، لان اثره في حياة الانسان وفضله عليه ، مما يجعل موضوعا للنقاش، ومثارا للخصومات. كل هذا لان اثره غير ظاهر للعيان ، ولا ملموسا بالايدي ، وانما هو مما يدرك بالعقول ، ويحاط بالافهام ، ولابد ان تكون هذه العقول والافهام قد بلغت من الشفوف حدا معينا لتقوى على استساغته والتجاوب معه .

اضف الى نفعية مخترعات العلم السابق ذكرها والتي لم نذكرها ، انها مما يستعمل وينتفع به دائما وكل يوم بل كل ساعة ، ان لم نقل كل دقيقة . فنحن لا نقول ـ مثلا ـ لا يروق لنا ابداع سوادنا الغذائية داخل الثلاجة هذا اليوم ، او لا يطيب لنا استخدام المكواة ، بنفس الطريقة التي نعزف بها عن القصيدة الشعرية او نتفتح لقراءتها ، اذ ان هذه تتصل بالمزاج والجو النفسي والحالة العاطفية ، على حين ان مخترعات العلم لا علاقة لها بذلك ، لانها ضرورية دائما وبكيفية مستمرة ، بحيث لا دخل للحب او الكراهية في تركها او استعمالها . هذا بالطبع اذا لم نكن مدرسين للشعر كوسيلة للعيش ، والا كانت قراءته وتدارسه ضربة لازب بالنسبة الينا ، لا نستطيع الفكاك منها ، حتى ونحن كارهون لها ، ولكن دارسي الشعر على هذا النحو اقلية لا يؤبه بها من بين مجموع المثقفين ، اما الباقون فهو عندهم مسالة هواية ومزاج لا اقل ولا اكثر .

وارتباط الشعر بالمزاج الذي لا يكاد يستقر ، ابعده عن ان يكون امرا ضروريا للحياة عند الكثيرين من الناس ، وحتى المثقفين منهم . هذا علاوة على كونه لا يحقق لهم منافعهم ولا يستجيب لمطالبهم بنفس السرعة التي يحققها العلم بادواته الحاسمة القريبة النتائج . انت ـ مثلا ـ لا تستطيع الاعتماد على قصيدة شعرية في اصلاح انابيب المياه ، او تحويل قطعة من المعدن الى مقلاة او ملعقة ، وانما هي شيء يذاق ثم ينتظر به ان يترك اثره في النفس والذوق والخيال على مهل ودون داع الى العجلة . وقد تحتاج الى قراءة كمية هائلة من الشعر، قبل ان تظفر منه بما يحدث تحولا في قواك الذاتية، اما مخترعات العلم فهي سريعة النفع ، ونفعها محقق لا شك فيه . فما بينك وبين الاستفادة المحققة من المكواة الا ان تصلها بمنافذ التيار الكهربائي في اقرب جدار اليك . وقل نفس الشيء بالنسبة لكل ادوات الحضارة المادية .

ولو طاب لنا الاستمرار في هذا الضرب من المقارنة لكان في وسعنا ان نرى الشعر كثير الطمع فينا ، تواقا الى استغراق كل كياننا ، لان ذلك هو السبيل الى استساغته والتغلغل في اعماقه البعيدة ، نعم انما ثمن ما في الشعر من متعة رائعة ان تهبه ذاتك ، وتتخلص من كل ما حولك ، لترتمي في احضانه ، فهو اذن شيء لا يقنع منا ببعض حواسنا ، ولا بجزء من اهتمامنا ، وانما يجب اخذنا من جميع اقطارنا ، وما كذلك مخترعات العلم ، فهي لا تتطلب منك اكثر من ضغط على زر ، او امرار الاصابع على مفاتيح ، او وضع القدم على جهاز ، فاذا بكل شيء على ما يرام . ولك ان تفعل ذلك وانت تتناقل حديثا مع صديق ، او تشتغل بشيء عملي آخر في نفس الوقت . فسيدة البيت ـ مثلا ـ يمكنها ان تكوي الثياب ، وفي الوقت نفسه تحدث جارتها عبر النافذة عن احوال الطقس ، او عن متاعب الاطفال ، دون ان تحس بان في الجمع بينهما ما يسبب لها قلقا او خللا في العمل الذي تقوم به .

ولكن هل جاءك ان منهمكا في قراءة قصيدة شعرية يمكنه الجمع بين قراءتها وبين عمل آخر في وقت واحد ؟ كلا ان ذلك غير ممكن ، وحتى عندما نكون مضطرين الى قراءة الشعر لشرحه وبيان مقاصده ومغازيه ، نجد انا نزهق روحه ، ونحوله الى قواعد جامدة ، تسيء الى مائيته وعفويته وانطلاقته .

وفى هذه الناحية يفتقر الشعر الى احدى مزايا العلم الكثيرة ، وهي انه يقنع من الانسان بجزء من اهتمامه ، الامر الذى نجده بالنسبة لمخترعات العلم . ولئن كان بعض الناس مستعدين للتنازل عن كل مشاغلهم للشعر ، فان ذلك ليس فى وسع الجمهرة الكبرى منهم نظرا لاوضاع العصر الذى نعيش فيه ، اذ هي انانية الى ابعد حد ، ولا تريد التنازل عن شيء، ولا تستطيع فتح قلوبها عن مصاريعها ليعيث فيها فسادا هؤلاء المجانين الذين يدعون شعراء .! وليتنا كنا قادرين على التخلص من قبضة الشاعر وجوه الغامر بمجرد انتهائنا من قراءته ، الا تراه كيف يلاحقنا ، ويرسل اطيافه حولنا ، ويمد لنا فى اسباب الاغراء لنعود اليه مشوقين ، فى الوقت الذى لا نجد لدى مخترعات العلم شيئا من ذلك . فانت ما ان تنزل من سيارتك لتدخل الى مكتبك، حتى تنقطع كل صلة لك بها ، لتنصرف الى عملك. وسيدة البيت بمجرد انتهائها من كي الثياب ، تنقطع كل صلة لها بالمكواة ، بل لا تفكر فيها اطلاقا الا عند الحاجة اليها . ولكن اعتذاريات النابغة ، جرت ذيولها على عصور من التاريخ الادبي، وما زالت تجرها الى اليوم، وسيجدها احفادنا الذين سوف يأتون ، تنتظرهم فى لهفة وشوق ..!

ونحن اذ نقول هذا ، لم نضع فى اعتبارنا البحوث والدراسات العلمية ، لنقابلها بالقصائد الشعرية ، لان هذا ليس من غرضنا فى هذا الحديث . وانما عرضنا لمخترعات العلم المادية ، للبرهنة على ان فى وسع العلم ان يتصل بحياة جميع الناس ، ويؤثر فيها مباشرة وبواسطة آلات تلمس وترى ويمكن تملكها واستخدامها عند الحاجة ، لتحقيق المنفعة المنوطة بها ، من حيث يعجز الشعر عن ذلك ، مما جعل الناس يسلمون بمدى تاثير العلم فى حياتهم ، ويشكون كثيرا فى ان يكون الشعر فى حياتهم مثل هذا الاثر . ففى امكان الواحد منهم الاشارة الى اقرب مخترعات العلم منه ، ليقول ان العلم اعطاني هذا لاصنع به كيت وكيت ، وليس فى وسعه ان يفعل نفس الشيء ليقول : هذا ما وهبني الشعر لافعل به كذا او كذا .

فاذا حاولنا الوصول الى لب الحقيقة لنرى : ماذا اعطى الشعر حياة الانسان ، تعين علينا الا نلقي الى طرق (الدعاية) بالا ، والا نترك الاوهام تجد سبيلها الى نفوسنا ، وان نمحو كل ما حشيت به ادمغتنا من طرف اعداء الشعر ، فقد صرفنا عنه نهائيا والى الابد . وسنرى بعد قليل ان ما كنا نشك فيه قد اصبح حقيقة لا سبيل الى تجاهلها او انكار انها حقيقة . ولا شيء غير الحقيقة . وسوف لا نستخدم الاساليب المعقدة الملتوية ، المليئة برموز الفلسفة والافكار الموغلة فى التجريد ، وانما سنحاول ان نكون واضحين بقدر الامكان ، طالما كان غرضنا هو ازالة الجفاء الذى بين الكثيرين من الناس ، وبين هذا الفن العتيد ، ولكن كما قلنا فى سطور ماضية ، لا مطمع لنا فى ان نكون شديدي الوضوح ، لاننا بصدد الحديث عن امر روحي معنوي لا تمثله فى الخارج اشياء مادية .

اما بعد ، فماذا اعطى الشعر حياة الانسان ؟

اذا لم يكن فى استطاعتنا ان نشير الى شيء بارز فى حياة الانسان فنقول : هذا احد هبات الشعر، كما نفعل ذلك بالنسبة لآيات العلم الكثيرة ، فليس معنى ذلك ان الشعر لم يهب حياة الانسان شيئا ، فهي مدينة له بالشيء الكثير ، مما لا يسهل على الاوساط من الناس تصوره ، او الاحاطة به .

ولعل الكثيرين يرون ان ما انا بصدده يزج بالشعر فى صميم المنفعة ، على حين انه امر لا علاقة له بالناحية النفعية ، وحينئذ فلا معنى لهذا التساؤل عن اثر الشعر فى حياة الانسان ، ومقارنة القصيدة الشعرية بالمخترعات المادية التى تقاس قيمتها بمدى منفعتها للناس ، فى الوقت الذى لا يمكن بحال من الاحوال ، تطبيق هذا القياس على العمل الشعري: وهو اعتراض قد يبدو وجيها الى حد ما ، ولكن ما رايك فى ان لي وجهة نظر اخرى فى علاقة الشعر بالمنفعة يخالف ما استقر عليه راي اغلبية النقاد حول هذه القضية ؟ ماذا يقول النقاد اولا ؟ يقولون ان الفنون تنقسم الى قسمين : فنون نافعة ، وفنون جميلة :

يدخل فى نطاق الاولى فن الحلاقة وفن النسج وفن الطبخ وفن الخياطة وغيرها من الفنون العملية التى تهدف الى ارضاء الاذواق الخارجية ، هي اذواق الناس الذين يؤدون ثمن انتفاعهم بها ، ويدخل فى نطاق الثانية فن الشعر وفن الرسم وفن الموسيقى وغيرها من الفوون التى تعبر عن اذواق اصحابها ومشاعرهم اساسا، ودونما تدخل الاعتبارات الخارجية او الميول الذوقية النفعية للآخرين. ذلك ما يقوله النقاد فى هذه القضية ، وهو راي اوافقهم عليه ، ولكن الى حد ما ، فعندي ان الشعر بعيد عن المنفعة فى المدى القريب فقط ، لا فى المدى البعيد ،

اعني اننا عندما نتناول قصيدة لنقراها لا ينبغي ان ننتظر منها ان تنمي معلوماتنا ، او تعلمنا شيئا كنا نجهله ، او تحقق لنا منفعة كيفما كان نوعها ، اذ ان هذا لا يدخل فى مهمة الشعر الاساسيه ، اذ هو شيء يمتع ويلذ ويبهج ، ولا شيء بعد هذا ، ولكني لا ارى تجرد الشعر عن المنفعة فى المدى البعيد ، اعني عندما ننظر الى آثاره على الاجيال والعصور والمجتمعات فى عقود من السنين. بحيث يمكننا ان نتساءل على هذا النحو : ماذا استفاد الناس من الشعر الاموي والشعر العباسي ؟ كيف انعكست معطيات الشعر على التغير السياسي والاجتماعي فى فرنسا ابان الثورة الفرنسية ؟ ماذا استطاع الشعر ان يؤدي من خدمة للحركات التاريخية الهامة ؟ الى اي مدى نهض الشعر بواجبه فى معركة تحرير فلسطين ؟ الى غير ذلك من التساؤلات التى من هذا القبيل . ولكن لا يمكننا ان نتساءل على هذا النحو : ما هي الفكرة الجديدة التى استفدناها من هذه القصيدة او تلك ؟ ما هو النجاح الذى استطعنا تحقيقه فى حياتنا من جراء انكبابنا على قراء عمل شعري ومدارسته ؟ والحجة التى اعتمد عليها فى التفرقة بين المدى القريب وخلوه من المنفعة، والمدى البعيد واقترانه بها ، هي ان العمل الشعري اذا قراناه لا يعني بالنسبة الينا الا حالة نفسية خاصة يريد الشاعر نقلها الينا، فليس لنا ان نطالبه باكثر من ذلك ، اللهم الا ما كان من تكافؤ بين اسلوب الشعور وطريقة التعبير ، وما استطاعت هذه الاخيرة تحقيقه من ايصال التجربة الينا بامانة وصدق . اما عندما تنضم الاعمال الشعرية بعضها الى بعض ، فى تسلسل تاريخي متسق ، فاذ ذاك تتمخض بتجمعها وتفاعلها عن مجموعة من القيم والمبادىء والمثل التى تكيف على ضوئها الجماعة البشرية المتأثرة بها فى شعورها وتفكيرها ونظرتها الى الحياة . ذلك لان القيم والمبادىء والمثل ، ليست امورا فردية ، وانما هي امور جماعية ومعاني عامة ، مما يشترك فيه مجموعة من الناس.

ولنكون واضحين يمكن ان نضرب هذا المثال : امامك وردة جميلة قطفتها ووضعتها فى آنية جميلة من البلور ، فهذه الوردة لا يصح ان تنتظر منها نفعا ما ، اذ هي مجرد شيء جميل يلذ العين والانف ، ويعطر البيت بالطف النفحات ، ولا شيء بعد هذا . ولكن لو فرضنا انك قطفت مجموعة من الورود ضخمة ، لامكنك ان تجلب منفعة بواسطتها بعد ان كانت الوردة المفردة مما لا ينتفع به على اي وجه من الوجوه ، يمكنك مثلا تقطير تلك الورود لاستخلاص مادة العطر التى فيها ، كما يمكنك غرس سوقها محاذية لجدار بيتك الخارجي كي تحجبك بعد ترعرعها عن انظار المارة المتطفلة ، وهكذا دواليك . واذن فلا معنى لالتماس المنفعة من القصيدة المفردة ، تقرا فى فترة زمنية محدودة ، ويصبح له معنى اذا نحن نظرنا الى الشعر فى مجموعه ، داخل نطاق جيل من الاجيال او عصر من العصور .

والآن وقد نحينا ذلك الاعتراض جانبا بردنا عليه وبيان راينا فيه ، يمكننا ان نمضي فى الاجابة على ذلك السؤال الوارد : ماذا اعطى الشعر حياة الانسان ؟ هاهنا نجد انفسنا فى امس الحاجة الى ان نتامل طويلا فى كثير من القيم الاجتماعية والمبادىء الخلقية والمثل العليا التى آمنت بها الانسانية من قديم، وكانت من عوامل تطورها وحضارتها واخذها بأسباب الرقي المادي والروحي . كما يتعين علينا ان نلقي ضوءا على انواع من السلوك الفردي والاجتماعي .

فاذا كان الشعر لا يهبنا اشياء مادية كالعلم ، فهو يهبنا ما هو اهم ، يهبنا القيم التى تكمن وراء تلك الاشياء ، هي لها بمثابة الروح من الجسد ، والحقيقة الباطنة وراء الاشكال الظاهرة . ولنبدا القصة من اولها :

فى تاريخ الانسانية البعيد العهد بالقدم ، لم يكن هناك علم ينظم للناس امور دنياهم ، ويضع لهم القواعد التى يسيرون على ضوئها فيما ياخذون وما يدعون ، ويصوغ لهم الافكار والمبادىء ويخلق لهم المقاييس والموازين ليزنوا او يقيسوا بها الاشياء . وانما كان هناك شعر ، هو الذى يتولى القيام بهذه المهمة الدقيقة . فاين كان العلم فى جاهلية العرب عندما كان شاعرهم يقرر هذه القاعدة الاجتماعية ؟

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه
يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

وكثير هي القواعد الاجتماعية والخلقية ومبادىء السلوك التى تصدى الشعر لاعطائها موضعا فى حياة الناس ، وقت ان لم يكن العلم وجود فى حياتهم ، بالمعنى الذى نعرفه لكلمة علم . فصور عالية للشهامة والنجدة والمروءة وغيرها من الصفات الخلقية المثلى، تولى الشعر صياغتها وبثها فى الناس ، قامت عليها صروح من العادات والتقاليد المتوارثة خلفا عن سلف . وروائع من البطولة كان الشعر واقفا من ورائها يدفع بها نحو المعالي ، ومن امامها يدعوها الى التقدم ، ومن حولها يزف اليها اهازيج الفخر واناشيد الحماسة .

كان ذلك قبل ظهور العلم فى حياة هؤلاء الناس بمخترعاته المدهشة ، وفتوحاته المظفرة ، وعندما ظهر وجد قواعد للحياة الاجتماعية قارة ، ومبادىء للتعايش سائدة ، فوقف منها شارحا وناقدا مزحزحا لكثير من القيم القديمة ، ليضع مكانها قيما جديدة ، ولكنه لم يستطع ان يجعل الانسان على هذه الارض ، اسعد مما كان ، ان لم نقل انه حول سعادته الى شقاء وتعاسة . ومع وجود العلم ، استمر الشعر يؤدي نفس المهمة التى كان يؤديها من قبل ، وكل مافى الامر من جديد ، ان مهمته كانت سهلة فاصبحت صعبة ، بسبب ظهور هذا المنافس الخطير ، الذى خلق له كثيرا من المصاعب ، وانتزع من رعيته كثيرا من الانصار . والآن وقد بلغ العلم مدى بعيدا فى حياتنا العصرية الآلية ،ننظر فنرى بصمات الشعر على كثير من العادات الاجتماعية ومظاهر السلوك . كل المظاهر الجميلة فى حياة الناس ، تقف من ورائها معاني طافت باخيلة الشعراء ، وخواطر سبحت فى آفاقهم ، فصاغوها كلما عذبا مستساغا ذاب فى حياة الشعوب كما تذوب قطعة سكر فى ماء حار ، وبفعل الوراثة العامة انتقلت تلك المعاني والخواطر من جيل الى جيل ، ومن يدري ! فلعل وراء كلمة غزل عذبة يبثها عاشق فى اذن حبيبته فى لندن او باريس ، معنى اهتز له وجدان شاعر عربي او يوناني قديم ، وقد لا يكون ذلك العاشق سمع بذلك الشاعر او علم بوجوده اطلاقا ، ولكنها الوراثة العامة، تنتقل عبرها الافكار والعواطف والخواطر بطرق ووسائل شتى . قد تكون هي اللقاء المباشر بين الطرف المرسل ، والطرف الآخذ، وقد تكون هي الكتب ، او اختلاط الشعوب فى السلم او الحرب، او غير ذلك من الطرق ، واكاد اقول : وعن طريق النسمات التى طالما حملها الشعراء رسائل الشوق الى احبابهم النازحين .. ورب جارية اهداها ملك اجنبي الى امير عربي ، فحملت الى قصره اطرافا من ادب قومها ، تبثها حولها ، وتجعل لها حياة ثانية ، او سفارة قام بها سفير عربي الى بلاد اجنبية عاد منها باقباس من الحضارة ، كان لها الاثر العميق فى بعض قومه . وهكذا لا نستطيع حصر الوسائل التى بواسطتها تنتقل الافكار والمعاني وصور الحضارة من شعب الى شعب . وغير خاف ان الشعوب الحاضرة هي وارثة الشعوب الماضية ، وهي قد ورثت عنها الارض والثروات المادية وكمية هائلة من القيم والمباديء والمثل وقواعد السلوك الاجتماعي . نعم قد يستطيع جيل ان يشق لنفسه مسلكا جديدا فى الحياة ، مستمدا من معطيات عصره ، ولكنه لا يستطيع استئصال الاصول البعيدة القرار .

قد يقول قائل : نحن نسلم معك بكل هذا وبوجود الشعر وراء كثير من المظاهر الجميلة فى الحياة ، ولكن ما رأيك لو سألناك عن اولئك الذين لا يعرفون الشعر ، ولا يتصلون به من قريب او بعيد ؟ هل تجرؤ على القول بأن للشعر فى حياتهم اثرا ! وهنا اجيب باننا لا نتاثر دائما بشتى المؤثرات عن طريق مباشر ، فهناك عشرات المؤثرات التى تعمل فينا عملها ، دون ان ندري عنها شيئا او نشعر حتى بوجودها. خذ لذلك مثلا : العطور ، فبعض الناس لا يستعملونها ، ولكنهم لا يستطيعون صدها عن انوفهم اذا ما مرت بهم آنسة يفوح العطر من اطراف ثوبها ، وكذلك الشان فى معاني الشعر واخيلته والعواطف التى يعبر عنها ، قد لا يتصل احد الناس بالنص الشعري الممثل لها ، وانما يتصل ببعض من لهم بالشعر المام ، وقد لا يتصل بهم ، وانما يستفيد من المعطيات الشعرية بوصفها داخلة فى كيان المجتمع ، مؤثرة فى آدابه واخلاقه واسلوب حكمه على الاشياء. فانت اذ تضع باقة من الزهر فى حجرتك ، او تعجب بصورة زينية فتقتنيها لتعلقها على جدار بيتك ، او تبصر غادة فتدور براسك نشوة الاماني العذاب ، قد تكون فى كل هذا متاثرا دون وعي منك بخواطر شاعر لا تعرفه ، ولا تصل اسبابك باسبابه .

واذا كان للشعر هذا الاثر فى الحياة الاجتماعية، اتصل بكل مظاهرها من لغة وعادات وافراح واتراح واعياد ومواسم وغيرها . لناخذ ظاهرة اللغة مثلا : نجد الشعر قد ابدع فيها واثر فى مدلولاتها ، ووسع من مجازاتها . بل يكاد المجاز كله يكون من ايحاء الشعر ، كما وهبها المائية والجمال ، وجعل لالفاظها القدرة على الايحاء . صنع بها كل ذلك مفردة ومركبة ، فاللفظ الواحد يثير فى الذهن والخاطر ما لا يحصى من المعاني والصور والاخيلة ، ولو لم يستعمل فى سياق خاص . واللغة هي العصب الحي فى الحياة الاجتماعية ، وهي صلة الوصل بين الافراد والجماعات ، ووسيلة التفاهم الفعالة ، بواسطتها يتم تبادل المصالح والمنافع ، وتحدد الوسائل والغايات ، وتحدد البرامج وتوضع الخطط، وان لدلالاتها المتنوعة اثرا فى ذلك كله . فما تعنيه اللفظة عندنا له دخل كبير فى تحديد ما نريد تحديده من شؤوننا . فنحن عندما نستخدم كلمة استقلال ، او حرية او تربية ، او غيرها من الكلمات المتصلة بحياتنا لا نفصل بين ايحاء الكلمة وبين الفرض الذى

استخدمت من اجله . وعلى هذا يمكننا القول بأن للشعر اثرا كبيرا في حياتنا الاجتماعية ، عن طريق اللغة التي هي اداة الشعر واداة الحياة الاجتماعية . ويمكنك ان تلاحظ ان ثلاثة ارباع الفاظنا المستعملة في الحياة اليومية مجازية الدلالة ـ والمجاز ظاهرة شعرية ـ وقل ان نستعمل الالفاظ في معانيها الحقيقية . نفعل ذلك حتى في ابعد الامور عن الشعر والحياة الروحية . فالتاجر والمشتري يستخدمان المجاز على نطاق واسع ، وكذلك العامل والطبيب والمحامي وموظف الادارة وغيرهم . التجار يستخدمون المجاز كوسيلة للتأثير على الزبون ، وهذا بدوره يستعمله لاستدراج صاحب البضاعة الى التخفيض من الثمن . والعامل يستخدمه للتخفيف من عناء العمل ، وللتعبير عن سخطه على حياة الكد الذي لا يعرف الوقوف . واما الطبيب والمحامي فلهما في المجاز اقوى الاسلحة لنجاح عملهما كما هو معروف ومشهور . ولنصعد الى حافلة ولنصغ الى كلام الركاب لنجده مليئا بالمجاز ، فهذا صاحب التذاكر يداري ملله من عمله الروتيني بالنكتة ، والسائق يمازح احد الركاب لنفس الغرض ، والركاب بدورهم ما يفتأون يعلقون على كل حادث صغير يجري داخل الحافلة ، مستمتعين بالصداقة العابرة التي تكونت بينهم بمجرد تحرك الحافلة . ولو انا فعلنا نفس الشيء بالنسبة الى اسواقنا وحماماتنا ومقاهينا وشوارعنا ، ما عجزنا عن ان نجد المجاز مستخدما على نطاق واسع .

واذا كانت اللغة مجرد رموز يرمز بها الى الاشياء والمعاني التي تدل عليها ، اعتبرت بمثابة العملة ، قيمتها في كونها تدل على عدد من الاشياء التي ينتفع بها . فانت اذا كانت معك مائة الف فرنك ، فكأن معك عددا من الملابس والاغطية وادوات الحضارة المختلفة ، فاذا كنت من اصحاب الملايين ، فكأنما عندك طائفة من الدور وشتى العقارات الاخرى . ونفس الشيء نقوله بالنسبة الى اللغة . فحين تستخدم اللفظة فتملأ راسك بشتى الخواطر والصور ، تكون مالكا لهذه الخواطر والصور نفسها . وما اللفظة الا رمز لهذا الذي تملكه . ومن ثم يمكنك التصرف فيه اذا كنت ممن يستطيعون ذلك . اما اذا لم تستطع ، ففي امكانك الاستمتاع بذلك الدفء اللذيذ الذي تشيعه اللفظة في نفسك، كما يستمتع الغني البخيل بأوراقه المالية يعيد عدها مرات في اليوم .

واللغة من جهة اخرى مؤثرة في السلوك الفردي والاجتماعي، اذا الناس يتصرفون على حسب مدلولات الالفاظ في اذهانهم ، فكلمة يقولها لك احد الناس ، قد تعتبرها ماسة بكرامتك، فتناصبه العداء، وتكيد له انواعا من الكيد، وكلمة اخرى تلقى اليك قد تعتبرها عربون صداقة ومودة ، والحال انها ربما قيلت بدافع المجاملة ليس غير ، يرتفع صاحبها في نظرك الى صف الناس الاخيار الافاضل ، وعلى ضوء هذا تأخذ في اطرائه في الاندية والمجالس وهكذا . وكل هذا ناتج عن اختلاط الحقيقة بالمجاز في مدلولات الكلمات عند الناس . وما المجاز الا ظاهرة شعرية ما في ذلك شك . ويمكنك ان تتخذ من ظاهرة المجاز في اللغة منطلقا نحو ما لا يحصى من المظاهر الجميلة في حياة الناس الاجتماعية ، لتلمس اثر الشعر فيها بقليل من التأمل .

وان اشد العلماء بغضا للشعر ، لا يستطيعون التخلص من مجاز اللغة في احاديثهم الى زوجاتهم ، ومناغاتهم لاطفالهم ، ومباسطاتهم ومداعباتهم مع اصدقائهم ، لان هذا المجاز مكسب شعري للغة ، لا نقدر على تجريدها منه مهما حاولنا ، ولانه ايضا ينسجم والفطرة الانسانية التي لا تبديل لها ولا تحريف .

وليست اللغة وحدها هي التي يتجلى فيها الاثر الشعري ، فهناك ظواهر اخرى لا تقل عنها تأثرا بالشعر . ولكن اللغة هي اهم تلك الظواهر على الاطلاق ، لما لها من صلة مباشرة بالشعر ، اذ هي اداته المعبرة ، بل نستطيع القول بان الظواهر الاخرى انما جاءها التأثر بالشعر من خلال اللغة ، هذا المعبر العجيب الذي تعبر عليه عواطف الشعراء ، الى الناس بطريقة سحرية قد لا نتصور مقدار براعتها واثارتها للدهشة ، لتعودنا عليها في قراءة الشعر والانتشاء بـه .

ولقد قلنا سابقا ان الشعر قد اعطى كثيرا من القيم التي تسكن وراء مخترعات العلم . وعلينا الآن ان نتقدم بشرح هذه النظرية بشيء من الاناة .

وبادىء ذي بدء، اود ان اذكر بان تلك القيم قد لا نراها اليوم بوضوح، او على الاقل، لا ترى بوضوح عند الكثيرين ، وذلك لعاملين اثنين : اولهما ان تلك القيم الشعرية قد تلبست بمختلف مظاهر حضارتنا ، ومر على تلبسها بها زمن ليس بالقصير ، بحيث صارت جزءا منها ، مما جعل تمييزها وردها الى اصلها امرا

ليس هينا ، اذ عامل الالفة صيرها بمثابة الامور الطبيعية التى لا تستلفت النظر . وثانيهما اننا دأبنا على رؤية تلك المظاهر بعيدة عن ان تكون لها اية صلة بالشعر مهما بعدت ، فعتد اكثرنا ان الشعر هو مجرد الفن المعروف ، له حدود لا يتجاوزها .

ولكي لا نضل فى متاهة من الكلام العام المجرد ، لنات ببعض مظاهر الحضارة وادواتها ، محاولين تبين القيم الشعرية الكامنة وراءها . ولنأخذ من مظاهر الحضارة اقربها الينا بوصفنا مثقفين ، وحينئذ نجد القلم – وهو ظاهرة حضارية – اقربها الينا . فماذا وراء القلم من قيم شعرية؟ يمكنك التحدث عن الايحاءات الشعرية للقلم طويلا دون ان ينفذ ما يستطيع القلم ان يثيره فى الذهن والخيال من معاني شعرية جميلة . فالقلم – هذه الاداة الصغيرة العجيبة – هو ترجمان العقول والنفوس ، ولسان الشعوب والمجتمعات ، والمقيد لشوارد الخواطر وأوابد الافكار . وهو مستودع الاماني والاحلام ، ونجي النفس والضمير والوجدان . والرسول الذى يصل بين المتباعدين ، وينقل اشتاتا من الفكر والخيال عبر الاجيال والعصور ، ويصون ما تفتقت عنه العبقريات من بدائع الافكار وبارع الاخيلة وطرائف المعاني . ويمكن للقارىء ان يسترسل على هذا النحو فى تمثل ما وراء القلم من معاني شعرية ، ما كانت لتوجد فيه، لولا ايحاء الشعر . ولا ينقض هذا ان نجد القلم لا يدل على هذه المعاني وامثالها عندما يمسكه التاجر للقيام بالحسابات ، وعند موظف البريد وقت تسجيله للطرود ، وعند العالم الرياضي لما يستخدمه فى حل المشاكل الحسابية المعقدة . فقد يجول بخاطر الواحد منا هذا السؤال : هل تخطر هذه المعاني لبائع الفاكهة، عندما اشترى منه نصف كيلو من التفاح ، وكيلو من البرتقال ، فيأخذ قلمه لاجراء عملية جمع يكون خارجها ثلاثة دراهم ؟ وانا اجيب بأن هذا لا يجرد القلم من قيمه الشعرية الكثيرة . فلو فرضنا ان هذا التاجر كان له المام بالثقافة ، فخلا الى نفسه ذات يوم ، ليحرر خطابا الى صديق عزيز عليه ، او حبيب ابعدته عنه الايام ، لاصبح القلم فى يده شيئا آخر غير ما كانه فى الدكان . القلم فى الدكان مجرد اداة للحسابات ، آلة جامدة لا احساس لها ولا شعور، اما فى الاستعمال الادبي وفى الشؤون الخاصة العاطفية ، فهو كائن حي، يختلج بكل العواطف التى حملها ليوصلها الى الطرف الآخر .

ذلك ما يخص القلم ، فاذا نحن حاولنا نفس المحاولة بالنسبة لشتى الاشياء التى تتصل بحياتنا ، وقفنا ذاهلين امام القيم الشعرية التى تشع منها .

والقلم الذى نستخدمه نتوخى فيه غالبا ان يكون جميلا ، ذا شكل لطيف ، غير مكتفين بجانبه النفعي فقط ، والا لما بحثنا عن الاقلام الجميلة ، فكل قلم يرسل مدادا من لسانه صالح لنا ، وصانعوا الاقلام يدركون هذا جيدا ، فيبذلون جهودا كبيرة من اجل اتحافنا باقلام جذابة كما نودها ان تكون، قصد الحصول على كمية كبيرة من نقودنا . والعارضون من التجار يدركون هذا جيدا ايضا ، فيتولون عرضها فى واجهات متاجرهم باسلوب جذاب ، يزيدها جمالا على جمال ، وقد يختارون آنسة بالغة الاناقة والظرف ، لتناولنا القلم بانامها اللطاف ، امعانا فى تملق احساسنا الشعري . ومن ثم فنحن غالبا ما نقع فى الشرك المنصوب لنا ، فنشتري القلم ، وقد نضن به على الكتابة العادية ونذخره لتسجيل اعز شؤوننا الشخصية ، وقد نقدمه هدية لاحب الناس الينا ، كعنوان للمودة والتقدير العظيمين . وقد نكون من عشاق الاقلام الفاخرة الثمينة ، فنقتني مجموعة نفيسة منها ، ونحفظها فى علب مذهبة داخل ادراج مكاتبنا ، لنأخذ منها ما يروق مزاجنا بين حين وآخر . وقد نزيد على ذلك فنرثى لواحد من هذه الاقلام اذا سرق او ضاع منا بطريقة ما ، او انكسر ، او تعرض يوما لعبث صبي خبيث ... شاعرين بمشاعر الكآبة والانقباض ، وقد يكون اول ما يخطر ببالنا عند زيارتنا لمدينة كبرى ، ان نبحث عن اجمل الاقلام المعروضة فى متاجرها .

وكل هذا يخرج بالطبع عن نطاق الجانب النفعي للقلم ، ويدخل فى ايحاءاته الشعرية الجميلة .

ارايت الى هذا الفنى الشعري الذى تزخر به هذه الاداة الصغيرة؟ فكيف بنا لو تاملنا فى الورق والحرف والمطبعة والمجلدات ، وكذا الاواني والتحف النادرة وادوات الزينة ، ومعارض الفنون وآيات الموسيقى ، وازهار الحقول والبساتين، وما الى ذلك، من معاني شعرية لا تنتهي ؟ وكلها مما يتصل بحياتنا ، ويكيفها ويوجهها . وقد لا نفطن الى اننا نتأثر بقيم الشعر ، حتى عندما نزاول اعمالا بعيدة عن الشعر ، يمكنك ان تأخذ مثالا على ذلك : الموظف الذى يقصد الى مقر عمله ، تاركا الطريق المختصر غير الجميل ، ليسلك شارعا جميلا بمتاجره واشجاره ونظافته ، وكذا

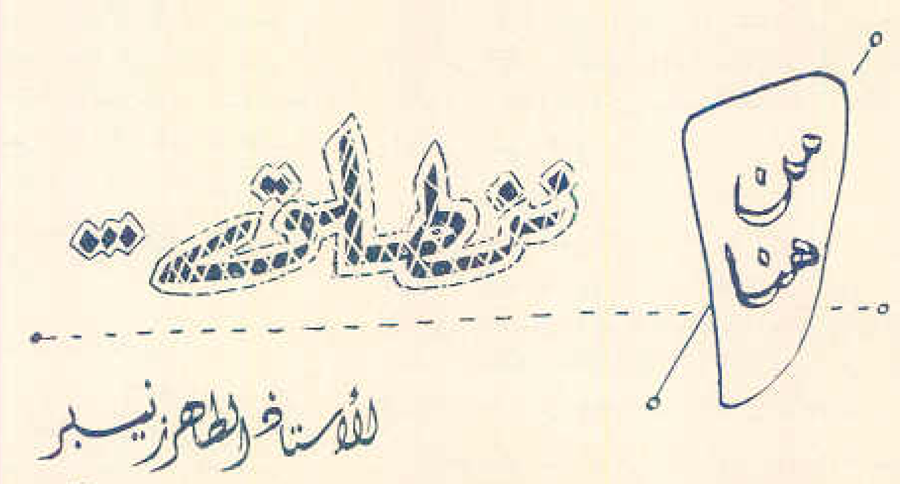
سيدة البيت التي تستغني عن خادمة ذميمة الخلقة ، لتعوضها بخادمة مقبولة الشكل ، أو تذهب الى السوق لتقتني اشياء لا فائدة فيها ، وليس لها من القيمة سوى انها جميلة ، او تنظر مفتونة الى طفل جارتها الجميل ، تلاعبه وتداعبه.

وكثيرة هي الاشياء المتصلة بحياتنا من قريب او بعيد ، والتي لا نستطيع تجريدها من القيم الشعرية الكامنة فيها ، فانا مثلا لا استطيع افراغ صوت السيدة ام كلثوم العذب من الثروة الشعرية التي يوحيها الي ، بحكم ما تلقيت من تربية فنية دخلت في صميم كياني الذاتي . وانت عندما ترى منظرا طبيعيا اخاذا فتقف امامه مسحورا خاشعا ، لا تستطيع اخلاء نفسك من المعاني الشعرية التي تصور عنه تجاوبا مع تجربتك الفنية . وهكذا يمكن ان نقول ان عملية اهتزازنا لكثير من مظاهر الحياة الجميلة ، تدخل في تكوين طبيعته الآثار الشعرية الراسية في اعماقنا ، والتي تكيف اذواقنا ، وتوجه انفعالنا ، وتضع لانفعالاتنا قيمها الجميلة المذبة . بحيث لا نبعد اذا قلنا ان اكبر هبة وهبها الشعر للحياة ، هي الشخصية الانسانية نفسها ، بقيمها المثالية وانفعالاتها الشاعرية ، وتجاوبها الروحي مع اشياء هذا الكون ، فقد لا نشعر ان للشعر دخلا في تقديرنا لكثير من روائحنا واشيائنا المفضلة ، في نطاق الماديات والمعنويات .

وان للشعر آثارا اخرى في حياة الانسان ربما كانت ابعد مما ذكرناه . فالشعر هو الذي البس التضحية حللا قشيبة في عيون الابطال ، ووهب الموت طعما لذيذا عند المجاهدين ، وبعث الامل يانعا في خواطر اليائسين ، وزين البذل والسخاء في نظر الملوك والسلاطين ، وفتح القلوب الصلبة لتقبل عقائد الانبياء والمصلحين ، وانقذ اعناقا من سيوف الجلادين، وواسى اذلة كانوا اعزة ، وملأ بيوتا كانت خالية ، وجدد العزم في نفوس كانت خائرة ، وحل مشاكل كانت مستعصية ، واذا شئنا ان نتعمق اكثر ، يمكننا القول بان الشعر اعطى حياة الانسان معنى انسانيا لا سبيل الى التغاضي عنه ، اذ انه مزق غشاء الفردية الضيقة وهيا للفرد ان يتصل روحيا بالآخرين ، واجدا في هذا الاتصال متعته الكبرى ، في الوقت الذي يتمكن فيه من سبر اغوار نفسه ، على ضوء التجارب الروحية للآخرين الذين يقرا اشعارهم . والشعر الى جانب الفلسفة هو الذي بث فينا روح التساؤل عن المصير ، ومغزى وجودنا على هذا الكوكب ، والثورة على كل مظاهر التشويه والنقص والبشاعة المادية والمعنوية ، وجعل نفوسنا قلقة مضطربة جانحة نحو الاسمى والاجمل والامثل .

والشعر هو الذي منحنا الوانا من الحياة ، فما اكثر الآفاق التي فتحها امامنا ، والدروب التي شقها، والمنعطفات التي ابدعها ، والاكوان التي خلقها ، فاصبحت حياتنا اكثر عمقا وسعة ، وهو الذي جعل الانسان صديقا لهذا الكون ، وحافظ عصورا واجيالا على التوازن بين المادة والروح ، ورفع اصغر الاشياء الى جانب الاشياء الكبيرة ، وانطلق في ارجاء الكون يكتب آياته على متون البحار ، وفي كهوف الجبال ، وفوق الروابي ، وعلى شطآن الجداول ، ليجعل من هذا الكون متحفا رائعا لا يدركه البلى مهما تقادمت عليه الدهور والعصور . والشعر هو الذي جعل الماضي والحاضر والمستقبل هيكلا واحدا، واذاب الفوارق بين الطبقات في مملكته الكبيرة، واعطى للقيمة الانسانية الدرجة الاولى في ميزان القيم ، وبث في الناس حب الانسان لاخيه الانسان ، دون الخضوع في هذا الحب لاي شرط ، ورفع لرسل الانسانية وابطال التاريخ الانساني تماثيل شامخة على مر الايام ، تلهم الاجيال روائع التضحيات ، وتحدثها عن عظيم الذكريات .

فاس ــ عبد العلي الوزاني



وزارة عموم الأوقاف والشؤون الاسلامية

انا متفقون جميعا على اننا نعيش فى اواخــر القرن العشرين ، كما اننا متؤكدون ان البشرية قطعت اشواطا فى مختلف الميادين وان التخلف الذي كان في الماضي يعتبر حالة من احوال البشر اصبح اليـوم ينعت وكانه داء عضال ينخر فى اجسام بعض الامـم ويكاد يقضي عليها ان لم تتدارك حالها وتعمل جديا على اقتحام عقبه النمو والتقدم .

ولسنا فى حاجة الى تحليل الاساليب التي استعملها العالم المتمدن للوصول الى ما وصل اليه فكل ذلك يوجد فى بطون الكتب وعلى صفحات المجلات وانما الغرض ان ننبه الى الانطلاقات العديدة التي ينبغي ان نقوم بها فى عصرنا الذى يمتاز بالسرعة وضياع الفرص على المهملين والكسالى وستكون هذه الكلمات على شكل توجيهات ولفت نظر ونداءات الى الضمائر الحية .

التعليم

لا شك ان التعليم هو الظاهرة التى يتميز بها الانسان عن غيره من المخلوقات، فبينما تتصف الحيوانات بغرائزها القارة التي لا تزيد ولا تنقص ، وبشيء بسيط من الذكاء فيما يتعلق ببعض الحيوانات ينفرد الانسان بقدرته على انماء معلوماته بالمحاكاة اولا ثم بالتعليم المنظم ثانيا وما نجده فى التاريخ القديم والحديث عن المجهودات الجبارة التي بذلها الانسان لانماء معلوماته ولتنظيم معارفه لدليل على ان حياة البشر عبر العصور كلها مدرسة لاخذ المعلومات وانمائها وصقلها وتنظيمها وكان المتعلمون ينتقلون من بلد الى بلد ومن قارة الى قارة لاخذ العلم عن العلماء ، ولكن انتشار العلم في جميع ربوع المعمور ظل بطيئا تبعا للاحوال السائدة انذاك من قلة المواصلات وبطئها وانعدامها فى غالب الاحيان وكذلك نظرا لتحجر الافكار والتعصب للملل والنحل ورفض كل فكرة جديدة لا توافق التقاليد . ولا ادل على ذلك من تدخل الكنيسة والبابوات فى بعض شؤون العلم حتى كان ذلك سببا فى بطء تقدمه وكثيرا ما كان العلماء يضطهدون ويعذبون كما وقع فى عصر النهضة (لكاليلي ، وكوبرنيك) ولغيرهما فى مختلف العصور .

هذه حقائق تاريخية صارت الان من قبيل التاريخ اتينا بها للتدليل على ان الانسان منذ وجد على سطح البسيطة وهو يتعلم ويعلم ويعطي العلم ويأخذ العلم وينمي العلم وينظمه الى ان وصلت مجهودات العلماء المتلاحقة المتضافرة الى الاوج الذى بلغه العلم والتعليم فى مختلف الميادين فى العصر الذي نعيشه .

فى الماضي البعيد وحتى فى الماضي القريب كان العلم وحتى التعلم وقفا على المحظوظين من الناس او

على ذوي العبقريات والمواهب، ولم يكن احد ينادي بان التعلم حق من حقوق الناس وان التعلم يجب ان يكون اجباريا ، وان المحترفين يجب ان يكونوا متعلمين وان الاختصاص فى الصناعات يجب ان يكون مقرونا بمستوى معين من التعليم ، وان الحرية لا تستطيع ان تسكن قلبا خاليا من المعرفة ، وأن حق المواطنة يقتضي تعلم الانسان حتى يكون يدرك ما له من حقوق وما عليه من واجبات ، وبالتالي فقد اصبح السباق فى الحياة يقترن دائما بسباق فى ميدان التعلم والمعرفة ، واصبحت هذه المعادلة :

مقدار النجاح فى الحياة = مقدار الاخذ من التعلم والمعرفة. تنبني عليها مقاييس المجتمعات الراقية التى تجعل من العلم اساس حياتها ومن العدالة امتن مقوماتها ، اذن فمن المسلم والمقطوع به ان التعليم فى عصرنا الحاضر هو مفتاح كل رقي وتقدم وازدهار ، وان مستوى التعليم فى بلد ما هو مقياس نجاحها وقدرتها على اسعاد سكانها .

هنا ينبغي ان نقتنع ببعض الحقائق التي تعزب عن ذهن الكثير من الناس ، وهذه الحقائق معادها ان الثروة الفكرية اشد فعالية واقوى اثرا من اي مظهر من مظاهر الثروات الاخرى ، ولناخذ مثالا لذلك نلفت نظر القارىء الكريم ان هناك بلدانا يكثر خصبها وتزخر ارضها بالثروات المعدنية ، ولكنها لم تستطع ان تزيل عنها اسباب التخلف نظرا لكون ابنائها ليس لهم من المعرفة والتقنية والاختصاص ما يساعدهم على استثمار بلادهم فيسقطون فى أيدي الشركات الاحتكارية التي تتولى مكانهم استثمار هذه الثروات وتدفع لهم مقابل ذلك بعض العائدات النقدية التي تظهر طبقة منهم بمظهر البذخ والغنى ، ولكنها لا تزيل عنهم اسباب التخلف ، بينما نجد اقطارا اخرى كاليابان مثلا ضيقة الرقعة آهلة بالسكان قليلة الثروات الطبيعية ، ولكنها باخذها بأسباب التعلم والعلم امكنها ان تنشىء الصناعات الكبرى وان تغزو جميع الاسواق العالمية بمنتوجاتها وبالتالي ان تكون فى مصاف الدول النامية التى لها اشعاع كبير فى العالم ، وكذلك الدول السكاندينافية فانها بفضل ما تملكه من ثروة فكرية تقوم على العلم والتعليم فانها تعتبر من أرقى الدول فى العالم ومن أقدرها على تمكين أهلها من وسائل السعادة واليسر والرفاهية .

وقد أتينا بهذه الامثلة للتدليل على ان عصرنا الحاضر يحتم على الدول التي تريد النهوض من كبوتها والانعتاق من براثين التخلف والتبعية ان تعتبر ان الثروة البشرية هي أعظم ثروة تملكها وان كل درهم يوظف لامتلاك الطاقة الفكرية الخلاقة ، هو انتج من كل الدراهم التي توظف فى الميادين الاخرى .

نعم اذا سلمنا ان لكل امة تعليما خاصا بها وبعقائدها وتقاليدها ينبغي الحفاظ عليه وتنميته كما تفعل كل المجتمعات الراقية فانه يوجد تعليم مشاع مشترك بين شعوب العالم ، وهو التعليم الذي يؤدي الى التخصص والتقنية وينمي بالتالي ملكة الخلق والابتكار ، وهو التعليم الذي اتخذت له العدة في العصر الحاضر ليكون فى متناول جميع الناس لتكون فرصهم متكافئة فى الحياة وليصبحوا عناصر خلاقة مبتكرة فى مجتمعاتهم قادرة على تنشيط الحركة الفكرية والعلمية فى العالم وتحريك دواليب المخابر والمصانع التي ستؤدي حتما فى المستقبل القريب الى مفاهيم جديدة للتعليم والعلم .

فاذا اردنا ان لاتتخلف عن الركب فيجب انْنسرع باقصى ما تكون السرعة لان عقرب الساعة سوف لا يمهلنا وسوف لا يقف لينتظرنا ، وان الزمان سوف لا يرحمنا لانه يصدر دائما حكمه القاسي على الكسالى والمتقاعسين والمنتظرين ، واننا نأمل ان لا نكون من هؤلاء ، وأن ندلي بدلونا فى الدلاء وان نسهم بحظنا فى ازدهار الحضارة والعرفان .

الرباط — الطاهر زنيبر



كان الحسين بن منصور الحلاج، فارسي الاصل، من بلدة « البيضاء » التي ينسب اليها المفسر « البيضاوي » .

وقد ولد الحلاج فى منتصف القرن الثالث الهجري ، ونشأ بالعراق ، وقتل فى سنة ثلاثمائة وتسعة هجرية .

وفى سن مبكرة جدا ، وهو بعد غلام فى السادسة عشرة من عمره، اتصل بالصوفية ، ولبس خرقتهم ، وتتلمذ على اعلامهم ، كالجنيد ، وسهل التستري ، ومن اليهم .

ثم اصبح له هو نفسه مع مرور الايام مريدون كثيرون ، كان يعبر عنهم فى قصائد بقوله : « اصحابي وخلاني » .

ولم يلبث الخلاف ان بدا ينشب بين الحلاج وبين اعلام الصوفية فى عصره .

فقد كانوا هم يبنون امرهم على تكتم مشاعرهم ووجدهم وافكارهم واسرارهم ، وكانوا يؤثرون العزلة على الناس ، تاركين امر تدبير الخلق لله .

اما هو فقد تملكته نشوة التعبير ، فجهر بافكاره واحساساته فى الاسواق ولعامة الناس .

كما تملكته نزعة اصلاحية ، حملته اخيرا على ان يطرح خرقة الصوفية ، وان يكثر من التنقل فى البلاد، يلقى الناس ، ويسمع منهم ، ويتحدث اليهم بكلام مفهوم حينا وغير مفهوم فى كثير من الاحيان ، ولكنهم ــ على كل حال ــ افتتنوا به افتتانا كبيرا ، جعل البعض منهم يرفعه عن ان يكون انسانا عاديا ، الى حد انهم عندما قتل ، لبثوا ينتظرون أوبته ، زاعمين ان اعداءه لم يقتلوه هو بعينه ، وانما شبه لهم !! .

كان الحلاج فى تجواله فى البلاد، وفى تطوافه فى الاسواق ، وفى لقائه الناس ، ينتقد الاوضاع السائدة فى عصره ، فاوغر ذلك عليه الصدور ، ودبرت له المكيدة ، وحوكم محاكمة صورية سريعة ، بتهمة الزندقة والالحاد ، وصدر الحكم فى شأنه بالاعدام ، وقتل شر قتلة .

وعندما احس الحلاج بالخطر ، خاطب قضاته بقوله : « ظهري حمي ، ودمي حرام ، وما يحل لكم ان تتهموني بما يخالف عقيدتي ، ومذهبي السنة ، ولي كتب في الوراقين تدل على سنتي ، فالله الله في دمي !! »

ولعل هذه كانت من المرات القلائل التى تكلم فيها الحلاج بكلام واضح مفهوم ، ولكن ذلك لم يغن عنه شيئا ، فقد جلد الف سوط ، وقطعت يداه ورجلاه ، واحرقت جثته ، ورمي برمادها فى نهر الفرات ، وعلق رأسه بباب الكرخ !

— ◆ —

تلك باختصار هي قصة حياة الحلاج .

اما هو نفسه ، فقد كان ولا يزال مشكلة ، كان ولا يزال شيئا غامضا يستعصى على الرؤية الواضحة، وعلى الفهم الصحيح .

والذين كتبوا فى شانه او تحدثوا عنه ، سواء من القدامى او المحدثين ، لم يقولوا شيئا محددا ، وانما تكلموا عنه بكلام يوحي بالخوف من الخوض فى شانه ، كما يوحي بتفضيل بعضهم ترك امره لله ، فهو اعلم بحقيقة حاله .

— ◆ —

وكمثال لذلك نسوق هنا ما قاله ابن خلكان فى شانه ، فقد قال عنه : « والناس فى امره مختلفون، فمنهم من يبالغ فى تعظيمه ، ومنهم من يكفره » .

ولم يذكر لنا ابن خلكان رايه الخاص هو فى الحلاج ، وانما اكتفى بان ينقل لنا كلاما لابي حامد الغزالي فى الموضوع ، وذلك حيث يقول ابن خلكان : « وقد رايت فى كتاب مشكاة الانوار لابي حامد الغزالي فصلا طويلا فى حاله ، وقد اعتذر عن الالفاظ التى كانت تصدر عنه ، مثل قوله : « انا الحق » وقوله : « ما فى الجبة الا الله » وهذه الاطلاقات التى ينبو السمع عنها وعن ذكرها ، وحملها كلها على محامل حسنة ، واولها ، وقال : هذا من فرط المحبة وشدة الوجد » .

— ◆ —

ونسوق مثالا آخر ، لكاتب قريب العهد منا ، هو المرحوم احمد امين ، فقد كتب ترجمة موسعة للحلاج شيئا ما فى الجزء الثاني من كتابه « ظهر الاسلام » ولكنها مجرد ترجمة ، وذكر اخبار ، وتفصيل لمحاكمته واعدامه ، وتفصيل لحقيقة التهمة الموجهة اليه ، اما راي احمد امين نفسه فى الحلاج ، فلم يعبر عنه باكثر من قوله فى بساطة متناهية : « ويظهر ان الحلاج كان حاد المزاج ، غريب الاطوار ، يشبه الناس الذين عندهم هستيريا » !!!

— ◆ —

وهناك كاتب آخر ، كان معروفا بجراته الى حد بعيد، هو المرحوم الدكتور زكي مبارك ، وقد عقد للحلاج فصلا خاصا فى الجزء الاول من كتابه « التصوف الاسلامي » تكلم فيه ما شاء ان يتكلم ، وان كان لم يفدنا بشيء محدد فى شان الحلاج ، ثم ختم كلامه الطويل بقوله : « لا تسالوني عما اودعت فى هذا الفصل من المعاني ، فانا احب ان اكون اعقل من الحلاج ، وان كنت اصغر من الحلاج » !!

ومعنى هذا ان زكي مبارك فى كلامه عن الحلاج ، قد تحرج على غير عادته ، وكنى ولم يصرح ، ورمز ولم يفصح ، وهو شيء غريب من رجل كزكي مبارك، لم يكن يتحرج من شيء ، ولم يكن يتورع عن ان يقول كل ما فى نفسه ، كيفما كان .

— ◆ —

اما المستشرقون فيبدو ان الاستاذ ماسينيون كان اكثرهم جميعا اهتماما بامر الحلاج ، والكتابة عنه ، ومحاولة النفاذ الى حقيقة عمله ومذهبه .

وكل الذين كتبوا عن الحلاج من المحدثين يشيرون الى الاستاذ ماسينيون او ينقلون عنه .

يرى الاستاذ ماسينيون ان الحلاج كان مشغولا باصلاح واقع عصره ، وانه كان بالنسبة للعامة اكثر من رائد صوفي ، كان داعية سياسيا واجتماعيا .

وهذا التقرير له — فى الواقع — ما يؤيده من اشارات الذين تناولوا الحلاج بالحديث فى المراجع العربية القديمة ، وهو الذى اتخذه فى الاخير الشاعر صلاح عبد الصبور ، قاعدة بنى عليها مسرحيته الشعرية « ماساة الحلاج »

— ◆ —

هذه امثلة من الاساليب التى تناول بها الناس قضية الحلاج فى القديم والحديث معا ، فهل خلف لنا الحلاج نفسه من آثاره النثرية او الشعرية ، ما يساعدنا على معرفته حق المعرفة ؟

لم يخلف لنا الحلاج الا كتابا غريب الاسم ، غريب الموضوع ، كما قال عنه الاستاذ احمد امين ، هو كتاب « الطواسين » والا بضعة ابيات من الشعر متفرقة هنا وهناك ، ان كان لنا ان نستفيد منها شيئا ، فهو ان الحلاج كان مغرقا فى ايمانه بوحدة الوجود ، وبالحلول ، وانه كان جريئا الى ابعد حدود الجراة فى التعبير عن ايمانه بذلك ، وهي جراة جرت عليه كثيرا من البلايا ، وجعلت حتى مريديه ، والمتعاطفين معه من صوفية عصره ، يقفون منه ومن شانه مواقف غامضة ، متناقضة ، فى كثير من الاحيان .

لم يكن الحلاج شاعرا من درجة ابن الفارض او عمر الخيام او غيرهما من الشعراء الفلاسفة المتصوفين ، فشعره لم يكن فى قوة شعر الاول ، ولا فى نصاعة شعر الثاني ، وانما كان يصطنع الشعر بين الحين والحين ، للتعبير عن حالات غامضة ، لا يمكن التعبير عنها الا بشعر غامض ، مثقل بالرمز .

ونضرب هنا صفحا عن ايراد نماذج من شعره ، وفى استطاعة من شاء ان يرجع اليها فى بعض المراجع التى اسلفنا الاشارة اليها .

— ◆ —

وننتقل الآن الى الحديث عن المسرحية الشعرية التى كتبها الشاعر صلاح عبد الصبور عن « ماساة الحلاج » وقد سبقت الاشارة اليها من قبل .

يبني صلاح عبد الصبور مسرحيته هذه على القاعدة التى قررها الاستاذ ماسينيون ، ويمكن تلخيصها فى هذه العبارة الموجزة ، وهي ان الحلاج الى جانب صوفيته التى تشهد بها احواله ، والى جانب افكاره الدينية التى يترجم عنها شعره وما خلفه من آثار مكتوبة ، كان معنيا بمحاولة اصلاح واقع عصره ، وقد جره ذلك الى التورط فى علاقات مريبة مع بعض الشخصيات ، فكان ذلك هو السبب الحقيقي فى محنته او ماساته ، ولكن خصومه استطاعوا على كل حال ان يجدوا فى اقواله ذات الطابع الديني ، ما يكفي لاحكام المكيدة له ، والانتقام منه .

— ◆ —

كان الصوفية كما اسلفنا يبنون امرهم على تكتم مشاعرهم ووجدهم ، وكانوا يعتزلون الشؤون العامة، ولكن الحلاج خالفهم فى ذلك، فطرح خرقتهم، وانغمر فى الحياة ، يلقي الناس ، ويتحدث اليهم ، ويثيرهم بكلامه الغامض ، وقد جر عليه ذلك لوم صوفية عصره .

وهذا صلاح عبد الصبور ، ينطلق الشبلي ، احد كبار الصوفية فى عهد الحلاج ، بقوله مخاطبا الحلاج ، وهو على صليب الموت :

يا صاحبي وحبيبي
« اولم ننهك عن العالمين » ؟
فما انتهيت !
قد كنت عطرا نائما فى وردته
لم انسكبت ؟
وددة مكنونة فى بحرها
لم انكشفت ؟
وهل يساوي العالم الذى وهبته دمك
هذا الذى وهبت ؟

— ◆ —

وفى فصل آخر ، نقرأ حوارا بين الحلاج والشبلي ، يصر فيه الحلاج على سلامة موقفه فى وجوب مواجهة الشر ، ولكن الشبلي يقول له :

يا حلاج !
الشر قديم فى الكون ،
الشر اريد بمن فى الكون ،
كي يعرف ربي من ينجو ممن يتردى ،
وعلينا ان يتدبر كل منا درب خلاصه ،
فاذا صادفت الدرب فسر فيه ،
واجعله سرا ،
لا تفضح سرك !

— ◆ —

وينقل بعض مريدي الحلاج اليه ، وهو فى جلسته تلك مع الشبلي ، ان هنالك امرا يدبر ضده ، وانه متهم بالاتصال بفلان وفلان ، فلا ينفي الحلاج التهمة عن نفسه ، وانما يجيب بقوله :

هم بعض وجوه الامة
وهم ايضا خلصائي ، احبابي ،
وعدوني ان ملكوا الامر
ان تحلو سيرتهم ، ويعفوا عن سقط الفعل
هم زهرة آمالي فى هذا العالم
ولهذا ارويهم من خطراتي ، واندبهم برقيق القول .

— ◆ —

فيجيبه الشبلي :

يا حلاج
لا ادري للصوفي صديقا الا نجوى الليل
وبكاء الخوف من الدنيا
واناشيد الوجد المشبوب ، وآهات الذل
فاذا ثقلت فى جنبيه الوحدة
فليلزم اهل الخرقة، ابناء الفاقة
ممن قنعوا باليأس عن الآمال ،
قل لي يا حلاج !
اوثقت بأن وجوه الامة ممن تعرف
ان ولوا ، ظلوا اهل مودة ؟؟

— ◆ —

وهكذا نرى فى شخصية الشبلي ، ذلك الصوفي الذى لا يشغله عن وجده شيء من امور الدنيا ، ونرى فى الحلاج صوفيا من نوع آخر ، نادر المثال بين الصوفية ، نرى فيه رجلا معنيا بأحر الخلق ، متورطا من اجل ذلك فى علاقات مريبة ، وقد جره ذلك الى النهاية المحزنة التى تمثلت فى تعذيبه اسوأ تعذيب ، وقتله شر قتلة .

— ◆ —

ونمضي فى المسرحية الى ان نصل الى المحاكمة، حيث يواجه الحلاج بتهمة الزندقة ، فينبري للدفاع عن نفسه ، دفاعا يشرح فيه أحواله منذ نشأته ، ذاكرا ان هدفه كان دائما هو طلب الحقيقة ، وقد طلبها فى العلم ، فنال منه حظا وافرا ولكنه لم يجدها فيه ، وطلبها فى العبادة خوفا من النار ورغبة فى نعيم الجنة ، ولكنه ما لبث ان اكتشف ان هذا النوع من العبادة ، لا يعدو فى تقديره ان يكون نوعا من التجارة ، وظل يهيم الى ان لقي الصوفية ، فلقنوه اورادهم ، والبسوه خرقتهم ، وجعلوه يكتشف ان الحقيقة الحق ، لا توجد الا فى حب الله والفناء فيه:

تعشقت حتى عشقت ،
تخيلت حتى رايت ،
رايت حبيبي ، واتحفني بكمال الجمال ،
بجمال الكمال ،
فاتحفته بكمال المحبة ،
وافنيت نفسي فيه ،

— ◆ —

ولو وقف الحلاج عند حد هذا الذى قاله فى شأن نفسه ، لما زاد على ان يكون صوفيا من الصوفية، ولكنه كان متهما بنشاط مريب ، وقد وجه به ، فلم يستطع دفعه عن نفسه ، وانما اوله تأويلات لم تغن عنه شيئا ، ولم تحل بينه وبين المصير الذى كان ينتظره .

— ◆ —

هذه هي القاعدة التى بنى عليها صلاح عبد الصبور مسرحيته الشعرية ، « مأساة الحلاج » وهو بناء لا يكشف كل الغموض الذى يحيط بشخصية الحلاج ، بل انه يرتكز على غموض هذه الشخصية ، وتعدد جوانبها الى حد الاشكال ، ولكن من الواضح من خلال المسرحية ان الحلاج لم يكن صوفيا فقط ، او صاحب آراء وخطرات فى الدين قد تعتبر دخيلة عليه ، ولكنه الى جانب كل ذلك ، كان — كما يقول الاستاذ ماسينيون — « معنيا باصلاح واقع عصره » مخالفا بذلك شأن الصوفية ، متعرضا بذلك للغضب عليه والانتقام منه .

ولعل احسن تلخيص للقاعدة التى بنى عليها صلاح عبد الصبور مسرحيته ، هي التى يقدمها لنا هو نفسه فى هذه العبارة المركزة ، وذلك حيث يقول:

« لقد تشابكت طرق الصوفي الحلاج ، مع طرق رجال السياسة فى عصره ، ووقف وقفة الحائر ، هل يحمل الحقيقة التى هي كشف خاص ويمضي بها بين الناس ، فتضيع خصوصيتها عندئذ ، ويغضب صاحب الحقيقة ، أم يكتمها متلذذا ؟ تلك هي مأساة الحلاج »

— ◆ —

بقي ان نقول كلمة تتصل بالشكل الذى صاغ فيه صلاح عبد الصبور مسرحيته عن الحلاج ، فهو قد كتبها شعرا ، وقدمها للناس على انها مسرحية شعرية ، ومن المعلوم ان صلاح عبد الصبور يكتب معظم شعره على طريقة الشعر الحديث الذى لا يلتزم القافية والاوزان التقليدية المعروفة ، بل يلغي الوزن والقافية الغاء كاملا فى بعض الاحيان .

ولكن المعروف عن صلاح عبد الصبور انه يكتب شعره احيانا ايضا ، وعندما يريد ، على الطريقة العمودية القائمة على البحر والقافية ، بل انه يبدو من خلال بعض كتاباته ، متضلعا فى العروض ، كما هو الشأن فى نازك الملائكة وفدوى طوقان .

ومعنى ذلك انه لا يلجأ الى الطريقة الحديثة عن عجز او ما يشبه العجز ، وانما يعمد اليها عن اختيار .

هكذا فعل فى مسرحيته « مأساة الحلاج » فانت تقرأ فيها احيانا مقاطع قائمة على وحدة الوزن، وان كانت مكتوبة بشكل يوحي بخلاف ذلك ، كما تقرأ فيها مقاطع اخرى قد يبدو لاول وهلة ، انها لا تقوم على اي وزن من الاوزان ، مع انها فى الواقع قائمة على وحدة التفعيلة ، على نحو ما ارسى عليه ، او بدا يرسى عليه ، اتجاه الشعر الحديث من حيث الشكل .

وقد علم صلاح ان هنالك قوما معنيين بالعروض او الشكل الخارجي للشعر ، فلم يبخل عليهم بشرح

الطريقة او الطرق العروضية التى نهجها فى مسرحيته هذه ، وذلك فى التذييل الذى ختم به هذه المسرحية الشعريـة .

— ◆ —

وبعد ، انما كان الاولى ان تكتب هذه المسرحية نثرا ، خصوصا وان عهود المسرحية الشعرية قد ولت ، وخصوصا ايضا وان تجربة الشعر الحديث على المسرح قد تعتبر مغامرة ادبية غير مضمونة النتيجـة ؟!

ونجيب على كل ذلك ، بأن الطبيعة المأساوية الشعرية لموضوع هذه المسرحية ، والغموض الذى يلف بطلها وهو الحلاج ، كل ذلك قد يجعل من الاحسن ان تكتب شعرا ، وشعرا على الشكل الحديث ، ضبابيا فى معناه ، ضبابيا فى مبناه ، تنقصه النصاعة والصقل ، ويفتقر الى الاشراق والوضـوح ، ويلفه الضباب الذى يلف موضوع المسرحية نفسه .

يضاف الى كل ذلك ان صلاح عبد الصبور ، قد استغل موضوع المسرحية ، فحملها اشياء كثيرة فى نفسه ، لا يمكن له التعبير عنها الا فى لمحات شعرية قصيرة خاطفة، والا فى شيء كثير من الغموض والابهام والتعمية ، وكل ذلك قد لا يتأتى الا فى اطار شعري ، وفى اطار الشعر الحديث بالذات .

الرباط ـ عبد القادر الصحراوي



(1)

تهدد أمن الولايات المتحدة

بقلم بنجامين فريدمان

ترجمة الأستاذ احمد عبد السلام البقالي

(6)

فاتحـة :

تعرض الكاتب فى المقال السابق لعمليات الدهاء والمكر التى شطر بها الصهيونيون الحـزب الجمهـوري شطرين، ليتمكنوا من انتخاب عميلهم «وودرو ويلسـون» للرئاسة كمرشح للحزب الديموقراطي وذلـك حتـى يكون ممتنا ومعترفا لهم بالجميل اذا احتاجـوا الى مساعدته فى الاستيلاء على فلسطين .

ونجحوا فى العملية .

كما تعرض لمناوراتهم اثناء الحرب العالمية الاولى لمنع قبول بريطانيا شروط السلام المشرف الـذي منحتها المانيا للحلفاء . وذلك بتعهدهم لوزارة الحرب البريطانية ان يدخلوا الولايات المتحدة فى الحرب ضد المانيا ، على شرط ان تقدم لهم بريطانيا وعدا باسكانهم فلسطين بعد نهاية الحرب .

ونجحوا مرة اخرى : وكان وعد « بلفور »

وهذا هو القسـم الثاني من ذلك المقال القيم :

كان « هرزل » على حق من وجهة واحدة ، وهي ان يهود روسيا كان عليهم ان يجدوا وطنا خـارج روسـيا . اليهود الروس رفضوا ان يصبحوا روسيين. فقد بذلـوا كل تضحيـة للابقـاء علـى جنسيتـهـم «الخزرية» .

وكانت المملكة الخزرية بلدا من 750 الف ميل مربع فى شرق اوربا قبل ان تحتلها الامبراطوريـة الروسية وتضمها اليها . والخزر اصلا اسيويون من عرق تركي ـ فلندي Turco-Finn منغولي . جاءوا الى شرق اوربا فى القرن الاول . وكانت اقرب طرقهم من آسيا الى شرق اوربا تبعد عن فلسطيـن بمسافة 1500 ميل . عاش الخزر فى شرق اوربا كامة قبلية تحتوي على سكان 25 قبيلة احتلـوا المنطقة وعمروها. وامتزج الخزر بالقبائل التى احتلوها عن طريق الـزواج . وكانت هـذه القبائـل الخمس والعشرون تتكون من كل جنس على الارض . وهذا ما يفسر تعدد سحنات اليهود فى شرق اوربـا . ويؤكد الانتروبولوجيون ان سكان مملكة الخزر اصبحوا اخلط امة فى تاريخ العالم .

واهتدى الخزر الوثنيـون الى اليهوديـة فى القرن التاسع حين كانت تعرف باسم « التوراة يهف Torath Yahve

ولم يكن هناك خزري واحد وضع اجداده قدما فى الديار المقدسة ، لذلك يكون ادعاء يهود شـرق اوربا انهم خلف سكان فلسطين القدماء بهتانا وادعاء.

وقـد اختلـق هـرزل Herzl الخدعـة او (الربعة) ان احتلال فلسطين من طرف المدعوين

---

(1) تتمة للمقال الصادر فى عدد سبتمبر وينابر 1969 بنفس العنوان .

باليهود الروس ما هي الا عودة « شعب الله المختار » الى « وطن اجدادهم » .

كان لابد لليهود الروس ان يعرضوا على العالم تبريرا لاحتلالهم لفلسطين . واختار هرتزل الموسوس تبريرا يكون مقبولا لدى المسيحيين . وكانت العودة الى الوطن هي فكرته العبقرية لغسل دماغ العالم المسيحي .

واولئك الذين يريدون تنوير ضحايا الصهيونية عن خلفيتها التاريخية دائما يوسمون باللاسامية Anti-sémitisme من طرف جميع ادوات الاعلام . وكلمة اللاسامية صنعها الصهيونيون وحولوها الى سلاح وهي كلمة لا معنى لها ولا مفهوم .

سام كان احد ابناء نوح الثلاث ، وكان يافث هو الاب الاسطوري لسكان اوربا ، وحام لسكان افريقيا اما سام فقد كان الجد الاسطوري لسكان الشرق الاوسط . وامم الشرق الاوسط القبائلية كانت تتكلم احدى واربعين لغة تتشابه في اعرابها وبنائها النحوي ، الا انها لم يكن لها اسم خاص . وقد درس عالم لغوي سويسري هو البروفيسور شلوسر Schlosser حوالي سنة 1786 درس اللغات حسب مجموعاتها ووضع لكل مجموعة اسما معينا ولم يكن هناك اسم لمجموعة اللغات التى تتكلمها سلالة «سام» الاسطورية، وتغير الاسم من «شام» الى «سام» حين كتب المؤرخ فلافيوس جوزيفوس Flavius Josephus للاغريق والرومان اذ لم يكن في مستطاع الاغريق واللاتينيين ان ينطقوا باسم « شام » وبقراءة ما كتبه « فلافيوس جوزيفوس »اصبح البروفيسور شلوسير معتادا على كلمة سام فطبع كلمة « سامي » لوصف اللغات التى تتكلمها سلالة سام الاسطورية . وفي كتاب البروفيسور « شلوسير » يصف اللغة المتكلمة في الشرق الاوسط باللغات السامية ، ولم يكن هناك ابدا وطن سامي او جنس سامي او ديانة سامية قبل ذلك الوقت . فالكلمة اذن من صنع البروفيسور « شلوسر » وكانت مجهولة قبل ان يقدمها في كتاباته .

وقبل وجود كلمة اللا سامي التى تعني الشخص المعادي لليهود كانت الكلمة التى تعني ذلك في اللغة الانجليزية هي « جوديافوب Judeaphobe » ولسبب غير معروف في سنة 1880 اخترع يهودي اسمه وليام مار William Marr كلمة اللاسامية Anti-sémitisme ولم تكن تلك الكلمة معروفة قبل ذلك . ولسبب سيكولوجي فضل يهود اوربا كلمة لا سامي Anti-sémite عن جود يافوب Judeaphobe واشاعوا استعمالها بقطع استعمال جوديافوب .

ومنذ 1880 جعل الصهاينة اليهود كلمة « لا سامي » تهمة لها قوة تحطيم كل من تلصق به . . ولان السيد المسيح جاء الى هذا العالم بين الشعوب المدعوة بالسامية في الشرق الاوسط فقد اتخذت كلمة «اللا سامية» مفهوم العداوة للمسيح ، ومهما كان السبب فالتصاق تهمة اللا سامية باي فرد معناه قبلة الموت في هذا العصر ، كما عرف الكثيرون .

ومن الغرابة ان المسيحيين لم يكلفوا انفسهم عناء البحث في اصل تلك الكلمات بعد ان صهرها اليهود وصنعوا منها اسلحة لغوية . وقد جعل اليهود الصهاينة الكلمة من القبول لدرجة ان عددا من الرهبان ورجال الدين واساتذة الجامعات يستعملونها دون اي فكرة عن اصلها ومعناها الحقيقي . وقد عرف ان البابا هو الآخر استعمل الكلمة . ولا بد ان يقهقه الصهاينة اليهود عاليا كل مرة سمعوا فيها الكلمة او قراوها مطبوعة . حينئذ فقط يدركون قوة سيطرتهم على وسائل الاعلام والمواصلات .

ومما يفاجيء انه لا احد من العقول المسيحية الكبرى تساءل ماذا تعني « اللاسامية » اذ لم يكن هناك شيء يسمى « السامية » . وليس ثمة شيء في العالم اليوم يعرف « بالسامية » فكيف يمكن ان توجد « اللا سامية » ؟ ولو حرم اليهود من كلمة « اللا سامية » كتهمة ، لحرموا من اعظم سلاح يمكنهم به خنق الحق .

وبسيطرتهم على وسائل الاعلام اقنع الصهاينة المسيحيين ان المانيا قتلت ستة ملايين من اليهود بين سنتي 1933 و 1945 ولمعرفة الحقيقة اقامت جريدة « النيويورك تايمز » في سنة 1947 احصاء على حسابها لتتأكد من عدد اليهود الباقين في العالم بعدما يدعي من مقتل ستة ملايين منهم على ايدي الالمان . والارقام التى اعطتها اللجنة اليهودية الامريكية ومجمع البيع في امريكا التى هي المصدر الرسمي لتلك المعلومات«للتقويم العالمي»تؤكد انعدد اليهود التقريبيفي العالم كان 16.500.000 في سنة 1933 عند قيام هتلر، وفي 22 فبراير 1947 كان هناك 18.750.000 من اليهود في العالم حسبما ورد في جريدة « النيويورك تايمز » ومعنى هذا انه كان هناك

سنة ملايين من 16.500.000 فلن تكون النتيجة 18.750.000 حسب اي منطق .

صهاينة الولايات المتحدة لا يتكلمون ولا يكتبون شيئا عن اعلانهم « لجهادهم المقدس » ضد الالمان سنة 1933 . اعلان تلك الحرب ملأ اربع اعمدة على طول جريدة «ذي نيويورك تايمز» The New York Times الصادرة في السابع من غشت 1933 وهي تلقي ضوءا ساطعا عمن خطط ودعا واثار الحرب العالمية الثانية . وفي اعلان تلك الحرب طلب الصهاينة حصارا عالميا ضد المواد التجارية والخدمات الالمانية ، وطالبوا اصدقاءهم المسيحيين في جميع انحاء العالم ان ينضموا الى حصارهم . واعلان حرب مقدسة ضد المانيا اكدت لهم ان الحصار العالمي سيكون ذا مفعول حاسم لان وجود المانيا حينئذ كان يتوقف على صادراتها .

كان السيد «ساموئيل انطيرميل S. Untermeyer رئيسا لبعثة الولايات المتحدة لدى مؤتمر اليهود العالمي في امستردام ، وهو نفس انطيرمير الذي رتب مع الرئيس « وودرو ولسن » ليسهل لصهاينة امريكا ان يضغطوا عليه لاعلان الحرب ضد المانيا . وليس هناك مجال في هذا المقال للتوسع في فضيحة الرئيس ولسن اذ ينبغي ان نذكر موتانا دائما بالخير .

وسيطرة اليهود على وسائل الاعلام جعلت من المستحيل على مسيحيي الولايات المتحدة ان يعرفوا الحقيقة حول مشاعر الالمانيين تجاه اليهود قبل وبعد 1916 .

قبل سنة 1916 اعتبر الصهاينة اليهود القيصر « ويلهلم الثاني » والمانيا كاحسن اصدقائهم .. وكان مركز الحركة الصهيونية في برلين ، وكان اليهود يهربون من البلاد التي تضغط عليهم الى المانيا حيث يجدون الامن وفرص العمل . كانت وثيقة التحرر الالمانية في سنة 1822 قد منحت اليهود الالمان المساواة التامة مع الالمان الآخرين . الشيء الذي لم يكن معروفا في البلاد الاوربية الاخرى . فأصبح لهم الحق ان يحترفوا اية مهنة وان يزاولوا اي عمل بعد 1822 .

وبين 1896 و 1916 حاول القيصر ويلهيلم الثاني جهده ان يقنع سلطان الامبراطورية العثمانية الذي كان حليفه وصديقه الشخصي ان يتنازل عن سيادته عن فلسطين لصالح الصهاينة اليهود .. ولم ينجح القيصر في هذا المسعى . كان جواب السلطان ملكه » ، واحال الصهاينة اليهود على الشعب الذي يملك فلسطين . ومن مجهودات القيصر للحصول على فلسطين للصهاينة انه سافر الى فلسطين على يخته الخاص . ولكن السلطان لم يتزعزع لاسباب روحية .

وتغير موقف القيصر وجميع الالمان حيال الصهاينة عند دخولهم اتفاق لندن في سنة 1916 مع وزارة الحرب البريطانية من اجل ان يدخلوا الولايات المتحدة في الحرب ضد المانيا كحليفة لبريطانيا. وتحول احترام الالمان لليهود الى بغضاء بعد ان عرفوا ان هزيمتهم المنكرة على ايدي البريطانيين كانت بسبب دخول الولايات المتحدة الحرب حليفة لبريطانيا بمقتضى اتفاق لندن سنة 1916 . وقد مر وقت طويل قبل ان يدرك الالمان من كان المسؤول عن تحويل انتصارهم في سنة 1916 الى هزيمتهم الساحقة في سنة 1918 . ولم يخطر على بال القيصر ولا الشعب الالماني ان الصهاينة اليهود يمكن ان يضعوا خطة هزيمة المانيا من اجل الحصول على فلسطين لتحويلها الى ما يدعى « بالدولة اليهودية » . وبتطبيق شروط ميثاق فيرساي ضد المانيا بين سنة 1919 و 1933 نما حقد الالمان على اليهود ، وجاء « بهتلر » الى الرئاسة.

ولا يمكن ان يفهم احد مشاعر الالمان الا اذا كان عاش تلك السنوات في المانيا ، وكثير من السياسيين يعتقدون خطأ ان الصهاينة اختطوا ودعوا واثاروا الحرب العالمية الثانية من اجل انهاء شعور العداوة ضد اليهود في المانيا الناتج عن هزيمة الحرب العالمية الاولى .

السياسيون في الولايات المتحدة يلعبون بالديناميت اذا كان تأييدهم لما يدعى بدولة اسرائيل سيقود الى الحرب العالمية الثالثة ، هذه مسالة ينبغي ان يقفوا عندها طويلا ، فاي مصلحة ستتحقق من انتخابهم لو انهزمت الولايات المتحدة على يد روسيا في حرب ذرية ؟ لن تنفعهم كراسيهم الناعمة اذا حدث ذلك . هذا هو وقت ادخال شيء من الوعي الى رؤوسهم فالحرب الذرية مع روسيا قد تعني نهاية الجنس البشري ! وانها لحقيقة رسمية ان هناك في الولايات المتحدة وروسيا من القنابل الذرية ما يمحو الانسانية من على وجه الارض مرارا متعددة . وليس هناك وقاية ضد اي هجوم ذري عام باعتراف الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي .

فالى اين نحن اذن ذاهبون ؟

احمد عبد السلام البقالي



(6)

توجه اعضاء الوفد المغربي ، لدى عودته من بخارى الى طشقند عاصمة الجمهورية الاوزبكية الى مقر رئاسة الحكومة لزيارة وزير خارجيتها ، ويقع مقر الرئاسة فى حي عصري جميل ، يشرف على شوارع المدينة التى ازدانت جنباتها بالحدائق الفناء ، والمسارح الكبرى ، والدور المتعددة للثقافة والتهذيب والتسلية البريئة ، فاستقبلنا ، فى لطف وترحيب وبشاشة، نائب رئيس الحكومة ، ووزير خارجيتها السيد شرور عظيموف المعروف بالوداعة والوقار ، والممتاز بالاطلاع الواسع، وشمول المعرفة ، وقد كانت لنا معه جلسة طيبة تبودلت اثناءها عبارات الود والمجاملة ، ثم قام فالقى كلمة معبرة عن عواطفه ، ومشاعر الشعب الاوزبكي ، ومرحبا بالوفد المغربي الذى اوفده صاحب الجلالة الحسن الثاني للتعرف على بلاد الاتحاد السوفياتي ، ثم قال : اننا لنقدر كفاح وبطولة الشعب المغربي الذى نسمع عنه الشيء الكثير ، كما نكبر الجهود الوطنية والانسانية التى بذلها المرحوم محمد الخامس طيب الله ثراه فى سبيل اسعاد امته ووطنه ، لقد اطلعنا على التضحيات الجلى التى قام بها فى وقتها ، كما اننا نعلم مواقف ملككم النبيلة الدالة على غزارة علم ، وبعد نظر ، وتعقل وتبصر ، وان المواقف التى تقفها حكومة الاتحاد السوفياتي بجانب العرب فى قضيتهم العادلة لتدل على متانة الروابط الوشيجة التى تربط العرب والمسلمين باخوانهم فى الاتحاد السوفياتي .

وقد شكره رئيس الوفد المغربي على ما قوبل به من حفاوة وترحيب وتكريم معتبرا ذلك موجها الى مقام حضرة صاحب الجلالة نصره الله والشعب المغربي الذى يتشوق لمعرفة اخوانه المسلمين فى هذه المنطقة النائية ، واعرب له سيادته باسم الوفد عن مدى اكباره للجهود المبذولة لاسعاد الشعب ، وما تقوم به الحكومة من بناء وتشييد وتعمير وتطوير لمدينة طشقند العاصمة التى اصيبت فى السنوات الاخيرة بزلزال عنيف عام 1966 اتى على بنيانها من القواعد ، فهد اركانها وقوض دعائمها ، وتركها خرابا يبابا كان لم تغن بالامس .

❋ ❋ ❋

وبعد هذه الزيارة الودية التى كانت بالنسبة لنا فرصة فريدة لمزيد التعرف على احوال المسلمين واوضاعهم فى جمهورية اوزبكستان ، قمنا بالتجول فى احياء المدينة التى تشهد نشاطا وحيوية ، وتكتظ بجموع ابنائها فى لباسهم التقليدي الشرقي الجميل تلفح وجوههم حرارة الشمس اللاهبة ، التى لا يخفف من حدتها وتوهجها الا جمال المدينة وبهجتها ووداعتها .

وقد تعرفنا على مخازنها الكبرى التى تضاعف عددها فى بحر العشرين سنة الاخيرة ، وتطورت تطورا يمكن المشتري من اقتناء جميع الاشياء اللازمة للعائلة من مخزن واحد الذى يتوفر ، لفرط معروضاته، على اي نوع من انواع البضائع ، وكيفما كانت الكمية المطلوبة ، فقد اتسعت التجارة بهذه المدينة ، وتضخمت بالمؤسسات الكبرى، وازداد اتساع شبكة طرقها ،

وكثرت المطاعم العامة المجاورة للمعامل الكبرى التي تحفل بآلاف من العمال الكادحين ..

وان المرء لياخذه الدهش المعجب حينما يزور معمل النسيج الشهير بمدينة طشقند ، المكتظ بمآت من العاملات الجادات اللواتي يعملن بنجاح في شركات النسيج على آلات معقدة ، ويعطين البلاد اقمشة جيدة ، وثيابا جميلة مهذبة ..

* * *

وعندما تكبدت الشمس السماء ، وتوهجت اشعتها توجهنا الى مسجد البلاد الجامع الرحب الذي يسمى بـ « خواجه علم احرار » لاداء صلاة الظهر ، وقد احتشد فيه ذلك اليوم ءالاف المصلين المخبتين الذين يفيض من وجوههم نور الايمان ، وتملأ حنايا قلوبهم محبة الله ورسوله ، ويهيمون متطلعين ولهين في كل ما يتعلق بالاسلام والمسلمين ، لقد صافحناهم ، ورأينا عيونهم تجول في مآقيها دموع فرحة اللقيا، ووجوههم تطفح بالحب والخير والصفاء ، فقد جمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن الا تلاقيا، لقد امسكوا بأيدينا ، وضغطوا عليها معبرين عن اخوتهم وصفائهم . ثم سحبوها محتفظين بتلك الضبابة لتتبرك بها اسرهم . ان المنظر ، حقا ، مؤثر لاحوال اخواننا المسلمين في هذه المدينة ، لقد كادوا يتفرغون للعبادة ، وينقطعون متحنثين زاهدين ، وهم الى جانب هذا يتشوفون لكل من يطمئنهم على حالة الاسلام ، واوضاع المسلمين ، وان ظل الاسلام لا زال ممتدا واسعا ظليلا على القارات الخمس .. واوضاع المسلمين تسير في تحسن مستمر، وتقدم مطرد، وراي جميع؛ اننا لم نتحدث اليهم بكلمة، ولم يقم احدناخطيبا للوصول الى قلوبهم، ولكن المنظر كان ابلغ من خطاب ، واقوى من كل قول ، واشد تاثيرا على النفس ، كانت الخطبة صامتة أسالت الدموع ، واثارت الاشجان ، وفتحت ابواب الامل ، واحدثت تاثيرا في النفس يحفى القلم دون توفيته بعض حقه ، وللقلب على القلب دليل حين يلقاه .

* * *

وكم كان بودنا ان نزور ونحن في مدينة طشقند معهد الاستشراق الذي لم تتيسر لنا زيارته في هذه المدينة الحافلة بالمآثر والامجاد . ويهتم هذا المعهد الاستشراقي كما هو معلوم ، بتراث علماء الاسلام في اوزبكستان الذين انجبتهم مدن بخارى وسمرقند وغيرهما من اقاليم الشرق الاسيوي ، وقد بلغ رصيده ثمانين الف مخطوط باللغة العربية واللغات الشرقية ، ومما نشر من مخطوطات ذلك التراث الاسلامي كتاب : « الآثار الباقية »لابي الريحان البيروني ، والكتب الاولى من القانون في الطب لابن سينا ، وكذلك رسائله الفلسفية مع البيروني ، وغيرها ..

كما فاتنا ان نزور متحف تاريخ شعوب اوزبكستان لنقف على النسخة الاصلية للمصحف العثماني الذي رأينا منه صورة فوتوغرافية طبق الاصل لدى زيارتنا لمكتبة الادارة الدينية . فلقد قطع هذا المصحف الكريم النادر ، كما قدمنا في احد اعدادنا السالفة ، مراحل في وطنه العربي الاسلامي منذ القرن الاول للهجرة ، قبل ان ينتقل ، فيما نقل من تراث الاسلام ، الى سمرقند في العصر المغولي ، وتم نقله ، بعد ذلك ، وفي رحلة طويلة قدمنا تاريخها سابقا ، من لنينغراد في عام 1922 حيث اودع في المتحف التاريخي لشعوب آسيا في طشقند في علبة من الخشب الثمين داخل صندوق من حديد ، والى جانبه وعاء من الزجاج مملوء بسائل كيميائي لوقايته من الارضة المبيدة ، والعث الاكال .

ولا يمكننا ان نمر في هذا المقام دون ان نشير الى الجهود المضاعفة التي بذلها رجال الاستشراق في الاتحاد السوفياتي في مجال الدراسات الاسلامية والعربية ، فقد كان نصف القرن الماضي بالنسبة للابحاث العربية ، والدراسات العلمية في الاتحاد السوفياتي فترة مهمة لتدعيم اتجاهاتها التقليدية ، وانشاء تقاليد جديدة ، اذ تحولت الدراسات العربية الى مدرسة علمية هامة ذات شهرة واسعة، ومركز واسع بين مراكز الاستشراق في الغرب والشرق..

ويعتمد الباحثون السوفياتيون في دراساتهم على تقدير كبير للتراث الثقافي العربي ، حيث اتسعت المراكز الادارية للغة العربية ، وبقية اللغات السامية الاخرى ، كما انشئت مراكز جديدة الى جانب معاهد لينينغراد وموسكو وقازان ، فخصصت كراسي لدراسة الادب العربي في جامعة طشقند ، وباكو ، ودوشمبي ...

لقد استطاعت روسيا منذ انشاء المتحف الاسيوي ، في لنينغراد سنة 1818 ان تدخل في السباق الدولي على مخطوطات تراثنا حتى انه قد بلغ رصيد معهد شعوب آسيا التابع لاكاديمية العلوم



جلسة ودية مع نائب رئيس حكومة الجمهورية الازبكية ووزير خارجيتها



فى المخزن يمكن اقتناء جميع الاشياء اللازمة العائلة ، من أي نوع ومهما كانت الكمية

للاتحاد السوفياتي اثنا عشر الف مخطوط حتى سنة 1963 بينها خمسة ءالاف مخطوط عربي الى جانب سبعة ءالاف مخطوط عربي فى مكتبات اخرى بلغـراد .

ولعل الفضل الاكبر يعود فى هذا المجال الى الجامعي الشهير كراتشكوفسكي عميد مستعربي الروس الذى انفق ما يقرب من خمسة واربعين سنة فى مجال الدراسات العربية، وكتب نحوا من خمسين واربعمائة كتاب وبحث فى التراث العربي ؛ من بينها خمسون ومائتا كتاب فى مختلف مسائل الادب العربي ، كما ان له كتابا فى « تاريخ الادب الجغرافي العربي » الذى نشرت ترجمته الكاملة للدكتور صلاح الدين هشام جامعة الدول العربية .

وقد نشر المجمع العلمي للاتحاد السوفياتي ست مجلدات لاعمال هذا المستشرق اللامع الكبير ومن اهم مؤلفاته التي خصصها للادب العربي : « الادب العربي من القرن السادس الى القرن العشرين » نشره سنة 1919 ، وكتابه « الشعر العربي من القرن السادس الى القرن الثامن » وقد حلل هذا الباحث فى مقالات عديدة انتاج كثير من الشعراء الجاهليين والاسلاميين والامويين والعباسيين

ولاول مرة فى تاريخ الدراسات العربية العالمية نشر كراتشكوفسكي عام 1932 مخطوط « رسالة حول الملائكة » لشاعر الفلاسفة ، وفيلسوف الشعراء أبي العلاء المعري ، كما نشر بحثا عن «رسالة الغفران» وقام ، ايضا ، بترجمة ثلاثة كتب للشاعر العباسي عبد الله بن المعتز ، وقبل الحرب العالمية الثانية نشر كتابا عن الادب العربي فى اسبانيا وامريكا ، كما درس هذا الباحث اهم الملامح المميزة للادب العربي الجديد من خلال ابحاث ومقالات نشرها ما بين 1920 و1930 مع تحليل لاعمال اهم ممثلي الاتجاهات الادبية المعاصرة فى الشعر والنثر ..

وقد قررت الحكومة السوفياتية ورئاسة اكاديمية العلوم نشر الاعمال «المختارة» من مؤلفات هذا المستشرق الكبير فى ستة اجزاء تحتوي على دراسة لغوية وتاريخية وتحليلات لبعض المخطوطات.

ويواصل علماء السوفييت الدراسة الدائمة والبحث الدؤوب للمخطوطات العربية، اذ لهم فى هذا الميدان ما يفتخرون به من كشف وتحليل وطبع المخطوطات البالغة القيمة .

وفى هذا الصدد يقول المستشرق الروسي الشهير « شرباتوف » فى مقال له عن دراسة المخطوطات العربية فى الاتحاد السوفياتي :

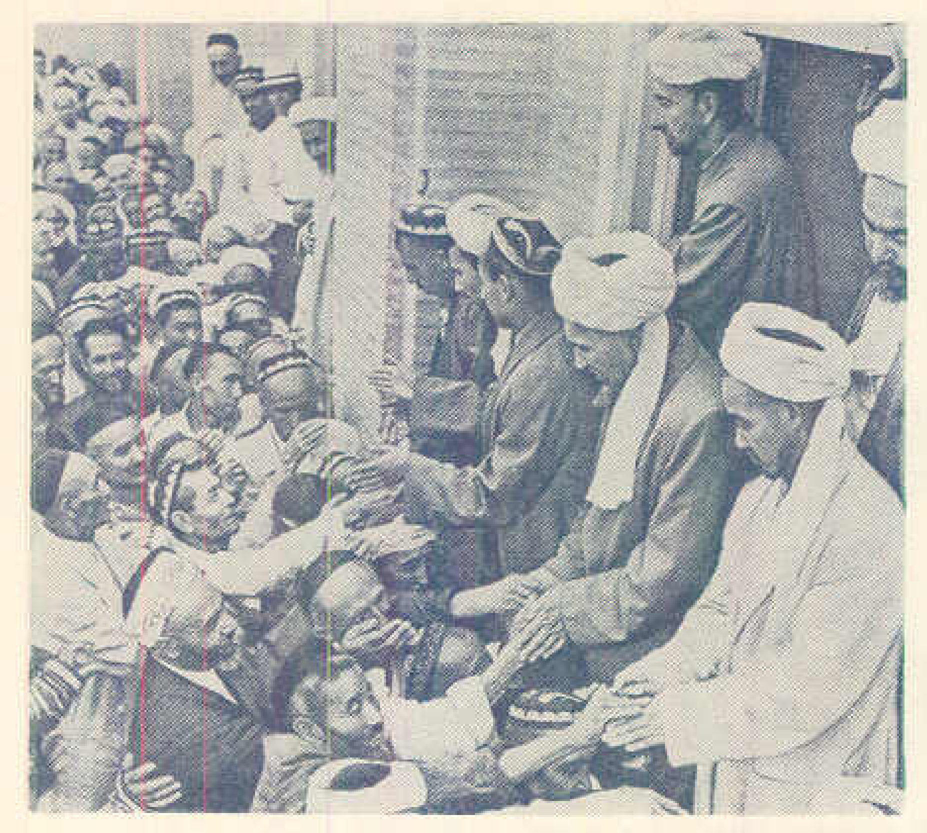
« بدات مرحلة جديدة من مراحل دراسة المخطوطات العربية فى بلادنا ؛ وادى التغيير الجذري فى الحياة العلمية الى اتساع الدراسات الشرقية ، واقامة مركز استشراق كبير فى لينينغراد وموسكو ، وكذلك تأسيس مراكز علمية فى جمهوريات آسيا الوسطى والقوقاز ، وفى كل من هذه المناطق حركة جمع ودراسات المخطوطات الشرقية والعربية خاصة، كما تغيرت وتحسنت ظروف حفظ المخطوطات فيها ، وتكونت مجموعات المخطوطات العربية فى مختلف المدن كطشقند وباكو .. واضخمها مجموعة المخطوطات فى معهد الاستشراق بطشقند ، وتضم هذه المجموعة ثمانين الف مخطوط بالعربية والاوزباكية وغيرهما من اللغات الشرقية » .

واقدم مخطوطة عربية فى هذه المجموعة ترقى الى سنة 344 هـ . وفى السنوات الخمسينية صدرت اربع مجلدات فى وصف مجموعة طشقند ، تتناول اكثر من 2700 مخطوط فى التاريخ وعلم الطبيعة والطب والجغرافية والزراعة والاداب واللغة.

ومن الذين لعبوا دورا اساسيا فى توسيع وتطوير الدراسات العربية « كريمسكي » المعروف بكتاباته عن تاريخ اللغات والشعوب السامية وعن الادب العربي ..

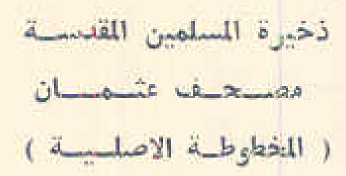
ويقول شرباتوف ايضا « ومما يجدر ذكره ان لعلماء بلادنا فضل الكشف عن مخطوطات لم تعرف من قبل ، وخاصة ما كان منها بخط مؤلفها ، مثل مخطوط الامير السوري اسامة بن منقذ المعروف باسم « كتاب المنازل والديار» الذى يتضمن مجموعة عزيزة من الاشعار فيما بين القرنين السادس والثاني عشر ، وقد نشر النص الكامل لهذا المخطوط باللغة العربية »

وفى مدينة طشقند اكتشف المستشرق الاوزبكي ا. كريموف مخطوطة يتيمة لكتاب « سر الاسرار » عند دراسة كتب ابي بكر الرازي الكيميائية ، وعلى اساس مخطوطة فريدة اخرى فى لينينغراد كتب ت. شوموفسكي احد تلاميذ كراتشكوفسكي عام 1964 رسالة عن الملاحة العربية، والارشادات البحرية ، فتفرغ لدراسة مخطوط الملاح العربي شهاب الدين احمد بن ماجد بن معلق السعدى الذى يقترن اسمه بالملاح الشهير فاسكو



مؤمنو طشقند يستقبلون
الحجاج العائدين من مكة

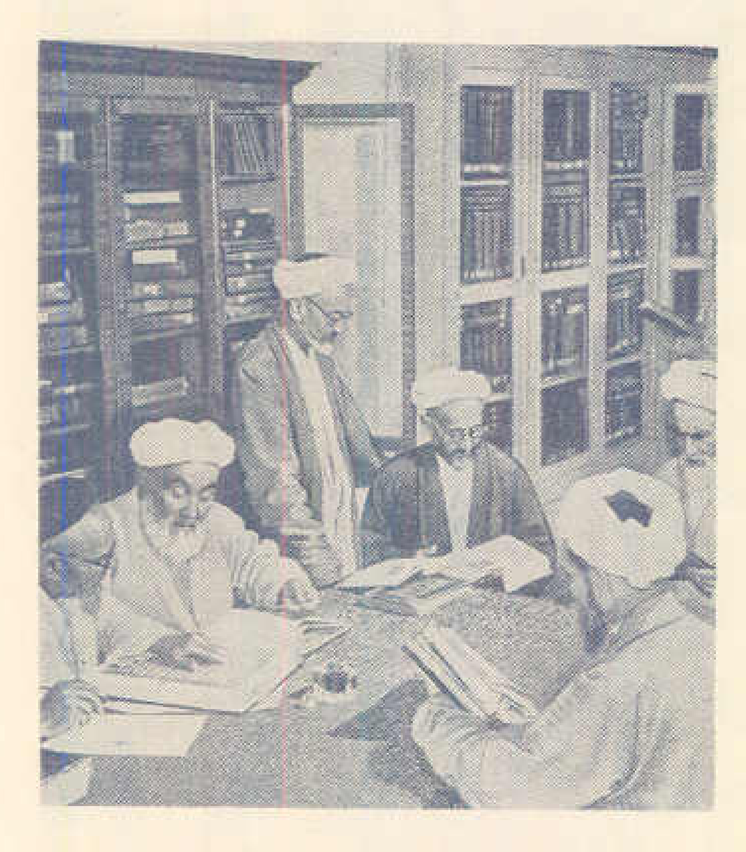




ذخيرة المسلمين المقدسة
مصحف عثمان
(المخطوطة الاصلية)



السيد المفتي يلقي كلمته امام الحاضرين وبجانبه السيد الوزير
وسفيرنا بموسكو ...



فى مكتبة الادارة الدينية
لمسلمي آسيا الوسطى
وكازاخستان (طشقند)

دبكاما في علم البحار في رسالة علمية نال بها درجة علمية من معهد الاستشراق في موسكو ، وتولى المجمع العلمي للاتحاد السوفياتي طبع المخطوط ، كما تقدم الدكتور بولجاكوف ببحث في معلومات جغرافيي العرب في آسيا الوسطى في القرنين التاسع والعاشر ، كما كان موضوع « اولغافرولوفا » **« ما في تاريخ ابن الاثير عن ماضي شعوب آسيا »**

ومن الجدير بالذكر ان نشير هنا الى ان السيدة كراتشكوفسكايا قدمت بحثا الى مؤتمر المستشرقين الدولي الذي عقد في موسكو عام 1960 ، وكان موضوعه : **« نوادر المخطوطات القرآنية من القرن** السادس عشر » وقد استغرق اعداد البحث عشر سنوات متوالية برعاية المجمع العلمي للاتحاد السوفياتي ، كما حققت ونشرت آثارا مختلفة منها « رسالة ابن فضلان » ، عن رحلته في القرن العاشر الى منطقة الفولجا ، والرسالة الاولى لابي دلف الخزرجي عن رحلته الى آسيا الوسطى والهند والصين .

وقد ظهرت اثناء الثلاثينيات الاولى لهذا القرن مؤلفات كثيرة لمستعربي الاتحاد السوفياتي حول تاريخ العصور الوسطى الاسلامية والازمنة الحديثة ، فنشر يكوبفسكي ابحاثا كثيرة عن العلاقات الموجودة بين السلافيين ، وبين الشرق العربي في عام 1926، وكتابا عن البنية المجتمعية والاقتصادية للخلافة الاسلامية في عهد العباسيين ، كما اشتهرت المستشرقة بيكوليفسكايا بدراستها للتاريخ الاجتماعي والاقتصادي عند العرب .

وقد تعمقت الدراسات المخصصة للعصور الاسلامية ، فكتب الاستاذ بليايف « العرب والاسلام والخلافة العربية» 1966، ونشر تشوراكوف كتابا عن «تمرد الخوارج في المغرب» ، كما نشر ن. ايفانوف كتابا عن القبائل المستقلة والقبائل المرتبطة في شمال افريقيا خلال القرن الرابع عشر، وقد رجا مني صديقي الاستاذ السيد شمس الدين ابن المفتي السيد ضياء الدين بباخانوف الذي يعمل استاذا للغة الانجليزية بطشقند ، ويتابع دراساته العليا بجامعة موسكو ان ازوده ببعض المعلومات والكتب التي تتعلق باللهجات المغربية الدارجة ؛ فبعثت اليه بعض الكتب من بينها مجلة « اللسان العربي » الراقية التي يصدرها المكتب الوطني لتنسيق التعريب في العالم العربي ..

ونتيجة لتطور وتوسع العلم، فقد ظهر اتجاهان في نشاط المستعربين اللغويين السوفياتيين ، احدهما مرتبط بالوضع القومي واللغوي في العالم العربي ، وبالعلاقات الموجودة بين الفصحى والعامية ، والثاني يساهم في دراسة تاريخ اللغة العربية مع شرح وتحليل للكتب الكلاسيكية. وقد الفت بعد الحرب كثير من القواميس كالقاموس الروسي العربي الذي خصص بالدرجة الاولى للطلبة العرب الذين يتعلمون اللغة الروسية، والقاموس العربي الروسي من ناحية اخرى ، بالاضافة الى عدة قواميس طبعت في مختلف مراكز الدراسات العربية للجمهوريات القومية السوفياتية .

وقد تمت مناقشة خمسة وعشرين رسالة دكتوراه في موضوعات لغوية عربية ، كما ان هناك دراسات لمختلف مظاهر اللغة الدارجة العربية ، مثل الرسائل الجامعية التي قدمها اخفيلدياني لتحليل خصائص حروف العلة في الدارجة ، واللهجات الدارجة في المغرب التي درسها وقدمها الاستاذ ك. كامليييف .

والحق ان علماء الاستشراق في الاتحاد السوفياتي جادون في الكشف عن مخبآت تاريخنا ، ودفائن المخطوطات النادرة التي تزخر بها مكتبات بلدان آسيا الوسطى .

* * *

قامت الادارة الدينية في اليوم الاخير من اقامتنا بجمهورية اوزبكستان بحفلة وداع كبرى حضرها كبار القوم وعليتهم ، وبعض الوزراء واعضاء الادارة الدينية ، كما حضرها رجال الصحافة والسينما الذين التقطوا اشرطة كاملة لهذا الحفل البهيج الذي ينم عن كرم بالغ ، وبذل سخي ، وتقدير كبير لوفد مغربي جاء يحمل اطيب العواطف وانبل المشاعر الى اخوانه المسلمين بآسيا الوسطى ، وبعد الانتهاء من العشاء قام سماحة الشيخ المفتي السيد ضياء الدين باباخانوف بالقاء كلمة مكتوبة باللغة العربية قال فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي اختار صفوة من عباده بلطائف التخصص طولا وامتنانا ، والف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته اخوانا ، ونزع الغل من صدورهم فعاشوا في



السيد الوزير يتقبل هدية مسلمي آسيا الوسطى ، وفي مقدمتها المصحف الكريم
الذى طبعتـه الادارة الدينيـة عـام 1961



معالي الوزير السيد الحاج أحمد بركاش يشكر السيد المفتي ضياء الدين بباخانوف على حفاوته وعنايته بالوفد المغربي ...



المرشد العام للقوات المسلحة الملكية والكاتب العام لوزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية الاستاذ السيد عبد الرحمن الدكالي والسيد محمد بنعبد الله فى الزي التقليدى الاوزبكي مع طالبين تخرجا حديثا من جامعة القرويين .

الدنيا اصدقاء واخوانا ، وصاروا فى الآخرة رفقاء وخلانا ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله واصحابه الذين اتبعوه واقتدوا به قولا وفعلا وعدلا واحسانا .

اما بعد ، فانه لشرف عظيم لنا نحن اعضاء الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاغستان والائمة وخطباء طشقند مع المسلمين جميعا نفتخر ان اتيحت لنا هذه الفرصة السعيدة فى هذه الحفلة التى اقيمت على شرف الوفد الكريم من المملكة المغربية الذين شرفونا تلبية لدعوة الادارة الدينية، وعلى راسها معالي الوزير لشؤون الاسلام والاوقاف السيد احمد بركاش حفظه الله ويرافقه سعادة السفير المغربي بموسكو السيد عبد الهادي الصبيحي والكاتب العام للشؤون الاسلامية ، والمرشد العام للجيش الملكي فضيلة الاستاذ السيد عبد الرحمن الدكالي والعلامة صاحب التآليف العديدة الاستاذ عبد الله كنون الحسني ، والسفير السابق المغربي بموسكو والمناضل لاجل توطيد الروابط بين المملكة المغربية وبين الاتحاد السوفياتي السيد عبد الكبير الفاسي والاستاذ المجد بوزارة شؤون الدين الاسلامي والاوقاف وناشر افكارها بطريق مجلة دعوة الحق السيد محمد بنعبد الله سدد الله خطاهم اذ تجتمع فيها من شتى الدوائر والمنظمات الحكومية الاوزبكية، وانني بصفتي رئيسا لمسلمي الجمهوريات الخمس باسيا الوسطى اقدم تحياتي الحارة وتمنياتي الطيبة باسمي واسم المسلمين ، لهذا الوفد الكريم واشكر لهم الجهود الكبيرة التى بذلوها لاقامة اواصر الصداقة والاخوة الصادقة بين البلدين ، وان حقوق الانسان لنفسه واسرته كثيرة وهو مامور فى نظر الشرع ان يؤدي جميع ما امر الله به ، وان يؤدي حقوقه وحقوق اسرته وتربية نشاته ، اما الظروف الراهنة من دراسته وعمل ومساعدة الاخ لاخيه وصلة الارحام واحداث كثيرة وغيرها من النكبات وانقباض الروح تجعل تبعد الانسان وتذهله عن اذا ما وجب عليه من امور الشرع اما المؤمن المخلص سيان لديه اللذات والعقبات وهو يحتفظ بالمامورات ويجتنب المنهيات ، وانني اشكر شكرا جزيلا لمولاي النسيب الحسيب جلالة الملك الحسن الثاني ملك المملكة المغربية لتفضله واحسانه بايفاد هذا الوفد الذى قرت اعيننا برؤيتهم ضيوفا اعزاء فى بلادنا ، ونحن نعلم يقينا ان جلالته نصره الله اراد ان يوثق الاخوة الاسلامية ويجمع شمل المسلمين فى المغرب والمشرق قام فوق ذلك فى نفس الوقت بواجبات الدين والحياة فى الرحلة الاولى وهو الذى عقد احتفالا حافلا بمرور اربعة عشر قرنا على نزول القرآن الكريم رغبة من جلالته فى دعم الاخوة الدينية وتوطيد اواصر الصداقة وتقوية الروابط بين الشعوب والتضامن فيما بينها ليتاتى بها رفع منار الاسلام فى مشارق الارض ومغاربها ، وان دولتنا العظيمة الاتحاد السوفياتي لديها اهمية كبرى لهذا الشان العظيم .

ايها الوفد الكريم :

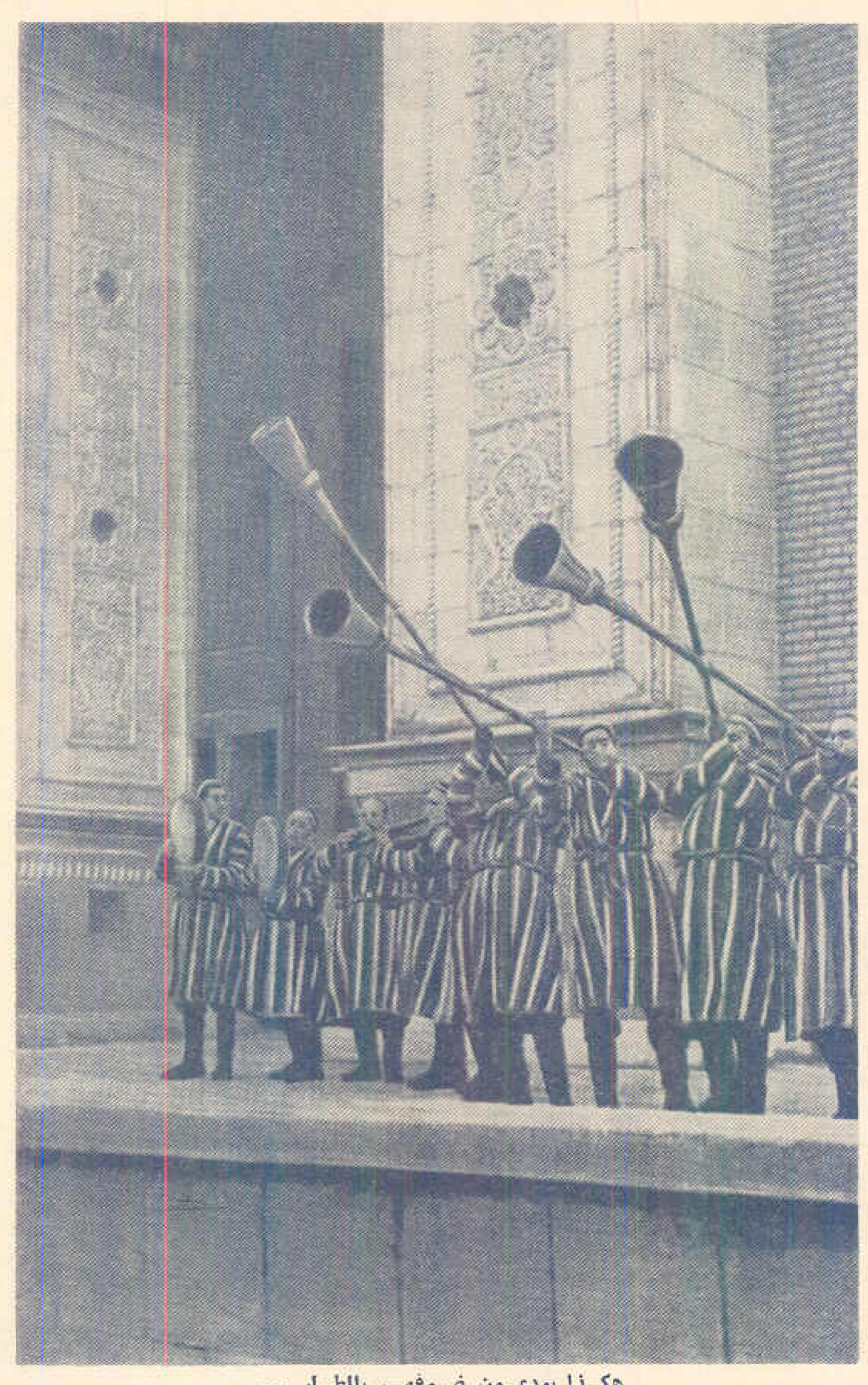
ان مسلمي الاتحاد السوفياتي مع سائر الشعوب العالمية المتحررة يؤيدون الحركة التحريرية ويريدون ان تعيش شعوب العالم كلها بحقوق متساوية وحرية تامة اصدقاء علما منهم بان الدين الاسلامي دين عام شرعه الخالق لربط الشعوب ابيضها واسودها فمحا الله به امتيازات الاجناس والعناصر ، وقضى على العصبيات ، وقرر مبدا المساواة .

ان الحكومة السوفياتية قد اعلنت فى اول شهر من ولادتها ببيانها لكل الشعوب انها ستبني علاقاتها مع الامم على اسس السلام والحرية والمساواة والصداقة والتعاون .

اخوتنا الاعزاء :

انني بالاستفادة من رعايتكم اريد ان اتحدث عن حياة المسلمين فى الاتحاد السوفياتي ، فالمسلمون كسائر الشعوب السوفياتية ، متمتعون بالحرية فى الاعتقاد والاعتناق بدينهم الاسلامي الحنيف كما شاهدتم بام اعينكم فى بعض البلاد التى زرتموها ، ويدل على تمتعهم بالحرية فى الدين ما يوجد فى بلاد آسيا الوسطى وقازاغستان من الجوامع الكبرى ، وما يوجد فى القرى من المساجد واداء الصلاة الخمس والجمعات والعيدين بازدحام من المسلمين واداء فريضة الزكاة والحج وصدقة الفطر وذبح الاضاحي لمن استطاع منهم واقف ايضا فى مدرستنا الدينية .

سادتنا الكرام شرفتمونا بزيارتكم للمدرسة الاسلامية فى مدينة بخارى التى انجبت كثيرا من العلماء والفقهاء للعالم الاسلامي والعربي ، ان مدرستنا هذه وليدة اعوام لا تبلغ ثلاثين سنة ، ولكن نحمد الله تعالى على انها قامت فى طفولتها بخدمة علوم القرآن والسنة النبوية وعلوم العربية وعلوم الدين ، وقد



هكـذا يودعـون ضيوفهـم بالمطـار ...

اصبحت بمناهج دراستها ونظمها ممتازة فى علوم الدين والفنون وفيها طلبة من مختلف بلدان آسيا الوسطى وقازاغستان وبلاد تتاريه ، وباشقيريه، واذربيجان ، وقد تخرج منها عدد كبير من العلماء والمقرئين، ومناهجها شاملة لقسم الدراسات الابتدائية والثانوية ، ومدة الدراسات تسعة اعوام ، وتدرس فيها اللغة العربية وآلاتها من الصرف والنحو والخط والمحاورة العربية والبلاغة والفقه والحديث والتفسير وفوق ذلك تحفيظ القرآن وتجويده باتقان من المقرئين المحليين . والطلبة فى القسم الداخلي خمسون نفرا ، وجميع نفقاتهم وكل ما يحتاجون اليه من مرافق معاشهم على ذمة الادارة الدينية فى عهد اقامتهم بها ، والقسم الخارجي اكثر من عشرين طالبا تحت اشراف مدرسين يأخذون دراساتهم حسب وفاق المدارس العربية . والمدرسون فيهم من تخرج من هذه المدرسة ومنهم من اتم دراساته فى جامع الازهر وجامعة القرويين والجامعة السورية ، وليس الخبر كالعيان كما شاهدتم انتم كما ورد فى الحديث ، نرى من الواجب علينا ان ننقل اليكم شعور المدرسين والطلبة معهم الذين يكنونه الى حضراتكم ايها الوفد الكريم وعلى راسكم معالي الوزير احمد بركاش حفظه الله، ثم اني الفت انظار مشتركي الحفلة الى الحوادث التى تعدت من قبل دويلة اسرائيل الى اراضي اصدقائنا العرب، ومسلمو الاتحاد السوفياتي يرجون من الله ان تكون العاقبة للعرب المحبين للسلام ، وبارك الله فى جهودكم التى بذلتموها لاجل التزاور والتعاون باخوانكم المسلمين بالاتحاد السوفياتي ويوفقنا واياكم لما فيه مرضاته ، وفى الختام اكرر ترحيبي واشكر لكم تشريفكم والسلام عليكم .

وقد اجابه رئيس الوفد المغربي السيد الوزير بكلمة جاء فيها :

« لقد تلقينا استدعاء كريما من حكومة الاتحاد السوفياتي ، ومن الادارة المركزية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاغستان التى يشرف على ادارتها سماحة المفتي الشيخ ضياء الدين باباخانوف ، فامرنا صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني بان نستجيب للدعوة الموجهة الينا من حكومة تربطنا بها روابط الصداقة والاحترام المتبادل ، وعينني صاحب الجلالة المؤيد بالله رئيسا على وفد يضم المع الشخصيات فى ميدان الفكر وشؤون الثقافة ، واننا امام ما شاهدناه من تطور فى مجال التعمير والتصنيع والحركة الاقتصادية والفلاحية ، وما شعرنا به حين اتصالنا باخواننا المسلمين وقيامهم بشعائرهم الدينية ، لا يسعنا الا ان نشكر حكومة الاتحاد السوفياتي، وننوه بما تقوم به الادارة الدينية من تعليم وارشاد ، واصلاح المساجد وتعميرها ، والعناية بالائمة والموظفين الدينيين ، بفضل المساعي والجهود التى يبذلها سماحة المفتي المحترم ، والذى يرجع له الفضل فى هذه الدعوة الكريمة .

اننا نحيي هذه النهضة التى رايناها فى الشعب الاوزبكي والتى بفضلها سيرتفع مستواه فى جميع الميادين ، واقوى ظاهرة فى ذلك هي ما شاهدناه فى طشقند عاصمة الجمهورية الاوزبكية من مجهودات جبارة فى بعثها من جديد بعد النكبة التى اصابتها فى سنة 1966 ، وما شاهدناه فى تنفيذ مشروع « سهب الجوع » حيث اصبحت الصحراء القاحلة ارضا خصبة بفضل عملية الري والتشييد والتشجير ، والتعمير ، كما اعجبنا بمظاهر التقدم التى شاهدناها فى الميدان الثقافي ، والتى تتجلى فى الاستعداد العظيم لاحياء ذكرى مرور 525 سنة على ميلاد العالم الكبير علي شير النوائي ، ومرور 2500 سنة على تاسيس مدينة سمرقند .

وقبل ان نغادر جمهورية اوزبكستان ، نعرب عن يقيننا فى مستقبل زاهر لهذه الجمهورية الصديقة ، ولا شك عندنا ان هذه الصداقة التى توجها صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله فى زيارته للاتحاد السوفياتي فى خريف 1966 ستكون لها نتائجها المحمودة .

وفى الختام اتوجه بالشكر الى جميع السلطات التى لقينا منها كل عناية وحسن استقبال والسلام عليكم ورحمة الله .

واثر ذلك تفضل سماحة الشيخ السيد ضياء الدين بباخانوف بتقديم المصحف الكريم الذى طبعته الادارة الدينية بطشقند عام 1960 الى اعضاء الوفد والبسهم اللباس التقليدي لجمهورية اوزبكستان ، واخذت صور تذكارية لاعضاء الوفد مع الشخصيات الرسمية والعلمية التى حضرت الحفل التكريمي ..

التوجه الى دوشمبي عاصمة تاجيكستان .

— يتبع —

الربـاط ــ محمد بنعبد الله



ان الانسان يحس بجاذبية سحرية نحو الانغام الموسيقية التى تعبر عن انفعالاته وعواطفه والتى تترجم ما يحتدم فى شعوره الباطني ازاء الحياة ومظاهرها وازاء الطبيعة وتلون احداثها وتنوع اشكالها وتجدد صورها وتسدد الوانها الباعثة على الحزن والفرح والياس والامل والخضوع والمقاومة والعزة والذلة والحب والبغض وغير ذلك من الانفعالات والغرائز .

ان هذه الحاسة الموسيقية نمت مع نمو الانسان وارتبطت بتكوينه وتآلفت مع حاسته الفنية التى كانت ترفض التعبير العقلي المجرد وتركن الى التعبير العاطفي المصور للخلجات الباطنية التواقة الى الافصاح عن كل ما يحس به الفرد عن طريق الشعور المشترك الذى يعتبر اساسا فى التكوين البشري وفى تحقيق الانسانية الشاعرة بوجودها والمنفعلة مع الاحداث .

وحين احس الانسان بأن الموسيقى لغة معبرة عن خلجاته الباطنية اطمأن اليها واصبح يلون الحانها ويغير طرق تعبيرها ويضفي عليها من نفسه القوة والعنف حينا واللين والاشفاق حينا آخر واستطاع ان يجعل من الآلات الموسيقية الستة معبرة عن غضبه ورضاه وعن كراهيته وحبه فبينما تسمع دقات الطبول فى صفوف الحرب تنذر الاعداء وتقوي معنوية الجيش اذا بك تسمع مرة اخرى الناي يرسل آهاته وينفث احزانه كأنه عاشق يائس او جريح مكلوم .

ومن الطبيعي ان المرحلة التعبيرية عن طريق الاصوات المجردة عن المعاني لم يكتف بها الانسان وحدها حين استطاع ان يستعمل الكلمة فى التعبير عن احساساته ، ولما كان شاعرا بأن التعبير الموسيقي كان قويا فى ايجاد التجاوب بينه وبين غيره اضافه الى اللغة ومزجها به وصار تعبيره آنذاك يكتسب الجمال والقوة من النغمات المسموعة ومن الصور الجذابة التى يحور بها الكلمة من مدلولاتها المجردة الى مدلولات اخرى يتصرف فيها الخيال وتنصهر فيها العاطفة وتذوب فيها النفس لتصبح تعبيرا جميلا لا امت فيه ولا نشوز .

ولقد كانت هذه التعبيرات فى اول امرها بسيطة سواء فى مدلولها اللفظي او فى نغماتها الموسيقية ولكن بعد ممارسة الانسان لغته اصبح يحس بأن هناك انغاما خاصة تنسجم مع احزانه وانغاما اخرى لاتنسجم الا مع سروره واستبشاره ومن ثم تنوعت الحانه وتعددت تعبيراته، وكان هذا التنوع اساسا اوليا لوضع النغمات الشعرية .

ومن المعلوم ان الشعر العربي عرف فى تاريخ الشعر العالمي قديمه وحديثه بأنه اكثر النغمات عددا واقواها تكيفا مع الانفعالات الصادرة عن الانسان فى كل المناسبات . يقول الدكتور البهبيتي عن الشعر العربي (1) : « واذا كانت اوزان الشعر قوالب الانفعالات التى تجيش بنفس الشاعر تتناسب مع حالاتها وتجانس صورتها فان هذه الانفعالات كثيرة جدا متنوعة اشد التنوع مركبة اعقد التركيب فاننا لا نعرف للغة من اللغات عددا من اوزان الشعر يقارب

(1) تاريخ الشعر العربي للاستاذ الدكتور نجيب محمد البهبيتي

هذا العدد الضخم من الاوزان وما يتفرع اليها وما ينحدر منهم جزءا او تشطيرا وتاليفا » .

ومن هنا يظهر ان تعدد الاوزان لم يكن في الشعر العربي عبثا بل كان ذلك راجعا الى تعدد الانفعالات واختلاف الدوافع التي تدفع الانسان الى التعبير والتصوير ، ولقد تنبه نقاد الادب الى ذلك وكادوا يستقرئون الاوجه العاطفية التي كانت تبعث على اختيار وزن دون غيره وايثار لحن على آخر. وفي الجزء الاول من كتاب المرشد الى فهم اشعار العرب للدكتور عبد الله الطيب المجذوب دراسة واقية لهذه الانغام وامثلة حية تجعل القارىء العربي يعتز بالقوة الفنية التي كانت متمكنة من نفوس شعرائنا الاقدمين. تلك القوة التي تدل على رقة احساسهم ودقة عواطفهم ورفاهة شعورهم الفني حتى اصبحت الحاسة الفنية متصلة بطبعهم وصاروا يختارون لشعرهم اجمل الالحان واحسن الالفاظ التامة مع الغايات التي يقصدونها .

وكان الشعراء العرب في الجاهلية وصدر الاسلام يحرصون اشد الحرص على المحافظة على نسق القصيدة العربية وعلى طبيعة اوزانها وعلى المحافظة على الاسس الموسيقية فيها وينتقون من الالفاظ ما يكون مؤثرا في صورته ومبناه بحيث لم يكونوا يعتمدون على الصور والمعاني فقط بل كانوا حريصين على ان يكون القالب ايضا جذابا مؤثرا ، ولعل هذا يوافق المنحى الذي كان يسير عليه الادب العربي والذي عبر عنه الدكتور طه حسين في مناسبة تتعلق بالاعراب والافصاح فقال (1) : « ان ادبنا العربي لا يهمل الاسماع اهمالا قليلا او كثيرا وانما يعتني بها اشد العناية فهو ادب منطوق مسموع قبل ان يكون ادبا مكتوبا مقروءا وهو من اجل هذا حريص على ان يلذ اللسان حين ينطق به ويلذ الاذن حين تسمع له ثم يلذ بعد ذلك النفوس والافئدة حين تصغي اليه »

وظل الشعر العربي على اوزانه ونغماته يتناقله الرواة ويحفظه كثير من الادباء فيعينهم على تقليده وتاثره وتتبع اشكاله واوزانه وينتقلون من طور التقليد الى طور الابداع المعنوي والتصويري فيسجلهم الادب في سجله الخالد الذي لا يفنى .

وكان العرب يعتزون بفنهم ويعتبرون الشعر ديوانهم وميزتهم التي يمتازون بها عن باقي الاجناس وكانهم بذلك كانوا يعلمون ان لهم بالشعر معرفة تتجاوز القدر الذي يوجد عند غيرهم من الامم .

وكان العرب في الجاهلية يتذوقون الشعر ويقدرون الشعراء لما لهم من المكانة الاجتماعية والسياسية لذلك كانت تقام الافراح والحفلات المتواصلة عند كل قبيلة اذا ما نبغ فيها شاعر لانهم يعلنون انهم وجدوا لسانا مدافعا يحمي القبيلة من اعدائها ويرفع راسها عاليا في ميدان المفاخرات والمنافرات .

وكان اعتزازهم هذا بالشعر يدعوهم الى تعليمه بطرقهم الخاصة اهمها طريقة التلقين الفني الذي كان يعتمد على وضع شخص في بيئة شاعرية يستانس باشعارها فيرويها ويحفظها ويدرب ملكته على تذوقها ثم على محاكاتها الى ان تستد قناته ويمتحنه مربوه ومعلمه وءانذاك تعطى له الاجازة الفنية . ومما يدل على ان العرب كانوا يعلمون الشعر ويعتنون بتلقينه قول الشاعر الجاهلي :

اعلمه الرماية كل يوم
فلما استد ساعده رماني

وكم علمته نظم القوافي
فلما قال قافية هجاني

واذا كان العرب في الجاهلية يحتاجون الى تعلم الشعر عن طريق التلقين الادبي واستغلال السليقة العربية في المحاكاة والتقليد فانهم بطبيعة الحال بعد انتشار الاسلام وتعدد الفتوحات الاسلامية واتصالهم بغيرهم من العجم الذين اسلموا واصبحت اللغة العربية لغتهم كانوا احوج الى هذا التلقين والتعليم ولكنهم وجدوا انفسهم مضطرين الى تحديد هذه الاوزان والتعريف بها والتحدث عما يلائمها من القوافي والمعاني والصور .

ولذلك نجد الخليل بن احمد الفراهيدي (100 هـ — 170 هـ) قد تنبه الى ضرورة حصر هذه الاوزان وبذلك يصير الشعر علما يلقن كما تلقن العلوم ويدرب عليه الفرد حتى يستطيع السير في شعره على النغمات الاصلية التي ورثها المجتمع الاسلامي عن المجتمع العربي والجاهلي .

وكان الخليل بن احمد ذا عقل رياضي يحسب لكل شيء حسابه فاستقرا الشعر الجاهلي واطلع على الشعر الاموي وربط بين ذلك وبين الانغام والايقاعات

(1) الوان لطه حسين صفحة 14

التي كان قد تعلمها عن طريق الثقافة اليونانية (1) واوجد تفاعيل حدد بها المقاطع الصوتية فوازن بين حركة اللغة وسكناتها وبين حركات النغم وسكناته واستطاع بذلك ان يضع في يد القارىء العربي علما سماه بعلم العروض .

ولقد اختلف الادباء في تسمية هذا العلم بالعروض . ولعل سبب التسمية راجع الى كون هذا العلم ليس بالسهل بل يحتاج الى امعان النظر والى كثرة التدبر والى محاولة تطبيق قواعده ويكون آنذاك مشتقا من العروض بمعنى الطريق الصعبة وقد يكون السبب راجعا الى معارضة هذه التفاعيل بما يقابلها في البيت الشعري ويكون الاشتقاق في هذه الحالة من معارضة الشيء بالشيء اي مقابلته به .

وقد اختلف علماء العروض ايضا في تحديد هذا العلم وفي موضوعه حيث ذكروا انه علم باصول يعرف بها صحيح اوزان الشعر وفاسدها وما يعتريها من زحافات وعلل ولكن اكثرهم خص موضوعه بالاوزان العربية المخصوصة التي حدها الخليل بن احمد بخمسة عشر بحرا والتي تدارك عليه فيها الاخفش ببحر الخبب . في حين ان بعض النقاد ذكروا ان كل شعر تتحد ايقاعاته وتتناسب اجزاؤه ويحافظ على نغمة من النغمات الموسيقية يجوز ان تدخله في اطار علم العروض ولو لم يكن من الاوزان المعهودة لدى العرب وقد كان الزمخشري من انصار هذا الراي لانه ترك الحرية للادباء في تطوير الالحان الشعرية .

وراي الزمخشري هذا في الحقيقة مساعدة فنية لا تسد باب الاختراع الفني في وجه الشعراء والادباء ولكنها مساعدة لا تصل الى حد الابتذال الذي بلغ اليه الشعر عند طبقة من الادباء تحررت عن الاوزان مطلقا فضاعت تلك النغمة الموسيقية التي اتضح لها منذ البداية انها مرتبطة بالتعبير الشعري الجميل وانها متصلة بالجانب الموسيقي المتناسق الذي لا يثور ايضا على طبيعة التوازن الفني فيصبح ضجيجا وثورة وجلبة .

ومن الواضح ان دراسة علم العروض لا تخلق في الشخص البعيد عن الاطار الادبي شاعرية وانما تعين ذوي المواهب وتدلهم على القوالب المختلفة التي كان العرب يصوغون عليها شعرهم . فالمادة الخام في الحقيقة ترجع الى الشعر نفسه . فالذي لا يعيش مع الشعر ولا يدرس النصوص العربية دراسة نقدية تذوقية لا يستفيد منها هذا العلم مطلقا .

ان دراسة علم العروض دون النظر الى الجانب الادبي تكون دراسة جافة لا تؤتي اكلها فعلى من يرغب في معرفة هذا العلم ان يهيىء نفسه له بالاطلاع على احسن ما طبع من دواوين شعرية رائعة تعبر عن النفس وتصور المجتمعات وترفع الانسان من درجته العادية لتجعله شاعرا بمسؤوليته مصورا للحياة تصويرا جذابا ينفعنا ويحدث فينا لذة ومتعة .

فالشعر لا يصير ملكة فنية بدراسة قواعده الاساسية فقط وانما يصير ملكة بالانصهار معه وبالامتزاج به في شتى صوره وبحفظ قصائد مختلفة تترك اثرها في نفس الشاعر وترسم نغماتها في طبعه. وقد نبه ابن خلدون في مقدمته عن هذه الظاهرة حين قال (2) : « اعلم ان لعمل الشعر واحكام صناعته شروطا اولها الحفظ من جنسه اي من جنس شعر العرب حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها » .

ولا شك ان الشاعر حينما تصبح الآلة مطواعا في يده لم يبق له آنذاك الا ان يستخدمها في تصوير مشاعره وتقديم خيالاته واحساساته ويمكنه آنذاك ان يستفيد مما انتجته القرائح البشرية في الآداب العالمية فيضيف الى تجاربه تجارب غيره من الادباء ويضفي على صورهم صورة مستمدة من شخصيته التي بها سياخذ طابعه الفني المؤثر .

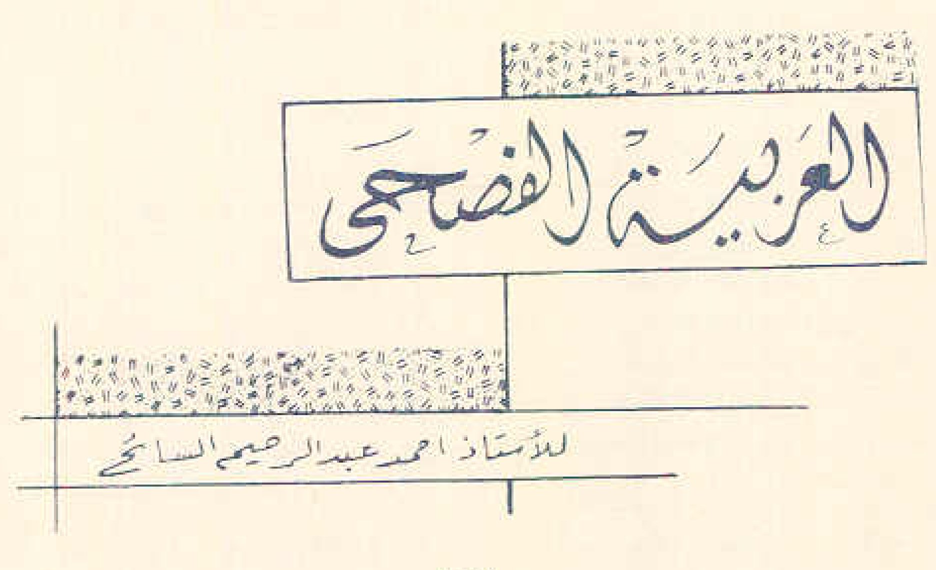
وبهذه الوسيلة نستطيع احياء الشعر العربي وحفظه من الضياع في هذا العصر الذي غزت فيه بعض الفنون الاخرى ميدان الادب فاصبحت القصة والمسرحية والمقالة تلعب دورا عظيما في الاستئثار بميول القراء زيادة على الغزو العلمي الذي كاد يبعد الناس عن الادب نفسه .

فاس ــ محمد بن عبد العزيز الدباغ

---

(1) رجع الدكتور محمد مندور في بحث له عن الشعر العربي ان الخليل بن احمد كان ملما بالموسيقى اليونانية بفرعيها : علم الايقاع Rythmique وعلم الانسجام Les harmoniques وانه لم يكن له المام بالعروض اليوناني انظر « في الميزان الجديد » صفحة 234 .

(2) المقدمة صفحة 422 .



(2)

اللغة العربية : من اعرق اللغات العالمية منبتا ، واعزها جانبا ، واقواها جلادة ، وابلغها عبارة ، واغزرها مادة ، وادقها تصويرا لما يقع تحت الحس ، وتعبيرا عما يجول فى النفس ، وذلك لمرونتها على الاشتقاق ، وقبولها للتهذيب ، وسعة صدرها للتعريب.

نزل القرآن الكريم بلسانها فجعلها اكثر رسوخا واشد بنيانا واقوى استقرار ، وبفضل القرآن صارت ابعد اللغات مدى واوسعها افقا واقدرها على النهوض بتبعاتها الحضارية عبر التطور الدائم الذي تعيشه الانسانية .

واستطاعت فى ظل عالمية الاسلام ، ان تتسع لتحيط بابعد انطلاقات الفكر ، وترتفع حتى تصل ارقى اختلاجات النفس .

فليس هناك معنى من المعاني ولا فكر من الافكار ولا عاطفة من العواطف ولا نظرية من النظريات ، تعجز اللغة العربية عن تصويره بالاحرف والكلمات تصويرا صحيحا حي المقاطع واضح السمات بارز القسمات .

هذه اللغة فتحت صدرها لتراث الانسانية الخالد ، ومعارف البشرية الرائعة كما اتسعت لمقومات الامة الاسلامية التي شرقت بالحضارة وغربت .

برزت الى الوجود قوية تتمتع بقوة لغة بالغة اشدها ، فما عرف التاريخ لها طفولة وما بدت الا لتكون لسان الحضارة الاسلامية فى ظلال القرآن .

ولقد اشترك مع اللغة العربية لغتان اخريتان بكونهما لغتين عموميتين لافكار دينية وعقائدية ومذاهب سياسية انتشرت بين شعوب مختلفة . وهاتان اللغتان هما اللغة اليونانية واللغة اللاتينية .

فقد كانت اللغة اللاتينية تستعمل من « كمبانيا » فى ايطاليا الجنوبية الى الجزر البريطانية ومن نهر الراين الى جبل الاطلس .

واستعملت اليونانية من اقاصي صقلية الى شاطىء دجلة ومن البحر الاسود الى تخوم الحبشة . لكن ما اضيق ذلك الانتشار اذا ما قوبل بانتشار العربية التي امتدت الى اسبانيا وافريقيا حتى خط الاستواء وجنوب آسيا وشمالها الى ما وراء بلاد التتار فقد استولت لغة العرب الكتابية على جميع انحاء الشرق الاسلامي .

لقد امست اليونانية واللاتينية فى صف اللغات الميتة منذ هبطت مدنيتهما فما الذي حفظ اللغة العربية حية ؟

قالت الكاتبة « مى » ان الذي كان باعثا على قيام الحضارة العربية الاسلامية ، هو الذي ما زال حافظها الى اليوم ، وهو القرآن لقد كان الاسلام يرمى

الى التوحيد سواء في الدين والسياسة واللغة ، واللغة العربية هي لغة الاسلام (8) .

لذا ستظل اللغة العربية حية ما دام الاسلام حيا . فمن ذا الذي لا يعرف للقرآن فضله في بقاء العربية حية ؟ ومن ذا الذي يجهل ان اللغة العربية باقية ما بقي الاسلام ؟ من ذا الذي لا يعترف بما ادته هذه اللغة من خدمة للانسانية وبانها كانت الصلة الوحيدة بين حضارات الماضي وحضارات اليوم .

لقد اندثرت جميع اخواتها السامية من ارامية وكنعانية وكلدانية وسريانية وأشورية وعبرانية قديمة وغيرها ، في حين بقيت هي على رغم ما مر بها من عصور الركود وما فتئت تفيض قوة وحيوية .

انها الرابطة النفسية التي تربط بين أهل البلاد والصيغة الجميلة التي تودعها مكنونات العقول والقلوب جيلا بعد جيل .

هذه اللغة وسعت مبادىء ومثلا عليا، لم تضق بها ولم تتكل عن احتمال اعبائها ، بل في ظل حضارة الاسلام مرنت وامتصت وتفاعلت ونمت نمالها الطبيعي المتطور من داخلها ، وهضمت خلاياها القوية كل ما قدم لها من خارج محيطها حتى تمطلقت واتسعت افاقها وانتشرت ظلالها وطوت في دورانها العظيم كل ما يقف في طريق انبساطها وتفوقها ، وكل ما يعرقل انطلاقها ويثقل اجنحتها عن التحليق والارتفاع ، واستطاعت بقوتها الذاتية ان تقشع اللهجات الغامضة وتخرج من كل جولة جالتها — في صراع — بغذاء مفيد ودماء جديدة وقدرة فائقة وطاقة خلاقة .

هذه اللغة دعمها القرآن اذ اخذت تفرض سلطانها في بيئات جديدة في أقطار الارض ولم تمض حقب طويلة حتى غدت لغة للشعوب من أواسط آسيا حتى جبال البرانس في شمال اسبانيا ، ولم تستطع لغة من لغات هذه البيئات ان تثبت لها أو تحول بينها وبين سيادتها .

وقد يكون من اسباب ذلك انها لغة القرآن ، وقد يكون من اسبابه قوتها وجمالها الفني بحيث لم تستطع ان تقف لها لغة من لغات هذه البيئات ، ومهما تكن الاسباب فانها اصبحت لغة قوية لامم وشعوب قد تختلف وتتباين في اجناسها واصل نشأتها ، ولكنها تأتلف وتتحد في عروبتها وتنضوي تحت لوائها وتسب من قرآنها وشعرها وبيانها ، ولا تلبث ان تعيش لها وبها وتحيا فيها حياتها المعنوية الادبية والعقلية .

والعربية ما تزال لغة الشرق الاسلامي من الخليج الى المحيط الاطلسي تتوهج جذوتها وترسل اشعتها وشررها الى كل مكان حتى في أمريكا تناول منها المهاجرون الى تلك الديار النائية اقباسا لا تزال تضيء في المجلات والاثار الادبية .

وواضح انها اجتازت امادا واحقابا متطاولة من الزمن وقد المت بها خطوب كثيرة ، لكنها وقفت في طريقها كالصخرة في مجرى السيل يلم بها ثم يزايلها ، وليس معنى ذلك انها ظلت جامدة لا تتطور بل لقد تطورت اطوارا كثيرة بحكم ما التقت به من ثقافات الفرس واليونان والهند ومصر واسبانيا اللاتينية . فوسعتها جميعا وتمثلتها تمثلا منقطع النظير وكأنما اصبحت نهرا كبيرا تتدافع اليه جداول شتى من المعرفة والفكر ، وهو لا ينحرف ولا يغير وجهته بل يجري غزيرا زاخرا متدفقا مقتحما كل ما يصادفه من حواجز وسدود بين الامم والشعوب ولقد وحدت العربية بين هذه الامم والشعوب ، فاذا هي عالم عربي واحد مهما تدانت او تباعدت ومهما شرقت او غربت(9)

لغة كريمة انضجها الزمان المتطاول واخرجتها الفطرة السليمة والاحساس المرهف والادراك النافذ.

لغة تكاد تصور الفاظها مشاهد الطبيعة وتمثل كلماتها خطرات النفوس وتتجلى معانيها في اجراس الالفاظ وتتمثل في نبرات الحروف كأنما كلماتهانبضات القلوب ومشاعل الحياة . فالمعاني المحسة والمعقولة مبنية في الفاظ تدرك الفروق الدقيقة بين الاشياء المتشابهة فتضع للشبيه لفظا غير ما وضعته لشبيهه ادراكا للفرق الدقيق بينهما، فاذا وضعت بعض اللغات للضرب مثلا كلمة واحدة وضعت العربية كلمات تختلف باختلاف آلة الضرب وموضعه من الجسم ، واذا دلت اللغات على صفات الوجه الانساني مثلا بكلمات مركبة لكل صفة، دلت العربية على كل حلية في الانسان وكل صفة في عينيه وحاجبه وانفه وفمه واسنانه وغيرها باسماء خاصة وليس هذا مقام التمثيل والتفصيل .

---

8) المقتطف . المجلد 52 ص 399 مقال الكاتبة « مي » .
9) العربي . العدد 58 مقال الدكتور شوقي ضيف « الكويت » .

المفردات يتجلى في التركيب مدهشا ، فكل كلمة لها في الجملة مكان يحس بها المتكلم وان شئت فقل تحس بها الكلمة نفسها ، فتعطي او تأخذ صوتا مكافئا لهذه المكانة فالكلمة الاصيلة لها اقوى الاصوات وهو الضم والاخريات لها الفتح والجر .

وما ارى هذا الا ضربا من الحياة في الالفاظ والتركيب يبين عن ادق الاحساس والطفه ، واذا اشتملت اللغات على كلمات هي مادتها ، ففي اللغة العربية مــــادة وقوالب يستعملها صاحبها حين الحاجة ، فيها مادة ووزن ، فخذ المادة او اخلقها او استعرها من لغــة أخرى ، ثم صبها في قالب من قوالب الاسماء والافعال، وصورها بالقوالب أو الاوزان فمن سمع فاعلا أو مفعولا ادرك ان هذا الوزن في حركاته وسكناته له معنى يلازمه في المواد كلها ، وبهذا امتازت العربيــــة واستبانـــت خصائصها حتى نفت عن نفسها كل كلمة اجنبية ما لم تخضع لاوزانها وقوانينها وللاسماء أوزان وللافعال أوزان ، فما لا تزنه هذه الاوزان فهو اجنبي وبهذا بقيت على الدهر المتطاول نقية .

ولقد اختبرها التاريخ الطويل فلم تعجز ولم تعي ولم تضق بكل ما ادركه الانسان من علم وثقة مـــن صناعة ، بل وسعت حضارة القرون المتطاولة والامم المختلفة غير كارهة ولا مكرهة .

وقد اراد الله لها ان تكون لغة كتابه وترجمان وحيه وبلاغ رسالته فاشتملت على العالم الحســـي والعقلي مصورا في كلمات وايات ، وجوزيت على هذا خلودا ما خلد للانسان عقل وقلب ، وما استقام لـــه ادراك واحساس .

وتقلب الزمن وتوالت المحن وثارت الفتن والعربية ثابتة ناضرة ، ومحت لغات وخلقت لغات وبدلت لغات وحرفت لغات ، والعربية هي العربية لم تمح ولم تتغير ولم تبدل .

ما آية الخلود بعد هذا ؟

ولم تبق العربية لغة العرب وحدهم بل تثقفتهـــا الامم الاخرى واولتها من العناية والحفاوة اكثر ممـــا اولت لغاتها احيانا ، فصارت لغة العلـــوم والاداب للعرب وغير العرب حقبا طويلة ما بين اقصى المغرب وعلم في كثير من الامم الاسلامية غير العربية .

وما تزال لغات هذه الامم مترعة بالفاظ العربية، وما تزال تستمد من العربية الحروف والكلمات .

وقد حوت العربية على مر العصور ادبا لا تحويه لغة ، ادبا مواطنة ما بين الصين الى بحر الظلمات كما يقول العلماء ـــ وزمانه اربعة عشر قرنا من الزمان .

ولا نعرف في اداب العالم قديمها وحديثها ادبـــا اتسعت به المواطن هذا الاتساع وامتدت به الاعصار هذا الامتداد .

فالعربية باهلها وموطنها وخصائصها وآدابهـــا وتاريخها . العربية بقرآنها خالدة خلود الابد باقية على الخطوب والعصور لغة دين وعلم وأدب وحضارة (10)

وليس في اللغات القديمة لغة بلغت ما بلغته اللغة العربية من القوة والابد ، ومن السعة والانتشار ، ومن القدرة على السيطرة على العالم القديم في أكثر أجزائه .

وقد كانت قبل العربية لغات قديمة اخـــرى انتشرت في الشرق وسيطرت على سياسته وادارتـــه وثقافته ولكنها لم تبلغ في اي وقت من الاوقات اعماق الشعوب الشرقية ولم تستطع أن تغير من نفـــوس الشرقيين ولا ان تغير من لغاتهم شيئا ، وانما فرضت نفسها هذا الفرض السياسي المعروف ، فكانت لغة الحكام وكانت لغة الادارة وكانت لغة الثقافة وظلـــت الشعوب مع ذلك تتكلم لغاتها الخاصة وتتـــوارث ادابها الخاصة ، لم تغير لغتها .

فالامة اليونانية فرضت لغتها على الشرق عشرة قرون منذ عهد الاسكندر الى الفتوح الاسلامية وكان الحكام في اول امرهم من اليونانيين ، وكانـــت ادارة البلاد الشرقية ، ولاسيما مصر وما اليها ادارة يونانية، وكانت اللغة الادارية والسياسية هي اللغة اليونانية، وكانت لغة الثقافة الرسمية في المدارس وفي المعاهد وفي الاديرة بعد انتشار المسيحية هي اللغة اليونانية ، ولكن الشعوب التي كانت تسكن هذه البلاد ظلـــت محتفظة بلغاتها الخاصة فكان المصريون محتفظيـــن بلغتهم القبطية ، وكان السوريون واهل الجزيـــرة والعراق محتفظين بلغاتهم السامية والارامية ومـــا

---

10) كتاب « مهد العرب » للدكتور عبد الوهاب عزام ص 19 القاهرة .

يتفرع منها ولم تستطع هذه اللغة اليونانية أن تؤثر في هذه اللغات .

وجاء الرومان بعد اليونان ولغتهم اللاتينية لم تستطع ان تنتشر في الشرق بحال من الاحوال ، كان الحكام من الرومانيين ولغة الادارة والسياسة والثقافة هي اللغة اللاتينية وظلت الشعوب معذلك محافظة على لغاتها الموروثة وعلى تقاليدها كلها الى ان جاءت اللغة العربية ودون ان يتخذ السلطان العربي اي قوة لفرض هذه اللغةودون انتتخذ الحكومات العربية علىاختلافها أي اجراء لحمل الشعوب على ان تتكلم اللغة العربية (11) .

تنظر فاذا هذه اللغة تنتشر شيئا فشيئا في شرق الدولة الاسلامية وفي غربها ، في بلاد ايران وفي جزء من الهند وفي المغرب والشام وفي مصر وشمال افريقيا وفي الاندلس .

انتشرت العربية وحدها بقوتها الخاصة وبقوة الاسلام وقوة القرآن وبهذا استطاعت العربية أن تكون لغة عالمية لاول مرة في التاريخ الانساني .

ولاول مرة نجد في التاريخ لغة تنتشر بهذه القوة فقد انتشرت اليونانية في جميع البلاد الشرقية ولكنها لم تصل الى اعماق الشعوب ولم تغير لغة من اللغات التي كانت قائمة في تلك الايام في بلاد الشرق ولكن اللغة العربية غلبت كل هذه اللغات غلبتها وتعمقت شعوبها .

والرومانيون استطاعوا أن ينشروا اللاتينية في المغرب ، في المغرب الاوربي ، وفي فرنسا وفي بريطانيا وفي اسبانيا وحاولوا ان يجعلوها لغة منتشرة في شمال افريقيا فلم يفلحوا (12) .

ولكن العربية استطاعت ان تقهر اليونانية في الشرق وان تقهر اللغات الشعبية التي كانت منتشرة في هذه البلاد وأن تقهر اللغة الفارسية نفسها ، ثم أن تقهر اللاتينية في المغرب العربي وفي الاندلس ، وأن تصبح هي اللغة العالمية التي يتكلمها الناس في الشرق والغرب جميعا .

هذه اللغة منذ تم لها الانتشار لم تكن لغة حديث فحسب ولكنها كانت لغة حديث ولغة سياسة ولغة ادارة ولغة الدين، وكانت في الوقت نفسه لغة التفكير والانتاج الادبي والعصري ، وفي أقل من قرنين كانت هذه اللغة قد استطاعت ان تسيغ كل الثقافات التي كانت معروفة في العصور القديمة .

اساغت ثقافة اليونان على سعتها وعمقها وصعوبتها واساغت فلسفتهم وعلومهم وطبهم وفنونهم. واساغت ثقافة الفرس وثقافة الهند واساغت بعد ذلك الثقافات التي كانت متوارثة بين الامم السامية .

فالعربية : اداة الفكر الحي نقل الناس اليها كتب السماء المنزلة مثل التوراة والانجيل والزبور وسائر كتب الانبياء من السريانية والعبرانية .

ونقلوا اليها ما جاء به الحكماء ، وسائر ذلك من كتب الفلسفة والطب والنجوموالهندسة والحساب(13)

ونخلص من هذا الى ان اللغة العربية لغة واسعة تتفاعل مع حركة الحياة وتساير الزمان في تطوره ولذلك اسباب منها التاريخي ومنها الذاتي ، ومنها الديني .

اللغة العربية لغة واسعة عميقة ، ذات اصالة وعراقة ، سايرت الزمن ولم تتخلف يوما عن منطقه ، وتفاعلت وتعملقت وشرقت وغربت، ولهذا كله اسباب: منها التاريخي ومنها الذاتي ومنها الديني .

فالسبب التاريخي : يرجع الى كون اللغة العربية آخر لغة انفصلت عن اللغة السامية « الام » الامر الذي يمكنها من ان تاخذ ما في السامية من مزايا ، وتتجنب الى حد بعيد كثيرا من مزالق ، مما لم يحصل للسريانية والعبرية ، اللتين سبقتا اللغة العربية في الانفصال عن السامية الام .

ومما هو معروف مما تقدم ان اللغة العربية تنتمي الى طائفة اللغات السامية ، فهي على حد قول الكاتبة: (مي) ان اللغة العربية ثالث اصول جوهرية ثلاثة ، الآرامية والكنعانية والعربية ، فالارامية : تشمل الكلدانية والسريانية والآشورية ، وهي لغة عامية يقال

(11) مجلة (المغرب) العدد الخامس ص 62 المغرب.

(12) المصدر السابق ص 63 .

(13) كتاب الزينة لابي حاتم الرازي ج 1 ص 61 دار الكتاب العربي بمصر .

ان السيد المسيح كان يخاطب بها تلاميذه ، وتتالف الكنعانية من العبرية والفينيقية ، فالعبرية لغة اليهود المقدسة ومع انها تختلف اليوم كثيرا عن العبرانية الاصيلة فانها ما زالت مستعملة عندهم في الطقوس الدينية .

اما العربية : فتشمل العربية الفصحى ولهجات مختلفة تكلمتها القبائل القاطنة في جنوب بلاد العرب وبلاد الحبشة وغيرها ، وهي اللغة التي سعدت بنصيب البقاء ، على حين ان اخواتها وبنات عمها دخلن في عالم النسيان ، منذ امد بعيد وبعض خصائصها اللغوية « كجمع التكسير مثلا » يميزها عن العبرية والارامية فيجعلها أوسع منهما معنى واتم نظاما (14) .

اما السبب الذاتي : فهو نابع من صميم العربية، من طبيعتها صوتا وحرفا او حركة وحرفا ، اذ ان لهذه الطبيعة مجالا أرحب ، وشمولا اوسع ارتضته أو ارتضاه لها الناطقون بها ، اعني به المجاز والمراد ف والاشتقاق .

فالحرف العربي حرف مرن مطواع يمكن تركيبه على صور وهيئات تخرج منها الالفاظ والكلمات وقد نمت هذه المرونة والطواعية منذ نشأة اللغة .

والشكل وهو حرف صغير يتغير موضعة من اللفظ فيحدث تلفظا جديدا يحمل معاني جديدة .

اما المجاز والاشتقاق والمرادف : فانها منابع رئيسية لرونة اللغة العربية ، كما انها ثروة رائعة من الجمال التي تتحلى به .

فالمجاز وهو استخدام اللفظ لغير ما وضع له بسبب علاقة ذات قرينة تمنع من ان يفهم اللفظ بمعناه الاصلي .

هذا المجاز قد فسح للعربية ميدانا لايحد بسهولة فلو قلت أن محمدا يلقي الدرر ادرك السامع مرادك وهو ان محمدا يتكلم كلاما فصيحا بليغا جميلا .

ولو قلت : لقد جادت السماء ولبست الارض حلة قشيبة ، ادرك السامع ان مطرا قد هطل ونباتا ظهر .

والاشتقاق : وهو اخذ كلمة من أخرى تتشابه فيها بعض الحروف فاذا تشابهت الحروف الاصلية اسفرت عن معاني قد تكون قريبة وقد تكون بعيدة عن المعنى الاصلي .

وهذا الاشتقاق قد أضاف الى اللغة العربية ما اضافة المجاز فلفظة « بصر » التي هي النظر والرؤية كذلك الخبرة والدراية لك ان تشتق منها وفق قواعد الاشتقاق أفعالا وأسماء لكل منها معناها الخاص فانك تشتق من « بصر » باصرة ، بصير ، متبصر ، تبصر ، مبصر . وكل هذه أسماء تختلف فيما بينها اختلافا معنويا واضحا .

اما الافعال فهي لا تقل عن هذه الاسماء كثرة وتنوعا ، فلك أن تقول يبصر ، يتبصر ، يتباصر يستبصر ، ولكل منها معنى مختلف عن معنى الفعل الآخر فالاول ينظر ويرى ، والثاني يستعلم ويتحقق ، والثالث : يدعي الرؤية والخبرة ، والرابع : يحاول النظر والادراك فلو احصينا ما اشتققنا من اللفظة « بصر » لوجدناها عشرة الفاظ ، لها عشرة معان ، بل لعل المعاني في حقيقتها تفوق العشر .

وهذا كله غير تصريف الفعل الذي لم نذكره لانه ليس من الاشتقاق وهو التصريف الذي يتناول اثنى عشر صيغة موزعة على الضمائر .

والمرادف : وهو اللفظ الذي يؤدي نفس المعنى ويختلف عن مرادفه في النطق والحرف اختلافا قد يكون كليا ، وهو باب واسع من أوسع أبواب اللغة العربية وليس ادل على هذا مما صنعه بعض المؤلفين القدامى، مثل عبد الرحمن بن عيسى الهمداني المتوفى عام 320هـ في كتابه « الالفاظ الكتابية » والذي جعله في ثلاثمائة وستين بابا ، جمع في كل باب من الالفاظ المختلفة حرفا ، المتقاربة معنى ذخيرة حية وعلى سبيل المثال نذكر باب « حسن المنظر » منظر حسن ونضير وبهيج وبهي ورائع وزاهر ورائق وقسيم ووسيم ومونق ، ففي هذه الالفاظ المترادفة وصفنا منظرا حسنا .

اما جمال العربية فانه ناجم عن الدقة والجرس وتجانس التركيب وقد يكون من السهل تحديد هذه الصفات وقد يكون من الاسهل ايراد الشواهد عليها ولكن الصعوبة تكمن في تصويرها للسامع تصويرا ماديا يمسك بانامل ، ولعل هذا التصوير المادي ليس من متطلبات التدليل على جمال اللغة — أية لغة كانت —

14) انظر مجلة « المقتطف » المجلد 52 ص 393 .

ولكنه مطلب يلح عليه البعض ممن لا يدرك او لا يريد للعربية ان تكون جميلة .

والقول فى جمال لغة ما عند اهل تلك اللغة يعتمد مقاييس ذوقية ومادية تنظمها مشاعر وقواعد فالمشاعر هي وليدة الحس الذي يقره العقل ، والقواعد هـي الادوات المصنوعة لاجراء القياس ونحن حين نطبق هذه المقاييس على جمال اللغة العربية نخرج بنتائج مدهشـة رائعة .

قال الله تعالى « والنجم اذا هوى ما ضـل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى ان هـو الا وحي يوحى علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالافق الاعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى».

جرس اخاذ فى تقطيع لفظي عجيب يصوران موضوعا جليلا ببراعة معجزة بدات الآية الكريمـة بالقسـم بالنجم الذي كان بعض العرب يحلونه محل الاله ولكن القسم ليس بالاله المزعوم فحسب بل به حين يهوى ويهبط من عليائه فهذا السقوط الذي يجرح الالوهية والذي أورده القرآن الكريم مع القسم له ابعاد معنوية خارقة ثم نفت الآية الكريمة عن الرسول العربي صفة الضلال التي اتهمه بها الجاحدون أولئك الذين بلـغ الضلال بهم ان عبدوا النجم الذي ليست له مناعة ضد السقوط ، ومضت الآية فى تنزيه القرآن الذي نزل على الرسول الامين عن الهوى والعاطفة وبينت الآية ان ما جاء به الرسول وحي من الله الخالق القوي الذي امر رسوله بحمل رسالة القرآن فصدع بالامر ونهض يبشر قومه بهداه ، وينذرهم فى تنكرهم لرشاده .

ولم يكن هذا الوحي الكريم فى حالة تدعو الى التشكك او التشكيك لا بل كانت والرسول اقرب ما يكون الى ربه انه كان على بعد ما بين طرفي القوس والعرب يعرفون قصر المسافة بينهما حق المعرفة لان القوس تعيش بين ايديهم وتصحبهم طول الوقت .

هكذا استطاعت اللغة العربية أن تقسم بالمقدس جهلا وضلالة وتجرح تقديسـه وتنفي عن الرسول مزاعم المشركين وتسمي الوحي ، وتصف قرب النبي مـن خالقه فى حالة الوحي ، وتبين أن الدعوة ليست من هوى وعاطفة انسان بل ارادة ربانية .

كل هذه المعاني صورتها اللغة العربية تصويرا هو من جمال القوة فى الذروة (15) .

واذا اردنا المزيد من التدليل على جمال العربية فالشواهد ميسورة فى كل ضرب من ضروب الكلام فى الشعر والنثر والحكمة والخطابة .

قال المتنبي يصف جيش سيف الدولة الحمداني :

خميس بشرق الارض والغرب زحفه
وفى اذن الجـوزاء منـه زمـام
تجمع فيه كـل لسـن وامـة
فما تفهم الحـداث الا التراجـم

وقال البحتري يصف الربيع :

اتاك الربيع الطلق يختال ضاحكـا
من الحسن حتى كاد ان يتكلمـا
وقد نبه النيروز فى غسق الدجـى
اوائل ورد كن بالامس نومـا
يفتحها قطـر النـدى فكانمـا
يبث حديثا كان قبـل مكتمـا

هاتان صورتان من صور التعبير الشعـري فى الاولى تجد الفخامة والقوة والسبك ، وفى الثانية تجد العذوبة والرقة والرخامة ، صورت اللغة فى الفاظهما ما اراده الشاعران ، او صور الشاعران فى كل منهما ما اراده ، تصويرا تمازجت فيه الالفاظ بالمعنى فكانت روعة التعبير فى الصورتين اللتين رسمتا موضوعين مختلفين : أحدهما الجيش وضخامته وجلبته والثانـي الربيع ونعومته وبهاه (16) .

ولا باس من ايراد شاهدين آخرين وليكونا فى موضوع واحد ، هو الرثاء اجاد فيه كل من الشاعرين اللذين رسما صورة للحزن على الفقيد ومكانته .

قال أبو تمام يرثي محمد بن حميد الطوسي وقد قتل فى معركة فر فيها جنده وبقي هو فى وجه عدوه بابك الخرمي :

---

15) انظر مجلة « اللسان العربي » العدد الرابع ص 24 المغرب ــ الرباط 1386 هـ .
16) نفس المصدر السابق ص 25 .

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة
تقوم مقام النصر ان فاته النصر

وقد كان فوت الموت سهلا فرده
اليه الحفاظ المر والخلق الوعر

فاثبت في مستنقع الموت رجله
وقال لها من تحت اخمصك الحشر

كأن بني بنهان يوم وفاته
نجوم سماء خر من بينها البدر ...

وقال جرير يرثي زوجته :

لولا الحياء لهاجني استعبار
ولزرت قبرك والحبيب يزار

ولهت قلبي اذ علتني كبرة
وذوو التمائم من بنيك صغار

واذا سريت رأيت نارك نورت
وجها اغر يزينه الاسفار

كأن الخليط هم الخليط فاصبحوا
متبدلين وبالديار ديار (17)

لاشك انك حين سمعت ابيات ابي تمام في رثاء الطوسي استشعرت الاباء والجلد والانفة والشجاعة، وحين سمعت رثاء جرير زوجه ، احسست بالاسى واللوعة والالم ، وكلتا الصورتين الشعريتين لصور واحد هو الرثاء ، وان استخدمت الريشة من قبل رسامين هما : الشاعران الراثيان أبو تمام وجرير .

اما السبب الديني فهو في القرآن العظيم واسلوبه المعجز . واللغة العربية بفضل القرآن الكريم صارت ابعد اللغات مدى وابلغها عبارة ، واغزرها مادة ، واقواها جلادة وادقها تصويرا لما يقع تحت الحس ، وتعبيرا عما يجول في النفس ، تتسع لتحيط بأبعد انطلاقات الفكر ، وتصعد حتى تصل ارقى اختلاجات النفس والضمير ، واسعة سعة السماء ، عميقة عمق البحر (18) .

قال م . فنتيجوا مؤلف كتاب « المعجزة العربية » ان سرعة انتشار اللغة العربية ترجع الى الثمار المادية والروحية التي جنتها من الاسلام أكثر منها الى القرار الذي اتخذه الامويون بجعل العربية اجبارية في الوثائق الرسمية . وخلال القرن الثاني الهجري بدا انحلال مراكز الثقافة اليونانية في الشرق الادنى وتمخض هذا الانحلال عن أكبر فوضى في اللغات والاديان فقد بدأت شعوب عريقة في الحضارة كالمصريين والهنود تتحلل من تراثها الخاص لتعتنق على اثر احتكاكها بالعرب معتقداتهم واعرافهم وعوائدهم . ان العربية أمست في فارس اللغة الرسمية واتخذها الشعراء انفسهم اداة لصياغة القريض في حين ظلت اللهجة البهلوية مستعملة في الجبل ، وقد استمرت نفوذ العربية في القرون التالية بل صارت العنصر الجوهري في الاوردية التي هي لغة الثقافة عند الهندوس والتي يعتبر نصف مفرداتها تقريبا من اصل عربي (19) .

قال جورج ريفوار : لقد ظل نفوذ اتباع محمد لازبا لم يتغير ، ففي نواحي أفريقيا وآسيا التي دخلوها من المغرب الى الهند تغلغل ذلك النفوذ في الاعماق الى الابد ولم يستطع فاتحون جدد استقصاء دين العرب ولغتهم (20) .

ان اللغة العربية التي بلغت مبلغا كبيرا من المرونة والثروة في العهد الجاهلي كاداة للتخاطب ، وكمصهر لصقل التعبير عن ادق الاحساسات وارق العواطف ، ادركت في القرن الرابع الهجري في عنفوان العصر العباسي اوج كمالها .

وقد وصف زكي مبارك روعة النثر الفني العربي في القرن الرابع الهجري ووصف « فيكتور بيرار » اللغة العربية في ذلك العصر بانها اغنى وابسط واقوى وأرق وامتن واكثر اللهجات الانسانية مرونة ، فهي كنز يزخر بالمفاتن ويفيض بسحر الخيال وعجيب المجاز ، رقيق الحاشية ، مهذب الجوانب ، رائع التصوير واعجب ما في الامر — وهو شيء لا نظير له عند الشعوب الاخرى — ان البدو كانوا هم سدنة هذه الذخائر وجهابذة النثر العربي جبلة وطبعا . ومنهم استمد كل الشعراء تراثهم اللغوي وعبقريتهم في القريض (21) .

---

17) انظر المصدر السابق .
18) انظر مقالنا ص 40 بمجلة اللسان العربي العدد الرابع . المغرب .
19) راجع مقدمة اللسان العربي ع 3 س 3 .
20) المرجع السابق ص 3
21) المصدر نفسه ، ص 4

هذا وقد عربت اهم المصنفات اليونانية فى عهد الخلفاء العباسيين حيث انكب العرب والعلماء علـى دراسة الآداب الاجنبية بحماس شديد . وقد خضعت العربية لمقتضيات الاصلاح الجديد . فانتشـرت فى مجموع انحاء آسيا . واستأصلت نهائيا اللهجـات القديمة . وقضت على اللاتينية فى شبه الجزيـرة الايبرية (اسبانيا والاندلس) .

ان نفوذ اللغة العربية اصبح بعيد المدى حتى ان جانبا من اوربا الجنوبية ايقن بان العربية هي الاداة الوحيدة لفهم ونقل العلوم والآداب وسائر انـواع الفنون . واوضح (جورج ريفوار) ان رجال الكنيسة ــ فى اوربا الجنوبية ــ اضطروا الى تعريب مجموعاتهم القانونية لتسهيل قراءتها فى الكنائس الاسبانية وان « جان سيفيل » وجد نفسه مضطرا الى ان يحـرر بالعربية معارض الكتب المقدسة ليفهمها الناس .

اما فى فرنسا فقد أكد (جوستاف لوبـون) فى كتابه « حضارة العرب » ان للعربية آثارا مهمة فى فرنسا نفسها . وقد لاحظ المؤرخ الفرنسي « سديو » عن حق ان لهجة ناحيتي : اوفيرني . وليموزان . زاخرة بالالفاظ العربية وأن الاعلام تتسم فى كل مكان بالطابع العربي .

وكان من الطبيعي ان يزود العرب كلا من فرنسا وايطاليا . فى القرن الثامن الميلادي بمعظم مصطلحاتها البحرية . على انها تركت أثرها فى مصطلحات الجيش والادارة والصيد والعلوم وغيرها . وقد لوحظ نفس التأثير فى صقلية .

ومما يجدر ذكره ان اول اتجاهات اوربا مـن الاقتباس العربي كان فى الميدان العلمي ولقد قـال المستشرق « ماسينيون » ان المنهاج العلمي قـد انطلق اول ما انطلق باللغة العربية ومن خلال العربية فى الحضارة الاوروبية . ان اللغة العربية أداة خالصة لنقل بدائع الفكر فى الميدان الدولي . وان استمرار حياة اللغة العربية دوليا لهو العنصر الجوهري للسلام بين الامـم .

وقد اوضح « جوستاف لوبون » ان العربيـة اصبحت اللغة العالمية فى جميع الاقطار التي دخلهـا العرب حيث خلفت تماما اللهجات التي كانت مستعملة فى تلك البلاد كالسريانية واليونانية والقبطية والبربرية.

وقال المستشرق ماسينيون ان العربية بقيمتهـا الجدلية والنفسية والصوفية استطاعت أن تضفـي سربال الفتوة على التفكير الغربي .

ومما لا يسوغ انكاره أن الكثير من المصطلحات فى انواع الفنون المختلفة ــ فى أوربا ــ تستمد عناصرها من اللغة العربية مثل الكحول والاكسير والجبر . وقد ذكر « اليفي بروفنصال » أن الاسبان استمدوا معظم اسماء الرياحين والازهار من اللغة العربية . ومـن جبال البرانس انتقلت مصطلحات العلوم الطبيعية الى فرنسا مثل البرقوق والياسمين والقطن والزعفـران ومجموعة مصطلحات الراي تقريبا ــ كما قال الاستاذ عبد العزيز بتعبد الله عضو مجمع اللغة بالقاهرة ــ هي من اصل عربي كما تحمل الحلي فى اسبانيا أسماء عربية ويتجلى نفس التأثير فى الهندسة المعماريـة وبالجملة فقد استمدت اسبانيا وبواسطتها امريكـا اللاتينية من اللغة العربية الشيء الكثير من مقوماتها اللغوية ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا .

وقد لاحظ عالم ايطالي : ان معظم التعابير العربية التي تغلغلت بكيفية مدهشة فى لغة روما لـم تنتقل عن طريق التوسع الاستعماري ولكن بفضـل اشعاع الاسلام الثقافي (22) .

وان اللغة العربية هي بلاشك اداة الفكر . وهي تعتمد على المناخ الفكري لاداء المعاني الحضارية اذ ان الحضارة والمدنية والثقافة . لابد لها من الاداة وان المقومات الثقافية لاي أمة من الامم تتمثل فى اللغة التي تستوعب الفاظها ومدلولات كلماتهـا والعبـارات المستعملة فيها القيم العليا . وقضايا المعرفة .

وهذه القيم . وهاته القضايا . هي التي توجه الافراد وتحدد علاقة بعضهم ببعض كما تحدد علاقتهم بالمجتمع سواء المجتمع القومي او المجتمع الانساني .

ان حضارتنا العربية وليدة اللغة العربية واللغة العربية وليدة الحضارة العربية والحضارة العربيـة هدفت الى الخير والمعرفة والافادة الانسانية .

القاهرة ــ احمد عبد الرحيم السائح

---

22) انظر العدد الرابع من اللسـان ص 6 .

عبد الحميد الكاتب

أول من وضع الأصول الفنية في الأدب العربي

للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي

— 1 —

عبد الحميد الكاتب شخصية غريبة فى تاريخ التراث الادبي عند العرب ، وحياته غامضة اشد الغموض؛ لان الخلافة العباسية أسدلت عليه سحبا كثيفة من الاهمال والنسيان باعتباره الكاتب السياسي الاول لدولة بني امية ؛ ولقبه الجاحظ فى كتابه المشهور — البيان والتبيين — بعبد الحميد الكاتب او الاكبر وبعظم النقاد العرب من منزلته فى الادب العربي ، فيقولون فيه بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد .

وكان ابوه يسمى يحيى من سلالة غير عربية ، من اهل الشامالذين دخلوا فى الاسلام وتعلموا العربية . ولا يعرف متى ولا اين ولد عبد الحميد فى ارض الشام، وان كان من المرجح أنه ولد فى خلافة الوليد بن عبد الملك (76 — 96 هـ : 705 — 715 م) ، فى دمشق او قريبا منها .

وكانت الدولة آنذاك للامويين وعاصمتهم السياسية مدينة دمشق التي بنوا فيها المساجد والمدارس والقصور ، وانشأوا فيها الحدائق والدواوين والحصون والقلاع ، واصابها من عناية الامويين ما صارت به قبلة الناس من كل صوب وحدب ، فاتسع عمرانها وصبغت بصبغة حضارية واضحة المعالم ، وصارت موطنا رفيعا من مواطن الثقافة والادب في العالم الاسلامي ، ووفد اليها الناس فى مختلف شؤونهم ، واضحت تعد من اعظم مدن العالم واجملها ، ونعم سكانها بالعدل والامن والثراء ، ونعمت كل العناصر الاجنبية فيها بالحرية ، وعاملهم المسلمون بالتسامح ؛ حتى رضوا بسلطان العرب ، وطرحوا المسيحية ودخلوا الاسلام كما يقول غوستاف لوبون فى كتابه « حضارة العرب » ..

وكانت الشام احد الاقاليم الكبرى فى الامبراطورية الاسلامية آنذاك ، وتشمل : فلسطين والاردن ودمشق وحمص وقنسرين : وتتصل باقليم العراق وباقليم « الجزيرة وارمينية » بصلات وثيقة .

وفى ظلال الامويين اتصل الفكر العربي بالثقافة والآداب الاغريقية والرومانية فى الشام ومصر ، وكان الادب الروماني السائد فيهما قبيل الفتح العربي تطويرا جديدا للآداب اليونانية فى عصرها الاسكندري الروماني ، هذا العصر الذي يبدا بدخول اثينا فى حكم الرومان فى القرن الاول قبل الميلاد ، وينتهي بالفتح الاسلامي لهذه البلاد فى النصف الاول من القرن السابع الميلادي .. كما اتصل العقل العربي كذلك فى مدن العراق بالثقافة الفارسية القديمة ، وبخاصة فى مدينة البصرة المشهورة ، وكان ملوك ايران وخاصة سابور ابن اردشير فى اواسط القرن الثالثالميلادي ، وكسرى انو شروان (531 — 578 م) قد بذلوا كثيرا من الجهد فى نقل الثقافة الاغريقية الى ثقافة بلادهم ، وقام التراجمة السريانيون بذلك العبء ، حيث نقلوها أولا الى الفارسية ، ثم نقلوها الى لسانهم

السرياني ، ونقلوها اخيرا الى اللغة العربية في ظلال العصر الاسلامي وفي عهد الامويين والعباسيين .

— 2 —

تعلم عبد الحميد الكاتب اللغة العربية وبلاغة العرب وتفوق فيهما ، فسلس لسانه ، وجادت لغته ، وظهرت مواهبه في الادب والبلاغة والبيان والخطابة والكتابة ، وعمل في اول امره معلما ، وتنقل في البلدان. وكانت ثقافة الادب في ايامه مزيجا من الثقافة العربية الاسلامية ، ومن التاريخ والانساب والقصص والسير ومعرفة ايام العرب وتاريخ العجم ، واحيانا يضاف الى ذلك ثقافة اجنبية كالثقافة الفارسية او الاغريقية او الرومانية او المصرية القديمة او الهندية ، وفي رسالة عبد الحميد الى الكتاب ما يوضح لنا أصول الثقافة الادبية في عصره .

وقد تتلمذ عبد الحميد في الكتابة على ابي العلاء سالم الكاتب السياسي لهشام بن عبد الملك (105 — 125 هـ — 724 : 743 م) ، ويروي ابن النديم في « الفهرست » ان ابا العلاء نقل الى العربية رسائل ارسطو الى الاسكندر وذلك يدل على تضلعه في الثقافة والادب واللغة اليونانية ، وكان ابو العلاء من الواضعين لنظام الرسائل الادبية ولتقاليد الكتابة الفنية ، وله رسائل كثيرة كما يذكر ابن النديم ، وكان صهرا لعبد الحميد ، اذ كان زوج اخته . وكان جبلة بن سالم يتولى الكتابة السياسية في ديوان الرسائل لهشام ايضا وصديقا حميما لعبد الحميد الكاتب ، وكان جبلة يعرف الفارسية، وهو احد المترجمين منها الى العربية، كما كان صديقا حميما لعبد الحميد ابن المقفع (106 — 142 هـ : 725 — 760 م) وابن المقفع فارسي الاصل واحد المترجمين من اللغة الفارسية الى اللسان العربي كذلك ؛ وذلك كله يدعنا نرجح ان عبد الحميد الى جانب ثقافته العربية كان يعرف اليونانية والفارسية :

وزكي مبارك في كتابه « النثر الفني » يرجح ان عبد الحميد كان يجيد الفارسية ويعرف آدابها وينقل منها الى العربية ، ويؤيد ذلك قول ابي هلال العسكري (395 هـ : 1005 م) في كتابيه « الصناعتين » ، و « ديوان المعاني » ان اباهلال استخرج امثلة الكتابة التي رسمها من اللسان الفارسي فحولها الى اللسان العربي ؛ ويقول زكي مبارك : ان عبد الحميد اول من نقل تقاليد الفرس الىالكتابة العربية .

ويؤيد الدكتور طه حسين في كتابه « من حديث الشعر والنثر » ان عبد الحميد كان شديد الاتصال بثقافة اليونان ، متأثرا بها أشد التأثير في فصوله الادبيـــة .

— 3 —

وذاعت شهرة عبد الحميد الكاتب وعرفت مواهبه الادبية وثقافاته الكثيرة ، فقربه اليه الامير الاموي مروان بن محمد حاكم اقاليم الجزيرة وارمينية، هذا الاقليم الغني الممتد الاطراف الذي كان يشمل بلاد الموصل واذربيجان وولايات ارمينية ، وكان مروان قد تولى الامارة على الاقليم بعد وفاة والده محمد مروان الاموي . ولم يلبث الامير الاموي مروان ان قاد جيشا كثيفا من ابناء الجزيرة وارمينية وزحف على الشام فاستولى على اكثر مدنه ثم زحف على دمشق ودخلها وتولى امور الخلافة الاموية عام (126 هـ : 744 م) .

كان عبد الحميد يتولى شؤون ديوان الرسائل للامير مروان بن محمد اثناء ولايته للجزيرة وارمينية ، وصار وثيق الصلة به وازدادت مكانته عنده ومنحه الامير ثقته الكبيرة التي كان عبد الحميد جديرا بها ، وصدرت عنه رسائل سياسية كثيرة في ذلك العهد ، ولما اخذت البيعة لمروان في جميع مدن الشام بخلافة المسلمين سجد مروان شكرا لله ، وسجد اصحابه الا عبد الحميد ، فقال له مروان : لم لا تسجد ؟ فقال : اعلى ان كنت معنا فطرت عنا ؟ قال مروان : اذا تطير معنا ، قال : الان طاب لي السجود وسجد ، وصار عبد الحميد الكاتب بعد ان تولى مروان الخلافة رئيسا لديوان الرسائل في دمشق والكاتب الاول للخليفة الجديد وصدرت عنه رسائل ادبية وسياسية نالت شهرة فنية كبيرة .

شاهد عبد الحميد كل الاحداث السياسية التي مرت بالعرش الاموي في اثناء حكم مروان بن محمد (126 — 132 هـ : 744 — 750 م) ، ورأى ان الزحف العباسي الكبير الذي بدا من خراسان واستمر حتى نهر الزاب الذي بلغته قوات العباسيين في جمادى الاخرة عام 132 هـ ، وبلغته انباء المعركة الكبرى التي دارت على نهر الزاب بين جيوش الخليفة مروان وجيش الموت من العباسيين ، بل شاهد غمارها بنفسه ، وقد انتهى بهزيمة مروان وجيشه في اوائل رجب عام 132 ، هو هرب مروان الى الشام فحصر ، وهرب كاتبه وصديقه عبد الحميد الى البحرين ودخل العباسيون دمشق واستولوا على قصور الامويين وكنوزهم ، وجدوا في تشريد الامويين والقضاء عليهم في كل مكان وعلى انصارهم في جميع مدن الشام ،

وكذلك جدوا في البحث عن مروان بن محمد حتى قبضوا عليه في بلدة بوصير من اعمال الجيزة وقتلوه ، لليلتين بقيتا من ذي الحجة عام 132هـ ــ 750م، وكان مروان قد امر خادما له ان يدفن في الصحراء خاتم النبي صلوات الله عليه وبردته وعصاه ، وكان يعتز بها خلفاء بني امية ، وذلك حين فاجاته جيوش العباسيين، وقبضوا على الخادم ، وقدم للقتل فطلب اليهم ان يضمنوا حياته ليكشف لهم عن مكان هذا الكنز الاسلامي الكبير ، وفعلوا ، فارشدهم الى مكانه ، فاخذوه ، وبعثوا به الى ابي العباس السفاح الخليفة العباسي في العراق الذي اطلق عليه لقب السفاح لكثرة من قتل من الامويين وانصارهم .. واما بنات مروان وجواريه فقد اخذن بعد قتل ابيهن الى صالح بن علي ، فتكلمت امامة بنته الكبرى (أم مروان) تساله العفو وان يلحقهن بحران مدينة مروان المفضلة في حياته ، ففعل فاخذن يبكين مروان عند دخولهن اليها بكاء مريرا ، كما يروي المسعودي في الجزء الثاني من تاريخه «مروج الذهب»؛ واما اولاد مروان : عبد الله ولي عهده وقائده في اكثر الوقائع ، وعبيد الله وغيرهما فقد هربوا الى النوبة فالحبشة في جماعة من الامويين . وقتل عبد الله هناك ونجا عبيد الله ، كما يذكر الطبري في الجزء التاسع من تاريخه ، ويذكر ابن الاثير ان المقتول هو عبيد الله .. واما مزنة امراة مروان فتظهر في بغداد عام 160 هـ في قصر الخليفة المهدي امام الخيزران في ثوب مرقع ما تستر به جزءا من جسدها الا انكشف جزء اخر مع الجمال والعظمة وسوء المظهر وشقاء الحال كما يذكر التنوخي في كتابه « الفرج بعد الشدة » .

بعد معركة الزاب وهزيمة مروان ، ومعه عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، كتب هذا العبقري العظيم الى اسرته رسالة مؤثرة يقول فيها : « اما بعد فان الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالمكاره والشرور ، فمن ساعده الحظ فيها سكن اليها ، ومن عضته بنا بها ذمها ساخطا عليها ، وشكاها مزيدا لها ، وقد كانت اذاقتنا افاويق استحليناها ثم جمحت بنا نافرة ورمحتنا مولية فملح عذبها وخشن لينها فابعدتنا عن الاوطان وفرقتنا عن الاخوان ، فالدار نازحة ، والطير بارحة ، وقد كتبت والايام تزيدنا منكم بعدا واليكم وجدا ، فان تتم البلية الى آخر مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا ، وان يلحقنا ظفر جارح من اظفار من يليكم نرجع اليكم بذل الاسار ، والذل شر جار ، نسأل الله الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء أن يهب لنا ولكم الفة جامعة في دار آمنة ، تجمع سلامة الابدان والاديان ، فانه رب العالمين وارحم الراحمين » .

رسالة كلها بكاء ودموع وحيرة ولا يرى فيها عبد الحميد من خلال الاحداث الا القتل او الاسر ، وهو يودع اسرته فيها وداعا مؤثرا ، ولا نعلم من امر اسرته شيئا لان التاريخ لم يعن بها ولا بربها منذ يوم الهزيمة المروعة ، هزيمة القائد في المعركة التي خسر فيها كل شيء حتى حياته ، والح مروان على صديقه عبد الحميد ان يهرب فقد ينجو من القتل ، او ان ينضم الى اعدائه من العباسيين . فقد يستطيع ان يقدم خدمة للخليفة المهزوم ، وقال له مروان : ان اعجابهم بك يدعوهم الى حسن الظن فيك ، فاستامن اليهم واظهر الغدر بي ، فبذلك تنفعني في حياتي او بعد مماتي قال عبد الحميد : اسر وفاء لم اظهر غدرة : فمن لى بعذر يوسع الناس ظاهره .

يا امير المؤمنين : ان الذي امرتني به انفع الامرين لك واقبحهما بي ، ولكني ساصبر حتى يفتح الله عليك او اقتل معك .

ولما ضاق بهما الامر دعاه مروان الى الهرب واصر مروان على رايه ، فاختفى عبد الحميد هاربا واختفى عنه صديقه ابن المقفع ..

كان صديقه عبد الله بن المقفع في العراق يكتب لداود بن هبيرة حاكم العراق من قبل مروان . وكان ابن المقفع يزور دمشق ، وعبد الحميد الكاتب احيانا اذا سار الى عاصمة الامويين مع اميره العظيم .. ولما اكتسحت جيوش العباسيين العراق قتلوا داود واهله فيمن قتلوهم ونجا ابن المقفع من القتل بفراره في ذلك الحين ، وظهر ابن المقفع في البحرين ، ولجا اليه هناك صديقه عبد الحميد الكاتب واقام عنده في داره ولكن عيون العباسيين عرفت مكانه ففاجاه الطلب وهو في دار ابن المقفع ، وهنا تظهر عظمة الرجلين المفكرين الكبيرين الذين ظلا على الاجيال حتى اليوم فخرا للفكر العربي ، قال الجند وهم شاكو السلاح : ايكما عبد الحميد ؟ فقال : انا كل منهما : اشفاقا على صديقه ، واوشك الجند ان يفتكو بابن المقفع ، لولا ان صاح بهم عبد الحميد قائلا : ترفقوا بنا فان لكل منا علامات فوكلوا بنا بعضكم وليمض البعض الاخر الى من وجهكم ليذكر له تلك العلامات ، فلم يجد الجند مناصا من ذلك ، وفعلوا وعادوا باوصاف عبد الحميد كاملة فقبضوا عليه وقتل عام 132 هـ : 750 م وهكذا خسر الفكر والادب العربي اعظم رجاله واروع شخصية يعتز بها تراثنا العقلي على مد العصور وكذلك كان حظ ابن المقفع فقد استمهله

القدر عشرة اعوام قبل عام 142 هـ 760 م في عهد الخليفة المنصور العباسي .

– 4 –

كان عبد الحميد عبقرية كبيرة وذهنا لماحا ، وذكاء خصبا ، وادبا جما ، ونبلا موفورا ، وملكا في ثياب عربي ، مع ثقافة واسعة ، وعلم بسياسة الدولة وشتى امورها،وادراك لكل مسؤليات الرجل السياسي وواجباته . ومع قدرة فائقة على تملك ناحية البيان وزمام التاثير ، وروعة التعبير .. ويروى عنه انه حين ظهرت الدعوة الى العباسيين في خراسان بقيادة ابي مسلم الخراساني الفارسي زعيم الدعاة ، كتب عبد الحميد اليه على لسان الخليفة الاموي مروان ابن محمد كتابا يستميله فيه الى جانب الامويين ، وحمل الكتاب على جمل لكبر حجمه ، وقال عبد الحميد للخليفة :

لقد كتبت كتابا متى قراه بطل تدبيره فان يك ذاك والا فالهلاك فلما وصل الكتاب الى ابي مسلم امر باحراقه قبل ان يقراه وكتب على جذاذة منه :

من السيف اسطر البلاغة وانتحى اليك ليوث الغاب من كل جانب .

وهذا يدلنا على عظمة كتابات عبد الحميد السياسية التي كانت بمثابة مقالات الصحف اليومية السياسية الذائعة الصيت ، وكان عبد الحميد يقدر على تصوير المعنى تصويرا بارعا لا يقدر عليه احد من الكتاب ... اهدى وال من ولاة مروان الى الخليفة عبدا اسود فطلبمروان منعبدالحميدانيكتباليهمتهكما فبعث اليه عبد الحميد برسالة موجزة اشد الايجاز يقول له فيها : لو وجدت لونا شرا من السواد وعددا اقل من الواحد ، لاهديته ، وبراعته او قدرته على الايجاز ، مشهورة ، كتب يوصي بشخص : حق موصل كتابي اليك كحقه على اذ جعلك موضعا لامل ورآني اهلا لحاجته ، وقد انجزت حاجته فصدقه امله »

ان عبد الحميد كان جديرا ان يعد في عصره وبعد عصره شيخ الكتاب وامام المنشئين والمترسلين في الادب العربي ، فقد كان امة وحد في بلاغة العبارة ورصانة الاسلوب ودقة المعاني ولطفها وعظمة الخيال وروعته وشدة التاثير وامتلاك ناحية البيان ، وكان يفصل جمله تفصيلا ، ويزنها احيانا بقليل من السجع ويحليها بالوان من الوشي الفني المطبوع .

ويرى الدكتور طه حسين وبعض النقاد ان عبد الحميد هو الذي ظهر على يديه النثر الفني في الادب العربي ، وهو الذي انشا الكتابة الفنية انشاء في اللغة العربية ، هذه الكتابة التي يعتقد فيها الكاتب على التحبير والتنميق ، اذ لم تظهر في رايهم في العصر الجاهلي ولا في عصر صدر الاسلام ، وان كان بعض مقدماتها وعناصرها قد اخذ في الظهور في عهد الخلفاء الراشدين . اما هي جملة فقد تاخرت الى العصر الاموي لتظهر في رايهم على يدي عبد الحميد الكاتب بتاثير الثقافة اليونانية فيه كما يقول الدكتور طه : فهو الذي ترك آثارا كبيرة في نهضة الكتابة وتحولها الى صناعة فنية لها منهاجها واصولها وتقاليدها الادبية ، ولها نظامها في البدء والختام ، وكان لذوقه الحساس اثر كبير في اتسام الكتابة بالسهولة والوضوح وفي البعد عن الغريب والوحشي ، والتعقيد والتنافر وتفكك المعاني والافكار ، فاشتدت الصلة بين كل جملة واختها وقل الاقتضاب والاعتراض بين اجزاء الكلام ، ويرى الاستاذ مرسيه الفرنسي والمستشرق الانجليزي جب في كتابه « تراث الاسلام» ان النثر الفني يبتدىء بابن المقفع وان القرن الاول الهجري لم يكن فيه نثر يعتمد به ، انما كان الشان فيه للشعر ، وابن المقفع في رايهما وراي تلاميذهما اول ممثل للتطورات الجديدة في الانشاء العربي ، واول مؤلف للكتابة الفنية الادبية .

ولكن جمهرة كبيرة من النقاد العرب القدامى والمحدثين ومن بعض المستشرقين تصر على ان النثر الفني ظهر في الجاهلية واستحكمت نهضته بنزول القرءان الكريم وبالحديث النبوي الشريف وبلاغات البلغاء في صدر الاسلام من خلفاء وقواد وولاة وغيرهم، « ونهج البلاغة » مشهور مقامه في النثر الفني ، وان زعم البعض ان الشريف الرضي انتحله فان فيه نصوصا لا يمكن ان يقال عنها انها منتحله ، وكثير من الامم القديمة كان لها نثر فني قبل الميلاد بكثير كاليونان والرومان والفرس والمصريين القدماء ، فلم لا يكون للعرب نثر فني بعد الميلاد بخمسة قرون ؟ ويبعد الدكتور طه القرءان الكريم عن مجال الاحتجاج في هذه الخصومة الادبية ، وان كان القرءان في الذروة العليا من النثر الفني ؛ والنثر الفني في الاداب الاوربية لم يزدهر بين عشية وضحاها بل تطور من عصر الى عصر حتى بلغ غاية نهضته وازدهاره فلم لا يكون كذلك في الادب العربي ؟ بدليل ان النثر الفني عند ابن المقفع هو نثر متقدم حي خلاق وليس بدائيا ، وتشك

كل شك في ان ابن المقفع كتب هذا النثر الفني الرفيع دون ان يكون له سابقون في تاريخ الادب العربي القديم .

النثر الفني وجد قبل القرءان وصاحب نزول القرءان وتأثر به تأثرا عظيما ثم اتصل العرب بالاداب الاجنبية التي ظهرت آثارها في كتابهم الادبية منذ اول القرن الثاني الهجري على يدي عبد الحميد وابن المقفع، والاحوال الاجتماعية الجاهلية التي يرى الدكتور طه انها لم تكن تساعد على نشأة النثر الفني لا يمكن ان يشترك فيها عرب نجد وعرب الحجاز في الحكم على حد سواء ، فاذا جاز لنا ان نقول عن العرب النجديين القدماء ان حياتهم لم تكن تساعد على انشاء النثر الفني فانه لا يجوز لنا ان نذهب هذا المذهب ونحكم به على عرب الحجاز القرشيين الذي عرفوا الحكومة السياسية المنظمة وطبقوها في مكة ، والذين عاشوا في ظلال ترف ورخاء والوان حضارية من العيش كثيرة .

- 6 -

ان عبد الحميد بلا ريب كان ذا اثر كبير في الكتابة الادبية في عصره ، فهو الذي سهل سبيل البلاغة في الترسل ، وعنه اخذ المترسلون وهو احد الذين كتبوا الفصول الادبية كما كان يفهمها علماء البيان من اليونانية كما يقول الدكتور طه ، وهو اول من فتق اكمام البلاغة وسهل طرقها وفك رقاب الشعر ، وآلت اليه زعامة الكتابة ، فمهد سبلها ووضع معالمها ورسم رسوما خاصة في بدئها وختامها والاطناب فيها مرة وايجاز اخرى ، فكان شيخ الكتابة ، وبحق ما قيل: « بدئت الكتابة بعبد الحميد » ..

وقد ساعد عبد الحميد على احداث هذا التأثير الادبي الكبير الذي ظهر في صورة مذهب فني جديد في الكتابة ما يلي :

1) نضج الثقافة العربية الاسلامية من علوم الدين واللغة والادب ، واقبال الكتاب عليها وتمثلهم لها واحتذاؤهم حذوها .

2) رواية اصول الادب العربي شعرا ونثرا وخطابة ووصاية وحكما وامثالا وسجعا وقصصا واخبارا وانسابا ، والعكوف على استظهارها كذلك ، ومحاكتها وعلى استظهار الشعر الجاهلي والاسمى كذلك ، وخطب الرسول ووصاياه وخطب الخلفاء والصحابة وبلاغات البلغاء وحكمهم ومأثور كلامهم ، حتى عصر عبد الحميد ، وبخاصة خطب الامام علي بن ابي طالب وحكمه .

3) اثر القرءان الكريم والحديث النبوي في تهذيب الالسنة وترقيق الطباع ووضوح الملكات .

4) اتصال العقل العربي بالآداب الاجنبية وتأثره بثقافات الفرس واليونان والرومان والهند وغيرهم .

5) العناية بكتابة الرسائل وجعلها صناعة فنية عتيدة الى جانب اتساع اعمال الدولة ، وديوان الرسائل الذي كان يتزعمه كبار الادباء والكتاب ممن انشاوا الرسائل البليغة على السنة الخلفاء والامراء ، وقد استطاع عبد الحميد ان يتصرف في نثره الفني تصرفا ذكيا يجمع بين طرفي الايجاز والاطناب ويراعي شتى الاحوال والمقامات ؛ وكان لقدرته على الايجاز في موضعه والاطناب في موضعه يتخير لكل منهما محله الذي يناسبه فيطنب في الاخبار بالفتوح والحث على الجهاد وفي الوعد والوعيد ويوجز في اخبار الهزائم ووصف الاعداء .. كما اطال في فواتح رسائله الادبية وخواتيمها بما يعد جديدا في هذا العصر ، كالاتيان بكثير من التحميدات في اساليب متنوعة وصور مختلفة، وكالبدء ببسم الله ثم اتباعها الحمد لله ، فاصلا بينهما باما بعد ، وغير ذلك . وبهذا عد عبد الحميد من اوائل من وضعوا الاصول والتقاليد الفنية في النثر الفني العربي وفحالته الادبية . وقد اكثر عبد الحميد من الرسائل الاخوانية التي ينشئها الكتاب البلغاء فتحمل ما في قلوبهم من مودة واخاء ، وتصور ما تجيش به مشاعرهم من مختلف العواطف والنزعات ، وتعبر عما يتردد في نفوسهم من آراء وافكار في اسلوب رائق ولفظ جميل وتصوير مؤثر ..

ولعبد الحميد رسائل بليغة ذكر ابن النديم انها تجتمع في الف ورقة لم يصل الينا منها الا القليل . وفي دار الكتب المصرية رسالة تنسب اليه ، وقد جمع محمد كرد علي في كتابه رسائل البلغاء كثيرا من الفصول الادبية التي تروى لعبد الحميد ، وقد ذاعت طريقه عبد الحميد وابن المقفع في توخي السهولة وسلامة التعبير مع العناية باجادة المعنى بين الكتاب في عصرهما وفي العصور الادبية كلها ، وهكذا مات العبقري الكبير ، وذهب الزمان بجل آثاره الادبية والفكرية والسياسية ، وخسر الادب العربي بذلك خسارة فادحة ..

د. عبد المنعم خفاجي

وقفة في محراب التصوف الاسلامي

السعادة عند الفارابي وابن سينا

للاستاذ: محمد الشوفاني

برز الفارابي في النصف الاخير من القرن الثالث الهجري فردا فذا، حاول بكل ما لديه من دهاء فكري، ومن تصرف عملي فريد ان يلفت اليه نظر النخبة العالمة من ابناء الامة الاسلاميه، ونتيجة طموحه الى اقرار فكرة «النبي الفيلسوف» شيد مذهبا برمته شمل جميع الجوانب التي تهم الانسان: الاجتماعية منها والدينية والاخلاقية والسياسية فكان عمله مبكرا بالنسبة الى عصره الذي يعمه في الخلافات الدنيوية ... وامتد اثر الفارابي الى ما بعده، وكان من اشهر من تلمذ عليه من كتبه معترفا بكل الفضل له: ابو علي الحسين بن عبد الله ابن سينا. واذ يهمنا هنا ان نستعرض «السعادة» كفكرة فلسفية لدى هذين الفيلسوفين الاسلاميين نبادر بان نقول كلمة عن مدلولها:

فالسعادة في اصلها، كانت نظرية اخلاقية تحولت على يد فلاسفة الاسلام الى ابحاث صوفية، وسأذكر مصادرها لدى الفارابي وغيره. والكلمة السعادة بديل هي كلمة «الاتصال» وسرعان ما سنفهم ان هذا الاتصال هو الاتصال بالله، بعد شوق مخلص، وانجذاب متفان من العبد الى خالقه .. يقول الفارابي في كتابه آراء اهل المدينة الفاضلة: «السعادة هي ان تصير نفس الانسان من الكمال في الوجود الى حيث لا تحتاج في قوامها الى مادة وذلك ان تصير في جملة الاشياء البريئة عن الاجسام وفي جملة الجواهر المفارقة للمواد، وان تبقى على تلك الحال دائما ابدا».

ولا يبعد مفهوم السعادة لدى ابن سينا عن هذا المفهوم في شيء بل هو هو، انه شوق العبد الى ربه والاتصال به، احترازا من الامتزاج به والحلول فيه وسنورد الفرق في ذلك، هذا الاتصال يكون بواسطة ضرب من الاشراق صادر عن العقل الفعال او العقل العاشر، يقول ابن سينا: «وليست السعادة مجرد لذة جسمية، بل هي غبطة روحية وسمو معنوي، واتصال بالعالم العلوي هي عشق وشوق مستمران، وما العشق الحقيقي الا الابتهاج بتصور حضرة الحق وما الشوق الا الرغبة الدائمة في كامل هذا الابتهاج» «والنفوس البشرية اذا نالت الغبطة العليا في حياتها الدنيا، كان اجل احوالها ان تبقى عاشقة مشتاقة لا تخلص من علاقة الشوق، اللهم الا من الحياة الاخرى».

وكما قلت آنفا انه لن يتيسر لنا ان نجد فرقا حقيقيا بين مفهوم السعادة لدى الفيلسوفين بل حتى في نسقهما الفلسفي الصوفي باجمعه وابادر بالقول ان تصوف الفارابي كان صميميا يباشر بالفكر والعمل وقد تجلى ذلك في ملبسه الدائم وفي ارتياده للغياط والاحراش واختلائه بنفسه الا من معاشرة الطيور والمياه، الشيء الذي لم يشبهه فيه ابن سينا اذ كان يقيم مجالس اللهو هو وتلامذته بعد الفراغ من الدرس. وشيء ثان: هو وضوح التلميذ وغموض الاستاذ، فلقد كتب ابن سينا بلغة مشرقة لا ابهام في كلامها، ولا يعاب على الفارابي عكس ذلك، فقد كانت نتيجة

طبيعية كما نقول، لحياته التأملية المحض. كما ان ابن سينا كان يستعمل مصطلحات كالعشق والوجد والزاهد والعارف والعابد وغيرها: ونتساءل الآن، هل السعادة وما قال فيها الفارابي وما قيل فيها بعده هو ابتكار فارابي خالص، ام لها اصول وجذور قبله. يقول الدكتور ابراهيم مذكور في كتابه: «في الفلسفة الاسلامية»: .. «اذا شئنا ان نعرف هذا المنبع، وجب علينا ان نصعد الى ارسطو والى كتاب: «الاخلاق النيقوماخية» بوجه خاص» كما يقول ان الاديموفيا الارسطية عماد لنظرية السعادة الفارابية، والاديموفيا هاته كلمة يونانية معناها السعادة، وقد اطلقها ارسطو على نظرية الخير الاسمى. كما اننا نجد شبها آخر بين السعادة عند الفارابي وابن سينا وبين «الاكستايس» او الجذب، كما جاء في مدرسة الاسكندرية وسنورد هذين النصين للمقارنة والايضاح: فالفارابي يقول: «ان لك منك غطاء، فضلا عن لباسك من البدن، فاجتهد ان ترفع الحجاب وتتجرد وحينئذ تلحق، فلا تسل عما تباشره، فان المت فويل لك، وان سلمت فطوبى لك، وانت في بدنك تكون كأنك لست في بدنك، وكأنك في صقع ملكوت، فترى ما لا عين رأت ولا اذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاتخذ لك عند الحق عهدا، الى ان تأتيه فردا» وسنرى الآن هذا التشابه في الفكرات والتعبير عندما نستعرض هذا النص من كتاب الربوبية «ربما خلوت احيانا بنفسي، وخلعت بدني، فصرت كأني جوهرا مجردا بلا جسم. فأكون داخلا لذاتي وراجعا اليها وخارجا من سائر الاشياء سواي، واكون العلم والعالم والمعلوم جميعا، وارى في ذاتي من الحسن والبهاء ما ابقى معه متعجبا، واعلم عند ذلك اني من العالم الشريف جزء صغير، وحين اوقن بذلك ارقى بذهني الى العالم الالهي وبخيل الي كأني قطعة منه، عند ذلك يلمع لي من النور والبهاء ما تكل الالسنة عن وصفه والآذان عن سمعه. ومن الغريب اني اشعر بأن روحي مماوءة ومع انها «تفارق البدن» واعتقد ان هذين النصين بدلالتنا على الصلات الرحمية بين الجذب لدى مدرسة الاسكندرية وبين الاتصال الفارابي، اما ابن سينا فله ما يقرب من ذلك في وصفه للعارف يقول: «ان للعارفين مقامات ودرجات يخوضون بها في حياتهم الدنيا دون غيرهم، فكأنهم في جلابيب من ابدانهم قد نضوها وتجردوا عنها الى عالم القدس، ولهم امور خفية فيهم، وأمور ظاهرة عنهم، يستنكرها من ينكرها، ويستكبرها من يكبرها»

وقبل ان نصل الى بسط موضوع السعادة والمراحل التى تتبع للوصول اليها والظفر بنعيمها نعرض الفرق بينها وبين الحلول الذى كان شائعا لدى المتصوفة حينئذ.

فنظرية الحلول هذه كان يتزعمها الحلاج والجنيد وجماعة من اتباعهما، وابرز فارق بينهما هو ان نظرية السعادة عند الفارابي وابن سينا تجعل النظر في المرتبة الاولى، ويأتي بعده العمل، اي انها تعتمد على التامل الفكري والتحليل العقلي للقضايا والمشاكل الفلسفية، اما نظرية الحلول فتعتمد على الزهد والتقشف، والاقتصار على الخشن من اللباس والمأكل والتخلي عن الشهوات الجسمانية. يقول الجنيد: «ما اخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن عن الجوع وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات».

وهناك فارق اخطر من هذا، وهو ما يوجد بين الاتصال والحلول، فالحلاج واتباعه يقولون بحلول اللاهوت في الناسوت، وذلك عندما يصل الانسان الى اعلى درجة من الاشراق او الهيام او السمو الصوفي.

اما الاتصال الفارابي السينوي فهو سمو انساني يحاذي العقل الفعال، والعقل الفعال هذا ليس الا العقل المفارق العاشر الذى يحتل القمر ويفيض باشراق على ما تحته، وهي الكائنات الارضية وفي مقدمتها يأتي الانسان ذو العقل المستفاد. ويتصدى ابن سينا للرد على نظرية الحلول هذه بدراية كاملة واسلوب منطقي دامغ يقول: «قد يقولون ان النفس الناطقة اذا عقلت شيئا فانما تعقل ذلك الشيء باتصالها بالعقل الفعال، وهذا حق، قالوا واتصالها بالعقل الفعال هو ان تصير هي نفس العقل الفعال، لانها تصير العقل المستفاد. والعقل الفعال هو نفسه يتصل بالنفس فيكون العقل المستفاد وهؤلاء بين ان يجعلوا العقل الفعال متجزئا قد يتصل منه شيء دون شيء، او يجعلوه متصلا بكليته بحيث يصير النفس كاملة واصلة الى كل معقول (وكلا الفرضين باطل). لعل ان الاصالة في قولهم ان النفس الناطقة هي العقل المستفاد حينما يتصورونه قائما». ويستمر ابن سينا في مناهضته لمن يقولون بالحلول «ان قول القائل، ان شيئا ما يصير شيئا آخر، لا على سبيل الاستحالة من حال الى حال، ولا على سبيل مثع شيء آخر ليحدث شيء ثالث، بل على انه كان شيئا واحدا فصار واحد آخر. قول شعري غير معقول، فانه ان كان واحد من الامرين موجودا فهما اثنان متميزان، وان كان

احدهما غير موجود فقد بطل الذي كان موجودا » . اما الفارابي فيشدد على دور العلم في الاتصال ، واساس السعادة عنده هي الارادة ، وهي عنده ليست مطلقا ارادة ، فهناك ارادة تكون عن احساس وتخيل وهذه يشترك فيها الانسان والحيوان ، اما الارادة المقصودة فهي ما يمكن ان يطلق عليها الاختيار كذلك وهذه تحصل لدى الانسان « بتأمل وروية وذكرى وتشوق الى الاستنباط ، ونزوع الى بعض ما عقله وشوق اليه والى بعض ما يستنبطه او كراهته ».

وقد آن لنا في الاخير ان نبسط القول في نظرية السعادة ونعرض للمراحل الموصلة اليها :

قلنا قبل الآن : « ان السعادة عند الفارابي وعند ابن سينا هي سمو بالروح للاتصال بالعقل الفعال ونضيف انها غاية الغايات التي لا غاية بعدها وانها السعادة الخالدة المطلقة ، وانها شوق الى ذلك متعال، وهي ليست في متناول الجميع ، فلا تصلها الا الارواح القدسية التي تطهرت من جميع مفاسد الحياة وانقطعت الى التأمل في صنعة الصانع ، فما هي الروح القدسية هاته ؟ .. يقول الفارابي : « الروح القدسية لا تشغلها جهة تحت عن جهة فوق ، ولا يستغرق الحس الظاهر حسها الباطن ، وقد يتعدى تأثيرها من بدنها الى اجسام العالم وما فيه ، وتقبل معلومات من الروح والملائكة بلا تعليم من الناس . والارواح العامية الضعيفة اذا مالت الى الباطن غابت عن الظاهر . واذا مالت الى الظاهر غابت عن الباطن ... واذا اجتمعت من الحس الباطن الى قوة غابت عن اخرى، مثل البصر يخيل بالسمع ، والخوف يشغل عن الشهوة ، والشهوة تشغل عن الغضب ، والفكرة تصد عن الذكر ، والذكر يصد عن التفكر. اما الروح القدسية فلا يشغلها شأن عن شأن » هذه هي الروح القدسية فاحساساتها فوق الاعتبارات البشرية ، اي لا يشغل بعضها عن بعض بل تحتفظ بتذكرها وتفردها وانفصالها .

قلنا فيما قبل ان السعادة عند ابن سينا كما هي عند الفارابي شيء واحد وفصلنا القول في الفرق الموجود بين الفيلسوفين على المستوى الفلسفي الصوفي بوجه لا فيما يخص نظرية السعادة وهذا ما ارغمنا على النظر الى السعادة وكاننا نراها من وجهة نظر واحدة ، فلقد افاض ابن سينا وشرح ووضح ولكنه لم يخرج عن خط السير العام لدى استاذه ، ونتيجة لذلك فاتنا نشمل راي الفيلسوفين في السعادة من هذا النص الذي نأخذه من كتاب آراء اهل المدينة الفاضلة : فالسعادة « انما تبلغ بافعال ارادية ، بعضها افعال فكرية ، وبعضها افعال بدنية ، وليست بأي افعال اتفقت ، بل بافعال ما محدودة مقدرة تحصل عن هيئات ما وملكات ما مقدرة محدودة، وذلك ان من الافعال الارادية ما يعود الى السعادة . والسعادة هي الخير المطلوب لذاته ، وليست تطلب اصلا ولا في وقت من الاوقات لينال بها شيء آخر ، وليس وراءها شيء آخر يمكن ان ينال الانسان اعظم منها ، والافعال الارادية التي تنفع في بلوغ السعادة هي الافعال الجميلة . والهيئات والملكات التي تصدر عنها هذه الافعال هي الفضائل . وهذه خيرات هي لا لاجل ذواتها بل انما هي خيرات لاجل السعادة ، الافعال القبيحة . والهيئات والملكات التي عنها تكون الافعال القبيحة . والهيئات والملكات التي عنها تكون هذه الافعال هي النقائص والرذائل والخسائس »

محمد الشوفاني



صراع القيم الجاهلية والاسلامية في شعر حسان بن ثابت

للأستاذ الأمين أبو أحمد

(شاعر ، مؤرخ ، مناضل ، اتصل فى الجاهلية بالغساسنة فكان شاعر بلاط ، وانقطع فى الاسلام الى النبي ، فكان شاعر دين وسياسة وكفاح) .

وهكذا يرى المؤرخون حسان بن ثابت الانصاري، شاعر النبي ، ورفيقه فى جهاده وخطواته جميعها .

ويجمع الرواة والمؤرخون ايضا ان حسان عاش مائة وعشرين سنة ، ستين فى الجاهلية ، وستين فى الاسلام . وقد اتاحت له حياته الطويلة العامرة ان يتصل بمختلف اصناف الناس فى كلتا المرحلتين ، وان يعايش بالتالي نماذج متباينة من السلوك والاخلاق والقيم .

وحسان فحل من فحول الشعراء كما يرى ابو الفرج الاصبهاني ؛ بل ان الحطيئة يذهب الى ابعد من ذلك حين يقول : (ابلغوا الانصار ان شاعرهم اشعر العرب حيث يقول :

يغشون حتى ما تهر كلابهم

لا يسألون عن السواد المقبل

وحسان بهذا المعنى شاعر يحسب له الف حساب فى تاريخ الشعر العربي ، فقد انشد فى مختلف اغراض الشعر المعروفة من مدح وهجاء ورثاء وغزل وفخر ، وتناول فى قصائده قضايا متنوعة تتعلق بالحياة والدين والسياسة والحروب .

والى جانب هذا وذاك فقد كانت قصائده خير مرآة تنعكس عليها خطوات النبي (ص) واعماله فى سائر المجالات وبالتالي صفاته ومزاياه ، بالاضافة الى تصويره تصوير المؤرخ الامين لحوادث زمانه ، وخصائص الدعوة المحمدية ، والمراحل والاشواط التى قطعتها ، وقدرته على استيعاب مكونات البيئة الاجتماعية التي تحيط به .

وقد عاش حسان حياته الجاهلية وسط بلاط الامراء والملوك ونادمهم ومدحهم بقصائد عديدة من شعره ، فنال من نعمهم وخيراتهم ، واصبح مقربا الى مجالسهم محببا الى قلوبهم ، يشاركهم حياتهم العامرة بشتى اصناف المرح والمجون ومختلف اشكال الترف والرخاء .

وكل كائن كما يرى الاستاذ امين الخولي (يتأثر بما حوله من واقع الحياة ماديا ومعنويا ذلك التأثر الذى لم يفت القدماء انفسهم التنبه الى اصله ، حين يتحدثون عن تأثير البقاع على الطباع) (1)، لذلك فقد لازمت حسان فى حياته الطويلة الحافلة عدة صفات وطباع ، اكتسبها من احتكاكه الدائم بالمناذرة والغساسنة ، ومن اتصاله المستمر بملوكهم وامرائهم .

. . . . . .

---

1) امين الخولي : مالك ، تجارب حياة ، ص 138

واذا كان الادب ديوانا لعواطف الامم وكنزا لاحداثها وتجاربها وتاريخا لعاداتها وتقاليدها ، وسجلا لما في الانسان من مشاعر وغرائز واداة اصيلة في توجيه الحياة الانسانية ومسايرتها على الدوام في جميع العصور) (1) فان شعر حسان عموما اصدق مثال على ذلك ، فقد كان ديوانا دقيقا لعواطف امته وكنزا لخبراتها ومواقعها وسجلا لمشاعر الانسان ونزواته المتعددة .

فلا نتردد اذن في ان قصائد حسان قد زخرت باشكال متباينة من القيم وبسلوكه الانساني .

وهذا يثير في نفوسنا بصورة غير مباشرة شيئا غير قليل من الحيرة والاستغراب ، ويدفعنا بالتالي الى التساؤل عن تاثير كلتا المرحلتين في شعره وعن صراع القيم الجاهلية والاسلامية في شعر حسان بصفة عامة .

وايسر النظر في شعره يؤكد حقيقة واضحة لا سبيل الى الشك فيها ؛ وليس المهم ان تكون هذه الحقيقة قديمة او جديدة ، ولكن المهم ان نقف عندها لتحليل جوانبها وسبر غورها وبالتالي لمحاولة تاكيدها والتركيز عليها .

هذه الحقيقة تبدو في كثير من الاحيان معوجة ملتوية ، ولكنها في اشد الحاجة الى تحليل سليم واضح ، لتقويم اعوجاجها ، واصلاح ما بها من عطب .

فقد بدل الاسلام من قيم حسان وطبائعه واستطاع ان يغير مجرى حياته كلها ؛ وان يجعلها تسير في اتجاه جديد ، بل ان الاصمعي يؤكد ان تأثير الاسلام كان واضحا حتى في ادبه (فقد كان شعره في الجاهلية اقوى منه في الاسلام من حيث التذكار والخيال والمتانة).

ومع ذلك فاننا لا نعدم من يضيف الى ذلك تمسك حسان ببعض القيم الجاهلية ، على الرغم من الانقلاب الضخم الذى احدثه الاسلام في حياته . غير ان هناك من ينفي هذه القضية ويؤكد ان الاسلام (بدل من عقلية الشاعر وآرائه وتصرفاته) واحدث تغييرا شاملا في مختلف مرافق حياته .

واكبر الظن ان الراي الاخير اقرب الى الحقيقة وادنى الى الصواب .

وسيرة حسان في الجاهلية تثير شيئا غير قليل من الشك والحيرة ، فهو يجالس الامراء ويقارع الخمرة ، ويمدح ملوك غسان ويسترجع ذكرياته واياهم ، ويصفهم بالكرم والسخاء ، وانهم يعيشون حياة خير ورزق ورفاهية وازدهار :

لله در عصابة نادمتهم
يوما بجلق في الزمان الاول

يسقون درياق الرحيق ولم تكن
تدعى ولائدهم لنقف الحنظل

بيض الوجوه كريمة احسابهم
شم الانوف من الطراز الاول

وهذه الابيات توضح حقيقتين مستقلتين :

1) الحقيقة الاولى ان شاعرية حسان كانت في الجاهلية متدفقة مبدعة ، كما يرى ذلك الاصمعي نفسه .

2) والحقيقة الثانية ان حسان كان يشرب الخمر وينادم الملوك والامراء قبل الدعوة المحمدية ؛ وان قيم الجاهلية واخلاقها كان لها الاثر الواضح في شعره .

وحسان شاعر قوي الشعور ، دقيق التصوير ، بارع الاجادة تقلب في مجالس الامراء والملوك ، وصور هذه الحياة تصويرا رائعا في قصائد متعددة ، وهو الى جانب ذلك شهد الايام التى كانت بين الاوس والخزرج وعايش عن قرب تلك المطاحنات التى كانت بين القبيلتين . فاشار في شعره الى هذه الايام وصورها خير تصوير كما نجد ذلك في يوم بعاث ويوم الربيع وغيرهما .

على هذا النحو يسير حسان في مختلف اطوار حياته يتناول قضية من القضايا فينشد في تصويرها قصائد متعددة ، حتى اذا فرغ منها عاد الى اخرى يستلهمها شعرا نابضا يتدفق قوة وجزالة .

وهل حياة الشاعر في كل مكان الا هذا : تصوير متصل للبيئة ، ووصف نابض بالحركة للناس والمجتمع والحياة .

وحسان في تادية ذلك متاثر غاية التاثر بقيم الجاهلية واخلاقها يكلف بسلوك اهلها ، وبسيرة شعرائها .

---

(1) طاهر الطناحي : نظرات في الحرب والسلام ، مجلة الهلال يناير 1961

لنقف عند هذه الابيات من قصيدة لحسان :

الم ترنا اولاد عمرو بن عامر
لنا شرف يعلو على كل مرتقى

رسا في قرار الارض ثم سمت له
فروع تسامى كل نجم محلق

ملوك وابناء الملوك كاننا
سواري نجوم طالعات بمشرق

اذا غاب منها كوكب لاح بعده
شهاب متى ما يبد للارض تشرق

انه يفتخر بسمو نسبه وعلو مكانة اهله، ويتحدث عن شرف مرتبته ورفقة اصله .

ومن المحقق ان الفخر بالنسب وعلو المكانة ، كان من الاغراض الاولى للشعر الجاهلي بصفة عامة ، وسنرى فيما بعد ان ظل الفخر ظل ملازما له حتى بعد ظهور الاسلام وانتظامه في صفوف المسلمين يعزز صفوفهم ، ويرد عنهم هجمات الكافرين .

ليس من شك اذن في ان حسان تأثر بالقيم الجاهلية ، وتبدو آثار ذلك واضحة في شعره : فهو يصف الخمر ومجالس اللهو ويفتخر بنسبه وعلو شأنه ، ويمدح الملوك والامراء لينال عطاياهم وهباتهم الى غير ذلك .

وليس من المعقول ان يعيش شاعر ما في بيئة معينة او مجتمع ما دون ان يكون لقيم تلك البيئة او ذلك المجتمع صدى في شعره واثر في نتاجه .

. . . . . .

ويظهر الاسلام ، ذلك الحدث الهام (بل الثورة البيضاء الهادئة) ، تلك الثورة على (الاوضاع الاجتماعية الظالمة ، والانظمة السياسية البالية ، والخرافات الدينية المزرية) .

ويقدر لحسان ان يعيش في ظل الاسلام مدةطويلة من الزمن ، وان يتصل بالرسول (ص) ، وبالتالي ان ينشد في مدح الدين الجديد ، والدفاع عنه قصائد مختلفة من شعره .

ويعتقد عبد الله انيس الطباع ان حسان (انسلخ عن تاريخه ، وعن حياته ، ليلازم منذ اليوم رسول الله ، ويصبح شاعر النبي يرافقه في حياته الجديدة التى كتبها الله له ، ويرافقه في جهاده وفي امور كثيرة ، فيؤرخ حياة النبي الكريم ، ويؤرخ مواقع المسلمين) .

وهو صادق فيما يقول ، فقد احدث الاسلام ثورة كبرى في حياته وانقلابا عظيما في سلوكه وقيمه واخلاقه . فاصبح ينشد الشعر ابتغاء لرضا الله ورسوله ويؤلف الكلم تقربا الى الله جل جلاله ، يدافع عن عباده ، ويهجو اعداء الاسلام ، ويرفع من قدر النبي (ص) ويصفه بأعظم الاوصاف واكبرها :

اغر عليه للنبوة خاتم
من الله مشهود يلوح ويشهد

وضم الاله اسم النبي الى اسمه
اذا قال في الخمس المؤذن اشهد

وشق له من اسمه ليجله
فذو العرش محمود وهذا محمد

وواضح جدا أن هذه الابيات تنبض صدقا وواقعية ، فهي تصور مكنون صدره ، وعظيم حبه لشخص الرسول ، وبالتالي للدين الجديد الذى انقذ العرب من براثين الجهل والغواية .

وهو يشير في شعره الى مبادىء الاسلام وتعاليمه السامية ، ويعلن بالتالي (ايمانه بالله تعالى وانه اله الخلق ، خلق العالم وابدعه واوجده ، وانه يقدسه تعالى ويجله .

وانت اله الخلق ربي وخالقي
بذلك ما عمرت في الناس اشهد

تعاليت رب الناس عن قول من دعا
سواك الها انت اعلى وامجد

لك الخلق والنعماء والامر كله
فاياك نستهدي واياك نعبد

وهو يتاثر بقيم الاسلام وتعاليمه ، ويصور (اوضاع الجزيرة العربية ، وكيف جاء النبي الاكرم يدعو الناس الى عبادة الله ، بعد هذه الحقبة الطويلة التى عم فيها اليأس النفوس ، وتاه العباد حتى اخذوا يصنعون الاصنام بايديهم ثم يخرون لها ساجدين، فاذا النبي يستحيل (ص) مصباحا منيرا ينير ما اكتنف العالم من ظلمة ويبدد ما علق في قلوب الناس وارواحهم من جهالات) .

نبي اتانـا بعـد يـأس وفتـرة
من الرسل والاوثان في الارض تعبد

فامسى سراجا مستنيرا وهاديـا
يلوح كما لاح الصقيـل المهنـد

وانذرنـا نـارا وبشـر جنـة
وعلمنـا الاسـلام فاللـه نحمـد

ويمدح حسان رسول الله ، ويدافع عنه امام خصومه ، ويصف ما لقي من قريش ، وما اعتـرض طريقه من معضلات وعراقيل :

واصبح لا يخشـى عـداوة ظـالم
قريب ولا يخشى من النـاس باغيـا

بذلنا له الامـوال من جـل مالنـا
وانفسنا عنـد الوغـى والتآسيـا

نحارب من عادى من النـاس كلهم
جميعا وان كان الحبيـب المصافيـا

ونحـن نعلـم ان الله لا رب غيـره
وان كتـاب اللـه اصبـح هاديـا

وهو يذكر شهداء المسلمين في قصائد كثيـرة ، وكيف عاهدوا النبي على نصرتـه ، ويصف معـارك المسلمين واستبسالهم :

وفوا يوم بـدر للرسـول وفوقهـم
ظلال المنايـا والسيـوف اللوامـع

الخ..

ويرى الاصمعي ان شعر حسان في الجاهلية اقوى منه في الاسلام من حيث التذكار والخيال والمتانة ، ويروي ان حسان سئل عن ذلك فقال : ان الاسـلام حرم الكذب ، والشعر لا يجمله الا الكذب والخيـال والتذكار لا يقومان الا على هذا النوع من القول .

وهكذا نرى ان حسان تاثر بقيم الاسلام وتعاليمه، وهجر تقاليد الحياة الماضية وعاداتها ، فقد آمن بالنبي ايمانا صادقا وجاهد في سبيل دعوته واوقف نفسه وادبه على نشـر هذه الرسالة الجديـدة التي عـم خيرها الجزيرة العربية، وتعداها الى سائـر ارجـاء الارض)

ونأخذ الامر بشيء من التحفظ ، فنـذكر ان بعض تقاليد الجاهلية ـ وان كانت قليلة جدا ـ ظلت ملازمة له في حياته الاسلامية : فهو يفخـر ويعتـز بنفسـه ـ على سبيل المثال ـ في مناسبات عديدة :

وكنا ملـوك النـاس قبـل محمـد
فلما اتى الاسلام كـان لنـا الفضـل

هو اذن في شعره الاسلامي كما هو في شعره الجاهلي متاثر غاية التاثر بما يحيـط به من عـادات وسلوك وقيم ، مضطر الى الاخذ منها والارتواء مـن معينهـــا .

وقد كان لقيم الاسلام وتعاليمـه اكبـر الاثـر واوضحه في شعره بل انها تبدو في شعـره اشـد وضوحا واكثر نصاعة من قيم الجاهلية وعاداتها تلك التي امست باهتة خافتة لا يكاد يسمع لها صوت في شعر حسان .

. . . . . .

وهذا شعر حسان بين ايدينا صورة صادقـة لذلك ، ومرآة واضحة ينعكس عليها ما يخالجـه من شعور ، وما يملأ قلبه محبة لهذا الدين الجديد الذى انقذ الجزيرة العربية واخرجها من الظلمات الى النور، واشاع بين اهلها روح المحبة والوداد والصفاء .

القصر الكبير ـ محمد الامين ابو احمد



للأستاذ : عبد القادر زمامه

194 ـ ليس لها كالتراب طبيب ..!

وجدت من شعر الشاعر الفحل ع ادريس السناني رحمه الله في وصف امة شمطاء حدباء .. :

وجارية شبه سعد الاديب
لوجه قبيح وجسم معيب

عجوز تجاوز ام الحليس
بدهر طويل مديد رحيب

حقيدة حام !.. على انها
رائه وقد دخلت فى المشيب

اذا ما مشت وقفت ريثما
تئن انين العليل الغريب

وان صعدت درجا كيفما
تكاد من الغشيان تغيب

وتقسو كخنفسة بيننا
فتلجئنا لبخور وطيب

وقد فض فوها قديما فما
تحب من القوت الا الحليب

وتندب ناسا لها ملكوا
فتنشد بالحال قول اللبيب

« متى يجمع الله شملي بكم
فقولوا قريب. قريب. قريب»

فلو لم يكن فى الاما غيرها
لسيبها ..! واستراح الاريب

فقولوا اخي العقل فى شانها
فليس لها كالتراب طبيب ..!

195 ـ سبحان ... جمع لسابح ...!

من الغرائب المروية عن ابن حزم الظاهري .. رحمه الله .. ما وجدته فى ـ برنامج الرعيني (1) ـ المتوفى بمراكش سنة 666 هـ :

« .. حدثني الحافظ ابو بكر بن الجد .. قال حدثني ابو الحسن بن الاخضر . قال : حدثني ابو الحجاج الاعلم انه لقي ابن حزم . فقال له مكان التحية : يا استاذ .. هل تجمع العرب « فاعلا » على « فعلان » ؟ قال : فقلت له : نعم .. واخذت اورد له امثلة على جهة البيان .. فطفق يركض دابته غير مصيخ للجواب ! وهو يقول : ارحتني من سبحان ..! ارحتني من سبحان ..!

ثم زاد الرعيني ... ان ابن حزم قال للاعلم : فما يمنع ان يكون « سبحان » جمع سابح .. !!
قال الاعلم : فعجبت من جهله .. !!

(1) مطبوع بدمشق . والوجادة فى ص. 33

196 ـ من طرائف ابن حزم ..

وجدت في كتاب « الفصل في الملل والاهواء والنحل » هذه الفقرات في نقد المعارف اليونانية ..!

« زعم قوم : ان الفلك والنجوم تعقل ..! وانها ترى وتسمع ..! ولا تذوق ولا تشم ..! وهذه دعوى بلا برهان ..! وما كان هكذا فهو باطل مردود عند كل طائفة باول العقل ..! اذ ليست اصح من دعوى اخرى تضادها وتعارضها ..! وبرهان صحة الحكم بان الفلك والنجوم لا تعقل اصلا . هو ان حركتها ابدا على رتبة واحدة ..! لا تتبدل عنها . وهذه صفة الجماد المدبر .. الذي لا اختيار له ..! فقالوا : الدليل على هذه ان الافضل لا يختار الا لافضل العمل ... فقلنا لهم :

ـ ومن اين لكم ان الحركة افضل من السكون الاختياري ...؟

197 ـ قد صرتم اخوة ...!

في كتاب البيان المغرب لابن عذاري ج 1 ص 27:

« وكانت الكاهنة لما اسرت ثمانين رجلا ، من اصحاب حسان ، احسنت اليهم .. وارسلت بهم الى حسان ..! وحبست عندها خالد بن يزيد ..! فقالت له يوما : « ما رايت في الرجال اجمل منك .. ولا اشجع ..! وانا اريد ان ارضعك ...! فتكون اخا لولدي ...! وكان لها ابنان : احدهما بربري .. والآخر يوناني .. وقالت له : نحن جماعة البربر لنا رضاع .. اذا فعلناه نتوارث به .! فعمدت الى دقيق الشعير ... فلتته بزيت .. وجعلته على ثدييها ..! ودعت ولديها .. وقالت : كلا معه على ثديي ..! ففعلا .. فقالت :

« قد صرتم اخوة » ....!!!

198 ـ وان ارجوها ..!

وجدت من شعر الشيخ حمدون ابن الحاج رحمه الله .. هذه الابيات في شراب القهوة ..

اتى بقهوة بن
كالمهل يشوي الوجوها

بيس الشراب وساءت
نار لها اججوها

فلم يطب شربها لي
يوما وان ارجوها ..!

199 ـ اغناني الله ... عن لفتك وفجلك ..!!

وجدت في الرسالة التي بعث بها ابو القاسم الزياني الى عامل مدينة فاس .. الطيب الوديني هذه الفقرات ..

« وبعد .. فقولك تفتخر على الناس في السر والنجوى .. انك توجه لي الدجاج، واللحم، والحلوى. هل (كذا) قلت لك ما اوجه لك من انواع المربيات ! وكعاب الغزلان ! والعربيات ..! ومقطرات الورد والزهر والطيب .! الذي يتطيب به كل نجيب .. وتحف البلار والودع ..! الذي غلا ثمنه وارتفع ..! ولما اولمت لابنك وجهت لك الهدية المعتبرة ..! بالمزامر والطبول ..! فاقتدى به في ذلك الخصيان والفحول ..! ومن فواكه الصيف والخريف ..! من كل رطب ، ويابس ، لطيف .. ولما بلغني ذلك استغفرت الله من معرفتك .! وتبت الى الله من صحبتك .. فلا تراسلني .. ولا اراسلك ..! ولا تواصلني بشيء ، ولا اواصلك . فقد اغناني الله عن لفتك وفجلك ..!! وقرعك وبصلك ..!! وعن دجاجك .. ولحمك ..!!! »

200 ـ مسيلمة .. واشعب ..!

وجدت في فهرست القاضي عياض السبتي .. في ترجمة شيخه الاديب ابي بكر محمد بن عبد الله ابن البراء الجزيري ..

ومما انشدنا من شعره لنفسه :

دعوتني فظننت انك صادق
وظللت من طمع اجيء واذهب..!

فاذا اجتمعت انا وانت بمجلس
قالوا: مسيلمة.! وهذا اشعب..!

(وبمسيلمة يضرب المثل في الكذب ..! وباشعب يضرب المثل في الطمع ..!)

201 ـ فهو حي كميت والسلام ..!!

وجدت هذه القطعة في كناشة احد العلماء منسوبة للشاعر الاندلسي صالح بن شريف الرندي..

ابن عشر من السنين غلام
رفعت عن امثاله الاقلام

ليس يثنيه عن هواه مــلام

فــاذا بلغ الثلاثيــن عامــا
بلغ الهوى حــده . والغــرام

فاذا بلغ الاربعيــن فعقــل
وكمــال وشــدة وتمــام

وابن خمسين مر عنه صبــاه
فــرآه كــانــه احــلام

وابن ستين صيرتــه الليــالي
هدفا للمنــون وهــي سهــام

ه الا اتـــاه الحــمــام

فــاذا بلــغ الثمانيــن عامــا
بلــغ الغايــة التــى لا تــرام

وابن التسعين لا تسلني عنـ
ـه فابن تسعين ما عليه كلام

فان زاد بعد ذلــك عشــرا
فهو حــي كميــت والســلام

فاس — عبد القــادر زمامــه





رشف الربيع مباسم الازهار ... فتنفست عن طيبها المعطار
وتفتقت اكمامها عن جنة ... خضراء بين نضارة ونضار
من كل ناعسة يدغدغ جفنها ... لثم الندى في غفوة الاسحار
فينض برعمها غلائل حسنه ... ويحل عنه معاقد الازرار !
ليعانق الشمس الحبيبة لابسا ... من تجها الذهبي خير صدار
والارض نشوى في مطارف وشيها ... تختال بين شقائق وعرار
مسحت يداها الثلج عن ربواتها ... وتعممت بعمائم الازهار !
روى الغمام مروجها وسهولها ... وسقى الربى بصبيبه المدرار
وكأن صدر الارض ضاق بحمل ما ... افضى الغمام به من الاسرار !
فتنفس الصعداء عطرا اسكرت ... نفحاته الدليا بلا اسكار
وتكشف السر المصون زرابيا ... من سندس ملفوفة في غار
وحدائقا خضراء غرد طيرها ... وشدا على عود بلا اوتار
ومباهجا وضاءة في ربوة ... او روضة ، او جدول مختار
ومواكبا للحسن اثر مواكب ... يشدو الرعاة لها على مزمار
لحق الهوى ، للنافرات من الهوى ... الكاويات قلوبنا بالنار !
لمس الربيع قلوبها فتفتحت ... للحب مثل تفتح الازهار
وسمعن الحان الرعاة فطرن في ... خضر الحقول هوى مع الاطيار
ينظمن اطواق الزهور قلائدا ... تنسي الغواني غالي الاحجار !

من كل فاتنة الدلال غنية ... بجمالها عن سلعة العطار !
ذابت خيوط الشمس في وجناتها ... وردا تفتح عن ضياء نهار
وسلا الفراش مراشفا يرتادها ... لما استطاب مراشف الابكار !!

* * *

اطياف حسنك يا ربيع عرائس ... مجلوة كمسارج الانوار
تبدو لنا فاذا الحياة جميلة ... فاذا توارت فالحياة صحاري !
اطياف حسنك اطلقت من سجنها ... روحي وفجر سحرها اشعاري
لولاك ما غنى مغن لحنه ... يوما ووقعه على قيثار
مستلهما انفاسه من جدول ... ينساب عربيدا بلحن هزار
لولاك كان العيش في دنياي ليلا ... قاتما محلولك الاستار

* * *

وافى الربيع وفي فؤادي مأتم ... وجراح حزن بالغ الآثار
وربيع اخواني هناك مدامع ... تجري دما في موطن الاحرار
في القدس في سينا وفي جنباتها ... وعلى ضفاف النهر في الاغوار
شعب يصوغ ربيعه بدمائه ... ويرى الزهور قذائفا من نار !
شعب اراد فهب رعدا قاصفا ... متدافعا في ثورة الاعصار
ليعيد ارضا دنست حرماتها ... صهيون في صلف وفي استكبار
في الستة الايام صرنا لقمة ... وشويهة في قبضة الجزار !
سكتت مدافعنا وذاب حديدنا ... وغدت كتائبنا بلا اظفار !
وخلت مواقعنا كأن لم يحمها ... قومي بجيش عروبة جرار
الستة الايام كانت لعنة ... للعرب تصرخ في دم الاحرار
الستة الايام كنا قبلها ... مجدا اقيم على شفير هاري
صهيون تحشد نارها ودمارها ... والعرب يمكر جارها بالجار
والحرب ليست لعبة او سهرة ... حمراء تمتع انفس السمار
ما الحرب الا ثورة لا تعتلي ... راياتها الا يد الثوار !
والعروبة ! ضيعت في جولة ... ما قد تبقى من مغاني الدار !
كانت هزيمتنا نتيجة ضعفنا ... ومن التخاذل لا من الاقدار !
اني لآمل ان تهب جموعها ... في وحدة كبرى لاخذ الثار
فاذا الهزيمة قوة وعزيمة ... واذا العدا خبر من الاخبار

لا ترقصوا للزهر في خضر الربى   والطير يسبح في شذاها الساري

فربيع يعرب ليس في ازهارها   لكنه في محوها للعار !

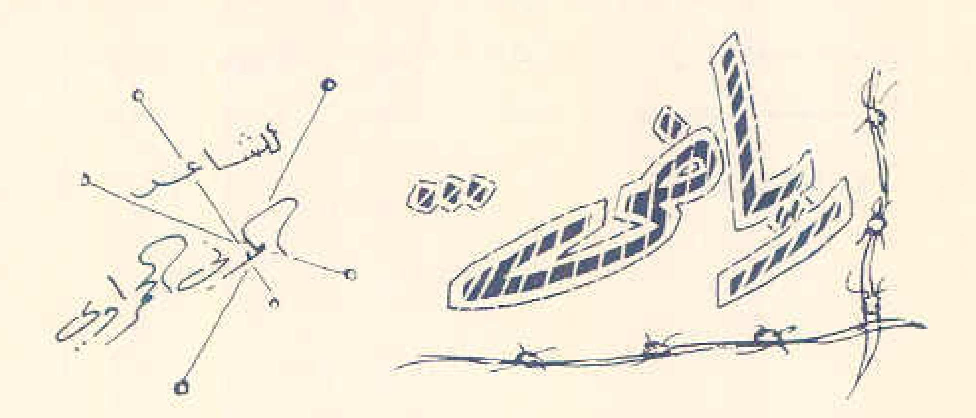
كانت هزيمتنا نتيجة ضعفنا   ومن التخاذل لامن الاقدار !

لا ترقصوا للزهر في خضر الربى   والطير يسبح في شذاها الساري

فربيع يعرب ليس في ازهارها   لكنه في محوها للعار !!

محمد الحلوي





رياض ! بورك عرق	بمثل نفسك جادا
دعاك للموت حق	فكنت شهما جوادا
عزيمة الحر صدق	تكاد تحيي الجمادا
رياض ! شرفت جيلا	شقيت فيه غليلا
وصرت فيه دليلا	هدى وشق السبيلا

* * *

رياض احييت شعبا	بفضل مثلك يحيى
غداة قابلت حربا	دهت بلادك بغيا
تروم محقا وغصبا	فخاب « صهيون » سعيا
وقفت ليثا هصورا	فكنت للنيل سورا
وكنت فى النار نورا	اضاء منا الصدورا

* * *

فهب جيشك يجري	الى العدو غضوبا
ومثل فعلك يفري	بنبل نصر قلوبا
شجاعة ، ولعمري	غدت تفل الخطوبا
جعلت روحك مهرا	به تزوجت نصرا
سكنت فى الخلد قصرا	وان توسدت قبرا

* * *

ما بين صبح وليل	كسبت أثمن كنز
بروح صدق ونبل	ادركت اشرف فوز

فلم تنل بقتل   قصرت اشرف رمز
تركت للعرب مجدا   يفوت فى الفخر حدا
وصرت فى الشرق فردا   يريه بالفعل قصدا

* * *

اذا تلبد بأس   رءاك خير مثال
فلا يصده بأس   عن اعتساف النزال
ففى المعارك انس   لمن يروم المعالي
شعب العروبة امسى   اشد عزما وبأسا
اذن سيرجع قدسا   ويطمس البغي طمسا

* * *

له فلسطين ارض   حبيبة عربيه
فداؤها هو فرض   على نفوس ابيه
فالعزم حق ومحض   والحرب صارت عتيه
تلك الكتائب تفدي   حمى اضيع بكيد
تشن في كل نجد   على العدى حرب جد

* * *

فلا يذوقون نوما   ولا يحسون امنا
يرون يوما فيوما   هو لا يزلزل ركنا
سيدرك النصر حتما   شعب بحقه ضنا
« صهيون » ! قد حان صبح   يميط زورا ويمحو
هناك يكمل فتح   له بقلبك جرح

* * *

بني العروبة هيا !   صفا الى العيش يسعى
فكيف فى الدار يحيى   شخص يجاور افعى ؟
وكيف تؤمن دنيا   والشر بالباب اقعى
ان اليهود وباء   على الحياة وداء
« صهيون » فيها شقاء   والداء منه عياء

* * *

رياض فى الخلد اضحى   شهيد حق كريم
مضى وخلف قرحا   فى كل قلب رحيم

يقول ليلا وصبحا خذوا بثار عظيم

رياض! شعبك ثارا على العدى واغارا

وادرك اليوم ثارا محا عن العرب عارا

* * *

وهبت العرب صفا تخط عزا طريفا

وتقطف النصر قطفا يعد حقا شريفا

قد صارت الارض طرفا يرى صراعا عنيفا

ما بين شعب مجيد وبين بغي عنيد

ما بين حق وطيد وبين زور شديد

الرباط ــ المدني الحمراوي



قصـــة شعرية تــروي مأساة نازحـــة اجـلاها
الصهاينة عن موطنها عام 1948 ولا يضيرها ان تنشر
عام 1969 فالمأســـاة هي هي . . .

هــذي بقايــا ادمــع قانيـــة ومهجـــة ، مكلومـــة ، داميـــة
لمثلها ، والليل ، في صمته يرمقني ، والنجمة الساريـــه
. . . ترسلها «ليلى» الى ربها بقية، مـــن روحهـــا ، باقيـــة
باكية القلـــب ، ويـــا لهفتــــا على انين الغـــادة الباكيـــة !!

انشـــودة كئيبـــة في فـــمي
لكنهـــا في اضلعـــي داويـــة
ابكي بها القدس ومسرى العلى
واندب «الاندلس» الثانية . . .

على الدرب ، والفجر شق الظـــلام وارخــى ذؤاباتـــه الساطعـــة
وشدو مـــن الطيـــر حلـــو اللحـــون ، ترجعـــه الفتنـــة الساجعـــة
وطـــل ينضـــر قلـــب الحيـــاة ، فيوقـــظ اعينـــها الهاجعـــة
. . . على الدرب لاحت ، وفي عينها ، بقايـــا دجى حالـــك ، قابعـــة
بلغلفها البؤس ، يا للشقـــاء !! وتحضنهـــا الحيـــرة الجائعـــة . . .

وقفت أسائلهـــا ما الـــذى ، يحيـــط بهـــا مـــن ضـــروب الالـــم
وما في الجوانـــح مـــن ذكريـــات غـــوال ، وحـــب هنـــاك انحطـــم
لم الدمـــع ؟! يا اخت لا تذرفيـــه ، وخليـــه للمرتجـــى . . ان عتـــم
وهـــات شكاتـــك ، نلـــمس لهـــا شفـــاء يباعـــد هـــذا السقـــم
فديتـــك رقت عيـــون الصبـــاح لعينيـــك والدمـــع منهـــا انـــسجم

افـــاقت وقـــد بـــح مني النـــداء ، وجـــرح مسمعهـــا مامـــلي
وفي محجـــريهـــا دمـــوع الزمـــان ، تجمعـــن ، مـــن يومـــه الاول

وقالت : بلادي مهـاد النبييـن ، والقـادة ، السـادة ، البسـل ،
بلادي انسكاب العلى والشعاع ومـاوى النـدى والسنـا الاكـمل
... بلادي ... تموت ... وعز الأساة ، وما من مداو لها يجتلي !.

بـلادي زرعـت ثـراهـا الحنـون باحلى شبـاب واغـلـى دم
ولي في هواها نشيـد حبيب على الدهر يخلـد في اعظمـي
الهجرها ؟!. والصبا، والملاعب ، والحـب فـي قلبهـا الاكـرم
واترك جنة حب قديـم ، وروضـا به الشـمس لم تحلـم ...
فلسطين انت الحشـاشة !! . يا منهل الخير للبائس المعـدم !.

درجت على تربك المخملي ، الموشـى بطيـب النـدى والزهـر
ورحت ، وجئت على كل درب صغيـر ، كبير ، ظليـل الشجـر
وكحلت جفني بالباسمات الضواحي ... وبالضاحكات الصور
وكنت ارى الكون في قبضتي ذليلا .. وكان الهـوى والسمـر
لك الله !. هيجت مني الشجون .. وحركت نارا لظاها استعـر

لك الله !. لا توقظ الذكريات وخل الأسى في الحنايـا دفينـا
اخاف اذا تمتمت شفتـاي « بـلادي » اموت هـوى وحنينـا
واستنزف الدمع من خافقي . وابكـي بـلادا وحبـا ، ودينـا
... ولاحت على وجنتيها دموع حرار ، تدحـرج ذوبـا سخيـنا
كأن بها مـن فـؤاد الصبـاح لحـون تسيـل نشيـدا حزينـا

وقالت : نشأت و(سامح) تربي هوى عبقـري ، اميـن ، كبيـر
لنا الكون كم قبلة في ضحاه قطفنا .. وكم شعـلة تستطيـر
وكم متعة في مجـالي الضياء ، وكم جلسـة فوق شط الغديـر
نشأنا كما الطير ، حب عميـق ، وقلب اميـن ، وشوق كثيـر
وما في الجوانح .. ان الليالي . ستعدو وان الفراق .. المصيـر

ومرت شهـور تـراءى لنـا ان في منتهاهـا يكـون المغيـب
وان المنى ـ لهفتي للمنى !! ـ تموت علـى بسمـات الغيـوب
فهذا «المشرد» قد عاد يضرم نار التجنـي ، ويذكـي الحـروب
ويشعلها فتنـة في بـلادي : انبثـاق الهـلال ومهـد الصليب
ومـا ظـن ان الابـاء القـوي سيرجعـه للمكـان الجـديـب

ايطلب (صهيون) مهد المسيـح ، ومسرى محمد ، قدس العلى ؟!
ونحن لنا المجد والخالدات من الدهـر ، نحـن اسـود الفـلا
سنسحقه ، او يخوض البحـار ليلقـي بهـا ليلـه الاليـلا
تركنا ، على الدهر دنيـا الحضـارة تزهـو ، ومجـد غـدا اولا
وذا ركبنـا يتخطـى الحـدود ليبطـش بالغادريـن الالى ...

سنشعلها ثـورة ، كـل شبـل ، على شفتيـه نشيـد المنـون
وفي مقلتيه ، ضياء الخلود ، ولمع السيوف ، وطيـف الحنـون
وعـذراء تحلـم بالنيـرات ، وتنهـد للمجـد انـى يكـون ؟.

سقاها العلى كل ثدي ابي وزملها دهرها بالشجون ؟
سنشعلها ، رغم انف الزمان ، فاما السهول ، واما الحزون

وفى غسق الليل ... فى ظلمة تخيم فوق ربوع البلاد
وتضمر فى قلبها .. للصباح ، مفارح مصبوغة بالسواد
تلالا فى العتم ، الف شهاب تصب على الظالمين الاعادي
ولكنه مات ، مات الحبيب ، وخلفني للصعاب الشداد
وكانت له من سهام الطغاة (سهام) يمزقن اغلى فؤاد ..

اذا اسفر الصبح ، ماذا تجيب ؟ اذا راح يسال عن (سامح)
وعن غزوات له ، ما تخيب فيها، وما كان بالنائح ...
وعن همة للعالى تستطير ، وتنفض كل اسى وازح
الا لهفتي للعيون الصبايا ... وللشعر الانضر الفائح ...
... ولكنه المصرع المرتجى لمن قام للوطن الرائح !...

وكفنته بالدموع السواكب ، والهفتا بالدموع السكيبة !
وخلفي ام تشق الجيوب ، وطفل يذوب حزنا نحيبه
يقول له : « بابا » ان اللئيم سيرجع فانهض ومزق دروبه !.
... وواريته فى الثرى ، والانين يحيط به ، والمنى والعروبة
اذا اظلم الليل فى امتي ستهزمه الف شمس حبيبة ...

وثارت فلسطين .. .اذ جلجلت باَفاقها صاعقات الرعود
وماج الثرى بالاسود الحماة ، ومن غير ركب الحماة الاسود ؟
تجن الرماح بأيديهم ، وتمضي سراعا ، لقلب اليهود
وعربد اهل المذلة ، تيها ، يدوسون ما برموا من عهود
وما الحق فى شرعهم غير فلس وفتك يروع قلب الوجود ..

وكان لهم رائع المكرمات ، تسابق للفخر ، شيئا فشيا
وفى (دير ياسين) كم سطروا صحائف تبقى نشيدا ابيا
فتبقر اوغادهم كل حبلى ، وتحرق انذالهم ماتهيا
ويصلون بالنار طفلا بريئا وانى له ان يكون البريا ؟!.
وما اجرم الزرع ؟! حتى يصير هشيما، ويشوى ـ كما اللحم ـ شيا

وايقظ صوت اليتامى «العروبة» وانساب فى مسمعيها الشجن
وقامت تهز الحسام الكريم ، وتوقظ من عزمها ما سكن ،
فما ينفع الغمد ميت السيوف ؟! وما المرء ان لم يعز الوطن ؟
اطلي مع الفجر يا امتي ، وظلي على باسقات القنن ...
وكوني الفخار ، لمجد طريف ، كما كنت ، للتالد المؤتمن ..

وفى ليلة اجمعت امرها ، بلادي ، ونادت ليوم التلاقي ،
وماجت كتائبها ، للمنون ، وسارت جحافلها للسباق ،
وقالوا : سندحر جيش الاعادي ونسحق من فيه اي انسحاق
ونغرقهم فى عميق البحار على غارب من دموع المآقي ،

فكان لنا بسمة من رجاء ترف ، وتهدف نحو انطلاق ،

تراءى لنا في الدجى ، ان فجرا سيبزغ نشوان بعد انتظار
وان « العروبة » في مجدها تطاول في العاليات الدراري
وان « المواكب » من آدم تحوم وتحرس ركب الفخار
ولاح « المتنى » ولاح «الوليد» ودنيا من الخالدين الكبار
كأن ابتساماتهم في الظلام اناشيد نصر ، ومعنى انتصار !

بلادي ستنطلق الكبرياء على جانحيك وتحمي الحمى
وفي هداة الليل تمشي الصوف لتطفيء ما حملت من ظما
الم يأن .. ان تشهد النيرات ، علانا ، وان نلمس الانجما ؟!
ويمحو الزمان سطور المذلة ، من يمحها غير قاني الدما ؟!
بلادي .. اشهدي في صميم الظلام انطلاق الاسود وجند السما

ودق النفير ، فهاج ، الشجون ، وثارت جوانحنا للنفير
وكانت الى الله اندى صلاة مفعمة بالمنى والحبور
هو الحرب .. هذي زغاريده تشق الدجى للقاء الاخير
وهذي السيوف واغمادها ، تلألأ في جبهات المغير
وفي الجو ، تستبق القاذفات ، وتصغي الى تمتمات النور

فلسطين .. يا قدس الانبياء ويا كعبة الظامئين الحجيج
ستبقين للعرب ، مهوى صلاة ، تحوم ودنيا فخار تموج ..
اليك الأشاوس لبوا النداء، وفيك الفوارس وشو السروج
افيقي على جلجل الانتصار ، وصبي العذاب .. تميتي العلوج ..
سلام على قدسك المستظل ، بنور السماء ، وسر الثلوج ..

هو الحرب .. يخفق في جنباتك ، يرتع فوق الربا والتلال
وهذي الجنود بايمانها ، بنود الكفاح ، ورمز النضال
سينقشع الغيم عن بسمة ، ترف وتضحك فوق الموالي
ويخسر صهيون حلما له ، يزيفه ، والاماني الفوالي ...
ايحسبنا اننا امة تموت ، على ظلمات الزوال ! ...

فديتك ، ليلى ، اميطي اللثام ، ولا تسكبي الدمع ماذا دهاك ؟
يكاد لعينيك ، يبكي فؤادي ويحرق انفاسه في لظاك
... وكانت مدامعها الطاهرات تبين عن سرها بارتباك
وتخبر ما اضمرته الشفاه ، وتعلن ما خبأته البواكي
تقول : لقد خان قومي الضمير ، وباعوا مكارمهم في العراك

تنادوا الى الحرب ، لكنهم اتوها على الكره ، لم يصدقوا
وما في البنادق الا الهواء ، ولا في المدافع ما يحرق
تنادوا ... ولكن الى فرقة وذل .. فكان لهم مازق
وهل ينفع الحر قلب ابي اذا لم يكن رعده يصعق
تنادوا .. وياليتهم ما تنادوا ... فان السكوت بهم اخلق

فضائح لو رحت اسرد منها القليل لاحزنت قلب الزمان
وكيف ... وطرف العلى فى انكسار ينوح على محزنات الاماني
بلادي ... تهيب بنا للنضال وتدعو اشداءنا للتفاني
فتوصد باب الجهاد الابي وتحسر عن نابها الافعواني
هو الحقد ران على قلبها ، وخيم ظل اللئيم الاناني ...

فيا خجلة الامس من وقفة مشينا ، على اثرها القهقرى
ويا للمذلة ... من عصبة تدك المدائن بعد القرى
توطد فى ارضنا دولة ، وتكتب عن حزبنا اسطرا
وما هي .. فى الارض معدودة ، ولا بأسها كان بين الورى
ولكنها امتنى فى شتات ، يسير مقدمها للورا ...

تعالى اليهود بطغيانهم ، وهزوا الاسنة مستبشرين
فغاروا على كل دار ، وشنوا الدمار على كل سرب امين
وتلك الجيوش التى سيرت لتحمي الحمى والفخار الثمين ..
تميز من غيظها ، والدماء تمور .. ولكن هوى الآمرين ..
.. تمادوا باحقادهم ، يا لذل العروبة فى خطة الحاكمين !.

وروعني .. فى صباح حزين ، رصاص يئز ـ مع الشمس ـ ازا
وحولي طفل وام تسيل جروحهما بارتعاش وتنزى
اطل العدو بقواته ، ليجليننا عن حمانا ... المرزا ...
وما نحن فى شرعه غير ناس اهينوا ولم يكسبوا الامس عزا
وداعا ... مهاد الطفولة ، قلبي ، عزيز عليه بان يتعزى

وداعا ... واين محط الرحال ؟ وايان يا منهلي الملتقى
وداعا ، ويالهفتا للجنائن ، فى الفجر ان طيرها صفقا
ويا وردة الخير ، لا تذبلي !! وظلي لاحلامنا مشرقا
ساحمل فى خاطري من شذاك ، طيوبا تضارع قلب التقى
واذكر فى الدهر ... انى سربنا اغانيك يا خيرنا المغدقا

وسرت ، وطفلي .. نشق البقاع ونطوي الدروب على الارجل
وادرك امي العناء المميت .. فماتت على الدرب .. لم ترحل
ولم يبق فى مقلتي دمعة لاسكبها ... فى الاسى المقبل ؛
فواريتها تحت ظل ظليل ، وجسمي ، يخور ، فلم اكمل ؛
غدا ... ايها اللحد ، اما رجعت فقل لي ... هنا لحدها قبلي

وغاب النهار ، فجاء المساء يلف باثوابه الكائنات
ووحدي .. جلست وقد نام طفلي على الجوع يحلم بالطيبات
اناجي الدجى ، والانين الشجي ، يرجع اصداءه كل آت
الى اين امشي ؟! واين بلادي .. وكيف اغادرها الطغاة ؟!
... الهي امتني ، لانسى العذاب وتغرب عن خاطري ذكرياتي

افق يا بني .. اطل الصباح واشرقت الشمس فوق الروابي

افق ... نمشي ، لا غاية نرتجي ، ولا همنا مقصد في الرحاب
الى الله .. ما كان من امرنا وما بعد من وحشة واغتراب
فديتك يا فلذتي !! اين صوتك يملأني ! في الشداد الصعاب
امت ، وغاب السنا ؟! يا اكف الليالي حنانك بعض الصواب !

بني ، خيالك في اضلعي ، ونجواك ، تلمع في ادمعي
و (اماما) على شفتيك ارتعاش حبيب يلذ به مسمعي
اذبلت عينيك ؟! يا قبلة الصباح تطوف على المربع ،
وموطنك البائس ، المشترى ، يرجيك في غده الاسطع
ينام ، على الضيم ، نوم الضعيف ، ويغفو على جرحه الموجع ..

بني ... تفرقنا ايدي سبا ، وصار الفضاء لنا مختبا
تركنا الديار ، وعز الديار ، وعيشا رطيب المنى ، طيبا
فلا لقمة العيش مامولة ، وعز على الاهل ان نشربا
... ونفترش الارض ، لا اكلنا شهيا ولا رغدنا اعذبا
نموت على مهلنا ، كالسراج ، يذوب مع الليل او ينضبا ..

وغابت محدثتي في ذهول ، حزين ، وغبت ضلولا شرودا
اكفكف من عبرات الزمان واسالها ان تمل المريدا
وكان الضحى في صلاة الصباح ، يناجي الضياء ليحمي الوجودا
وينثر امواجه كل سرب ، يجيء ، ويذهب طلقا ، سعيدا
... وفي النفس موج ، ولكنه يروح قتيلا ، ويغدو شهيدا ..

وسرت وفي مهجتي ، غصة ، تئن على دمعة (النازحة)
وبانت فلسطين في خاطري ، وابصرت غادتها النائحة
و(دنيا القيامة) لاحت ، ظلالا حزانى و(صخرتها) الصادحة
وعادت الى القلب (غرناطة) ومأساة (اندلس) الذابحة ،
فاطبقت جفني ... على دمعة ، وما اشبه اليوم بالبارحة !!

طرابلس ـ لبنان : محمد شمس الدين

أبو هارون الأغماتي

للأستاذ سعيد أعراب

وهذا اديب آخر من ادباء العصر المرابطي ، اهملته المصادر المغربية والاندلسية . وحفظت لنا صورا من حياته بعض مصادر شرقية : ذلك هو ابو هارون ، موسى ابن عبد الله بن ابراهيم بن محمد ابن سنان ، بن عطاء الاغماتي .

هكذا ذكر نسبه مختصرا ياقوت في معجم البلدان (1) . وأورده ابن السبكي بطوله في طبقاته ، وجعله يتصل بقحطان ، قال هو موسى بن ابراهيم ابن عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن سيار ، بن عطاء ابن عبد العزيز، بن عطية بن ياسين بن عبد الوهاب بن مختار بن عاصم القحطاني الاغماتي (2) . على ان فيه مخالفة مع ماعند ياقوت، فالأب جعل السبكي هو الجد، والعكس بالعكس، كما جعل واسطة بين محمد وسنان (ابراهيم) ، وسمى سنان سيارا . ولعل ياقوت هنا اضبط، فهو اقرب الى العصر الذى عاشه ابو هارون ، واتصل مباشرة بالاصول التى استقى منها السبكي بوسائط ، والاقطار التى تجول بها ابو هارون، سالكها هو بالقدم ، قطرا قطرا ، وبلدا بلدا .

ولد ابو هارون باغمات ، في حدود (480 هـ) ، وبها نشأ وتعلم ، واغمات في هذا العهد ، مركز سياسي هام، اتخذها المرابطون عاصمة لهم ، وبعدما اتسع ملكهم ، وقوى سلطانهم ، اختطوا مراكش ، شمالي اغمات ، على بعد 37 كلم . ومعلوم انه لم يكتمل بناؤها ، وتتسع رقعتها الا في حدود سنة (526 هـ) وظلت اغمات منار اشعاع ومعرفة ، طوال العصرين المرابطي ، والموحدي ، ثم مقر الاولياء والصالحين ، وابعاد المتبتلين ، يؤمها النساك من كل جهة ومكان .

وقد اورد صاحب التشوف طائفة من العلماء الذين غلبت عليهم النزعة الصوفية لهذا العهد ، ويذكر ابن الموقت المراكشي ، انه اقبر بها من الشافعية ـ رغم عزة وجود هذا المذهب بهذه الديار ـ ما ينيف على الاربعين ، ومن حفاظ المدونة من المالكية نحو المائة (3) .

ومن الشيوخ الذين كانوا يحتلون الصدارة في هذا العصر :

---

(1) 225/1 ـ وانظر معجم الادباء ، 16/70 ـ 71 .
(2) 314/4
(3) ابن الموقت ، السعادة الابدية 57/1 .

ابو الحجاج يوسف بن موسى الكلبي (4) وابو العباس الهواري (5) ، وابو عبد الله ابن سعدون القيرواني (6) ، والقاضي ابو محمد بن اسماعيل الاشبيلي (7) وابو بكر محمد بن الحسن الحضرمي (8)، وابو محمد عبد العزيز التونسي (9) ، والقاضي ابو محمد بن علي اللخمي، سبط ابي عمر بن عبد البر (10)، وابو محمد بن عمر السلمي ، والد ابي حفص الاغماتي الاديب المشهور (11) ، وابو محمد عبد الجليل ابن ويحلان (12) ، وابو الامان بن يلاررح (13) ، وابو محمد عبد العزيز الباغاني (14) ، وابو حسن بن شبونة (15) ، وابو محمد المليحي (16) ، وسواهم كثير . حج الى اغمات ادباء عديدون ، وخصوصا بعد ان نفي اليها الامراء الثلاثة : عبد الله بن بلقين ، امير غرناطة ، واخوه تميم امير مالقة ، وهناك باغمات الف الامير عبد الله مذكراته (التبيان) ، ثم المعتمد بن عباد امير اشبيلية وقرطبة، وكان نزل هذا الاخير من نوادي الادب والشعر .

شب ابو هارون على حب العلم ، ورضع افاويق الادب ، فشاهد ـ وهو بعد حدث ـ مأساة المعتمد ابن عباد ، ايام منفاه باغمات ، وربما دفعه فضول الصبا الى تتبع احواله وتصرفاته ـ كامير خطير نكبه الدهر ، وحفظ الكثير من اشعاره ومقطعاته ، التى كان يرسلها من حنايا المطبق انات وزفرات !.. ولعله لم يغب عن ذاكرته ـ وهي فى طور الحداثة اشد التقاطا ، واقوى وعيا ، ـ ذلك المشهد المؤثر الذى اثاره موقف ابي بكر بن عبد الصمد، بانشاده مرثيته الرائعة اول يوم عيد بعد موت ابن عباد ، وقد تطارح على قبره وغمره بقبلاته ، وبلله بدموعه ، ونادى باعلى صوته .

ملك الملوك اسامع فانادي
ام قد عدتك عن السماع عوادي
لما خلت منك القصور فلم تكن
فيها كما قد كنت فى الاعياد
اقبلت فى هذا الثرى لك خاضعا
وتخذت قبرك موضع الانشاد
قد كنت احسب ان تبرد ادمعي
نيران حزن اضرمت بفؤادي
فاذا بدمعي كلما اجريته
زادت علي حرارة الاكباد

فبكى الناس لسماعه ، وكان منظرا مؤثرا حقا .

ولعل هذه اللقاءات الادبية ، والمهرجانات الشعرية ، مما حبب الى مترجمنا الادب ، وجعله يميل الى معاناة قرض الشعر ، وهو بعد فى مقتبل عمره وعنفوان شبابه .

ورغم ما حصله ابو هارون ببلده من علوم ، وما حفظه من فنون ، فان نفسه ـ وهو الشاب الطموح ـ تاقت الى التزيد من العلم ، والتوسع فى ضروب المعرفة ، وماذا عسى ان يفعل ؟ وقد اصبحت الرحلة الى المشايخ ، والتطواف على بلدانهم ـ موضة العصر !

فرحل الى المشرق اوائل القرن السادس الهجري ، والمحتمل ان ركوبه كان من شواطىء الاندلس ، بعد ان زار اكثر مدنها ، واخذ عن مشايخها .

وربما كان من رفقة ابي عبد الله بن تومرت ، الذى عبر البحر الى بلاد المشرق فى هذا الظرف

---

(4) ابن الزيات ، التشوف ص 83
(5) نفس المصدر ص 131 .
(6) السعادة الابدية 63/1
(7) ابن بشكوال ، الصلة 279/1 .
(8) المقري ، ازهار الرياض ، 161/3 .
(9) التشوف ص 68 .
(10) ابن الابار ، التكملة ، 821/2 .
(11) نفس المصدر 837/2 .
(12) التشوف ص 125 .
(13) نفس المصدر ص 131 .
(14) نفس المصدر ص 186 .
(15) نفس المصدر .
(16) نفس المصدر .

بالذات (17) . وقد يكون لذلك علاقة بالتجاء ابن تومرت الى اغمات ، بعد قفوله من المشرق ، وقد خرج من مراكش خائفا يترقب ، قائلا لاصحابه : « ما لكم هاهنا بمراكش مقام ، وان لنا بمدينة اغمات اخا فى الله لا نعدم منه رايا ، او دعاء صالحا » (18)، ويعني به عبد الحق ابن ابراهيم الاغماتي ، وكان من كبار فقهاء اغمات ، ومن خيرات رجالاتها . وكذلك مصاحبة ابي محمد بن واسنار له ، وكان من المقربين لديه ، وابي زكرياء بن ستان ، وكان من اهل الخمسين ، وربما كان هؤلاء من اقارب ابي هارون ، او من ابناء عمومته .

واياما كان ، فقد نزل ابو هارون ـ اول ما نزل ـ بديار مصر ، ثم تابع رحلته الى الحجاز ، ولم يلبث ان عاد الى العراق ، وواصل سيره الى الجبال (ما بين اصبهان الى زنجان ، وقزوين وهمذان والدينور والري ..) واوغل فى هذه الرحلة الى ما وراء النهر . والمؤسف انه ليس لدينا تفاصيل عن هذه الرحلة . فلا ندري الاماكن التى زارها ، والشيوخ الذين اخذ عنهم ، وكم مدة قضاها فى كل بلد ؟.

وكل ما هنالك ان ابن السبكي ينقل عن السمعاني ، ان ابا هارون اقام بنيسابور مدة ، وتفقه على ابي نصر القشيري (19) . والذى نعرفه عن ابي نصر ، واعظ نيسابور وعالمها ، ـ انه رحل الى بغداد فى طريقه الى الحج ، ووعظ بها ، فوقعت بسببه فتنة بين الحنابلة والشافعية ، فاستدعاه نظام الملك الى اصبهان ، اطفاء للفتنة ببغداد ، فذهب اليه ولقى منه كل اكرام ، ثم عاد الى نيسابور ، فلازم الوعظ والتدريس ، الى ان توفى بها سنة (514 هـ) (20). والمرجح انه اخذ عنه بعد عودته الاخيرة الى نيسابور ، وقد تأثر ابو هارون باستاذه القشيري ، وتمذهب بمذهبه ، وسار على نهجه وطريقته ، وتستطيع ان تفهم ذلك من هذه التحلية القصيرة التى حلاه بها ابن السمعاني اذ يقول : « وكان ابو هارون اماما فاضلا مناظرا »(21) ويبدو انه لم تطل اقامته بنيسابور بعد وفاة شيخه القشيري. فقد غادرها الى سمرقند فى حدود (516) ، ويحدثنا ابو حفص السمرقندي فى هذا الصدد فيقول : « قدم علينا ابو هارون سمرقند سنة 516 ، وهو شاب فاضل ،فقيه مناظر، بليغ شاعر ، ومحدث محاضر ..» . وقد اعجب السمرقندي بنبوغ ابي هارون وعبقريته ، وحفظه وبداهته ، واتساع رويته ، وشفوفه فى اللغة والادب .. حتى لقد قال فيه :

لقد طلع الشمس من مغربها
على خافقيها واوساطها
فقلت القيامة قد اقبلت
وقد جاء اول اشراطها

وهو تعبير صادق عن اعجاب السمرقندي ، بابي هارون الاغماتي ، لكنه اعجاب مشوب بلون من التفكه والتندر .

والغريب ان يرتفع صوت ءاخر من الموصل او دمشق ، ينعى طلوع عبقري ءاخر من المغرب فى مثل هذا الظرف بالذات :

مشارق انوار تبدت بسبتة
ومن عجب كون المشارق فى الغرب!

ولقد احسن الذى قال :

وما شرف الاوطان الا رجالها
والا فلا فضل لترب على ترب

وابو حفص السمرقندي هذا ، من الشيوخ الذين اخذ عنهم ابو هارون بسمرقند ، ونزل ضيفا عليه ، واخذ عنه كثيرا ، وجمع له اسماء شيوخه ومروياته فى جزء وهو من كبار فقهاء الحنفية ، يلقب بمفتي الثقلين ، عالم بالتفسير والتاريخ والادب ، له نحو مائة مصنف وكان يقول اروى الحديث عن خمسمائة وخمسين شيخا ، وهو غير النسفي (المفسر) .

ولد بنسف نخشب (ما وراء النهر) ، ثم انتقل الى سمرقند وبها توفى سنة (537 هـ) (22).

(17) انظر نظم الجمان ، لابن القطان ص 9
(18) الناصري ، الاستقصا 77/2
(19) طبقات الشافعية الكبرى 4 /314 .
(20) انظر شذرات الذهب 45/4 .
(21) طبقات السبكي 314/4
(22) انظر الفوائد البهية ص 149 ، والجواهر المضية 394/1 .

ومن مؤلفاته كتاب «القند (23) في علماء سمرقند» تحدث فيه عن ابي هارون من جملة من تحدث عنه من علماء سمرقند، فقال « .. وموسى بن عبد الله الاغماتي، قدم علينا سنة 516 هـ) (24)، وبقي عندي اياما، وكتب عني الكثير ولاجله جمعت كتابا سميته « عجالة المختبي (25)، لضيفه المغربي (26) » .

ولنودع ابا هارون بسمرقند، وقد جمع فاوعى، اخذ الكثير، وحفظ الكثير، واصبح اسمه لامعا في سماء الفكر والادب — هذه المدينة التي قيل ليس في الارض مدينة، انزه ولا اطيب، ولا احسن مستشرفا منها — وقد شبهها حضين بن المنذر الرقاشي، فقال: كانها السماء للخضرة، وقصورها الكواكب للاشراق، ونهرها المجرة للاعتراض، وسورها الشمس للاطباق (27) .

ثم بعد هذا لا ندري اين انتهى المطاف بابي هارون من هذه الرحلة التي طوف بها اكثر بلاد العرب والعجم، والتي ابتدا شوطها الاخير — كما راينا — من وادي النيل الى ما وراء نهر جيحون، وربما نستروح من ذكر السمرقندي له في جملة علماء سمرقند، انه القى بها عصا التسيار، واختارها مقاما له حتى النهاية، وهو ينشد مع شاعرها :

وليس اختياري سمرقند محلة
ودار مقام لاختيار ولا رضى

ولكن قلبي حل فيها فعاقني
واقعدني بالصغر عن فسحة الفضا

واني لممن يرقب الدهر راجيا
ليوم سرور غير مغرى بما مضى

واذا كانت حياة المترجم كلها يحيط بها كثير من الغموض، فهذه الفترة — وقد بلغ بها اشده — اكثر غموضا، واشد حرصا وتخمينا، وما احوجنا الى التعرف اليها، لانها الفترة المخصاب في حياة العظماء .

واذا كان فاننا لا ندري متى توفي ؟ ولا اين ؟ . وماذا خلف من ءاثار ؟ على ان هناك جانبا في حياة ابي هارون، يجب ان لا نغفله، فهو الى كونه — اماما فاضلا، وعالما متكلما، وفقيها مناظرا — اديب مطبوع، وشاعر رقيق .

ومن شعره يتحرق شوقا الى وطنه، ويرسلها تحية حارة من اقصى الشرق الى اقصى الغرب :

لعمر الهوى اني، وان شطت النوى
لذو كبد حرى، وذو مدمع سكب
فان كنت في اقصى خراسان نازحا (28)
فجسمي في شرق وقلبي في غرب (29)

قال ياقوت :

وابو هارون، فاضل، له شعر حسن، ومن شعره قوله .. وذكر البيتين . ومن في قول ياقوت: « ومن شعره » — للتبعيض، ومعناه، ان له شعرا كثيرا، واذا اردنا تقييمه، فانه لا ينزل عن درجة الحسن . وهذه شهادة اخرى، نضيفها الى شهادة الحموي، يقول السمرقندي السالف الذكر : « وابو هارون شاعر بليغ واديب محاضر .. » وهي شهادة لها قيمتها ووزنها .

ومهما يكن، فهذان البيتان، — وهما كل ما نملك من انتاج الشاعر — يدلان على عاطفة متدفقة، وشاعرية رقيقة، ودقة في التعبير، وارهاف في الشعور، وهي ميزة تنم عن صفاء الفكر، واصالة الشاعرية .

واننا لانستطيع انتقول الكلمة النهائية فيالموضوع، حتى نقف على ما عند شاعرنا من انتاج وما خلفه من ءاثار، والزمان كفيل بذلك، والله الموفق .

تطوان — سعيد اعراب

(23) وتصحف عند السبكي في طبقاته ب « العقد »، والقند : العسل .
(24) تصحفت في معجم الادباء لياقوت ب (سنة 561 هـ) .
(25) نسبة الى نسف نخشب، مما وراء النهر، انظر معجم البلدان .
(26) انظر ياقوت، معجم الادباء 16 /70 — 71 وفيه انه قدم سنة احدى وستين وخمسمائة (561 هـ)، وهو خطا، والصواب سنة 516 — كما اسلفنا
(27) انظر معجم البلدان 248/3 .
(28) وفي رواية السبكي « ثاويا »
(29) قال السمرقندي في كتابه « القند » وانشدني ابو هارون الاغماتي — لنفسه — : لعمر الهوى الخ..

الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة

للأستاذ دانيل ماك كول — عربه عن الانجليزية الأستاذ محمد الحمداوي

- 3 -

5) الرواية عن الاسكندر

نسب بناء سجلماسة الى الاسكندر الاكبر ، وعن هذه الرواية يتحدث ليو الافريقي فيقول : « ان عامة الناس ومعهم احد جغرافيينا الافارقة الذي يدعى (البكري) يعتقدون ان هذه المدينة قد بناها الاسكندر الاكبر ، لاسعاف المرضى والمجروحين من جنوده . وهذا الراى ليس براجح عندي ، لاني لم اعثر قط فيما قرات على ان الاسكندر الاكبر قد وصل الى هذه النواحي » .

قد نكون مدينين بالشكر لليو لانه كان مؤرخا نزيها لم يمنعه عدم ثقته بتلك الرواية من أن يسجلها ، ذلك لانه بالرغم من عدم ثقته بهذه الرواية فانها بلاشك تحتوي على شيء من الصحة ، وان كان ذلك ليس بالامر الظاهر، فقد لايكون هناك اي فرق بين الروايتين اللتين سجلهما ليو اذا نظرنا الى مجرد الاسم، وحينئذ يكون قد اشتبه عليه الاسم المذكور في هذه الرواية باشهر سمى له ، وبيان ذلك ان الولايتين الافريقيتين، نوميديا وموريطانيا ، كانتا ايام الحكم الروماني من سنة308 الى سنة 311 ميلادية تحت نفوذ دوميتيوس الاسكندر الذي كان في حرب مع ماكسينتيوس امبراطور روما اذذاك ، وقد كان الاسكندر الروماني هذا قليل الشبه بسميه الشهير ، ذلك لان هذا لاقى الهزيمة في اول معركة قام بها ، ولكن من الممكن ان يكون قد استغل الوقت قبل اعلان الحرب لتاسيس حصن وملجا وراء جبال الاطلس المنيعة ، ويمكن ان يفهم هذا من عنصرين اثنين من الرواية ، ذكر الاسم (مع شيء من التغيير) وذكر الجنود ، وحينئذ تكون هذه الرواية الاخيرة تشير الى القائد الروماني المذكور في الرواية الاولى ، على ان من المحتمل أن يكون ذكر الجنود قد اريد به فقط اعطاء الصبغة الاصلية للفاتح الاعظم . واكبر الظن ان الرواية لها معنى يختلف تمام الاختلاف مع ما ذكرنا، فالاسم (الاسكندر) يعني به في اللغة العربية (ذو القرنين) ، الذي يمكن ان يترجم بالذي له قرنان ، وهو لقب كان قد اطلق على (عمون رع) ، الاله الذي يشبه راسه راس الكبش ، وعندما دخل الاسكندر المقدوني الى طيبة(1) نادى به كهنة عمون رع على انه ابن الالاه. هذه وكثير من امثالها من العناصر المختلفة قد اضيفت فيما بعد الى قصة الاسكندر ، تلك القصة التي اختلفت باختلاف الشعوب التي شاعت فيما بينها، وقد تراءى الاسكندر المقدوني تحت عنوان (ذو القرنين) في القرءان ، واذا كان (عمون رع) قد اصبح نسيا منسيا في ايام ليو الافريقي ، فربما ان الاسكندر المقدوني هو الذي

1) طيبة، ويقال لها ثيبة ، وطيوة، قال عنها صاحب (العقد الثمين ص 10) : انها كانت من اكبر مدائن الديار المصرية وأشهرها،ولم يزل يشاهد فيها الى الان من المعابد والآثار ما يوجب تعجب الناظرين، وقال عن (عمون رع) انه سمي بهذا الاسم في عصر العائلة الحادية عشرة ، وانه معبود خصوصي لهذا القسم وعمومي لكافة مصر ، ومعنى (عمون رع) الشمس الخفية التي لا تدركها الابصار .
المترجم

كان يتطرق الى ذهنه عند سماع كلمة (ذو القرنين)، على انه ليس من البعيد كذلك ان تكون هناك بقية من اثر ديانة عمون رع ، (فكوتيي) عنده ان ذلك ما يعني بذي القرنين في هذه الناحية ، قال (كوتيي) : (هناك حجة قوية على ان اثر المصريين القدماء قد تسرب الى الصحراء من الثيبين على طريق الواحات خلال (طيبة) التي كانت مركزا لعبادة الالاه عمون رع . كما ان (كوربيوس) وكتابا ءاخرين قدماء قد علقوا اهمية كبرى على طقوس الكبش الدينية خلال قبائل الصحراء ، وقد نشر (مارتان) صورة فوتوغرافية لتمثال حجري مع راس كبش كان قد وجد في (تمنطيت بتوات) ، كما ان نقوشا حجرية قد وجدت كذلك في نواح مختلفة من الاطلس الصحراوي بالقرب من فكيك ، وهي تمثل راس كبش فوقه قرص شمسي بازائه يوروس Uroeus الذي هو بكل وضوح (عمون رع) ، زيادة على ان اهالي وادي كير ينسبون ابيارهم العميقة الى ذي القرنين الذي يعني من له قرنان ، وهو الاسم الذي يعني به الاسكندر الاكبر في القرءان (2) وقد سبق ان الاسكندر قد اعتبر تجسيدا لعمون ، الالاه الذي يشبه راسه راس الكبش . مما لا شك فيه اذن ان هذه الالتقاءات مع المدنية المصرية التي توضح التشابه الغريب في فنون الري وصناعاته قد استعملت في كلتي الناحيتين ، فاذا كان لتاثير المصريين بوجه او بتاخر دخل في تاسيس المدينة فان ذلك ربما يعني ان بداياتها كانت اقدم من ايام الفاتح المقدوني ، ولكن ذلك لا يعني بالضرورة ان المصريين قد وصلوا الى هذه الناحية البعيدة غرب النيل ، وانه لامر يستحق الاهتمام ان ينسب ليو هذه الرواية الى عامة الشعب ، فهل يعني بذلك الحراطين ؟ ، فان عامة الشعب ربما تشمل — ان لم تخص — السكان الاصليين لان الطبقات الكبرى من علية القوم كانت في الغالب تتركب من مختلف افواج الفاتحين الذين دخلوا الى هذه النواحي في الفترة ما بين ايام ابي القاسم وزيارات ليو الافريقي .

كيف ترتبط الروايات المختلفة بعضها ببعض

ان كلا من البكري والوزان قد اختارا ما رجحاه من الروايات التي نقلاها ، واعرب كل منهما عن اتجاهه فيما وثقه او ضعفه من تلك الروايات ، ومع ذلك فقد كان لكل من الرجلين من حسن الادراك ما جعله يسجل من تلك الروايات حتى ما لم يحظ عنده بالقبول ، على حين ان كتابا ءاخرين قد راوا وكان من واجبهم ان يغفلوا كل الروايات المرتبكة التي لا تحوي من الضبط والاتقان ما يتلاءم مع مؤلفاتهم التاريخية ، واغلب الكتاب المعاصرين قد راوا ان العمل التاريخي يقضي عليهم ان يختاروا ما صح عندهم من الروايات ثم يتجاهلوا الباقي ، وليست المشكلة عندي هي ان نصحح ما صح ، ونحكم بان ما عدا ذلك هو خطا ، فلنفترض مثلا على سبيل المقارنة ان مسافرا قام بزيارة الى باريس ، وهو يجهل كل شيء عن فرنسا ، وقد تحدث اثناء ما هو هناك ، الى عدد من الفرنسيين من مختلف الجهات ، من ديجون ، ومن افنيسيون ، ومن اكس لاشبيل، ومن باريز كذلك ، فربما يكون قد التقط بعض روايات ناقصة ومضطربة عن (بركندي) ، وعن مملكة الكارولجيين ، وعن فرنسا المعاصرة ، فليس الواجب بالنسبة الى مستمعيه عند ما يرجع الى بلده هو ان يحققوا اي تلك الروايات كانت الصحيحة عن اصل فرنسا ، وانما يكون الواجب اذا هم قد اهتموا ان يعالجوا المسالة هو ان يصنفوا العناصر في فترات مختلفة من الزمان ، وفي مجموعة منتظمة متميزة ؛ فقزان — مثلا — كانت نوعا ما اشهر من وادي زيز ، ولكنها وقد كانت — مثل سجلماسة — تقع في النهاية الشمالية لطريق التجارة عبر الصحراء ، قد مر عليها كثير من الاحداث التاريخية ، وامتلكها في عدة فترات من التاريخ مجموعات من الاجناس المختلفة ، لذلك فان مجموع الروايات عن سجلماسة يجعلها على مايظهر في وضع متشابه ، ومن ثم يكون السؤال ليس فقط في اي وقت بنيت سجلماسة؟ ولكنه كذلك في كم من مرة اعيد بناؤها ؟ متى ؟ ومن قبل من ؟ . من المرجح غالبا ان مركزا كان يوجد في وادي زيز قبل سنة 757 ميلادية ، وقد يكون هذا المركز قد دعي سجلماسة او لم يدع ، غير ان تجمع الروايات حول هذا الاسم يشير الى انه كان كذلك قديما ، وليس لدينا من المصادر سوى المصادر المكتوبة باللغة العربية ، والمصدر الوحيد الذي كتب بالايطالية قد كتبه هو ايضا كاتب مسلم ، ومن ثم فلم يكن من الغريب ان ستارا قد اسدل بين الخلافة الاسلامية وبين ما سبقها من حكومات ان كانت موجودة ، فباستثناء شخصيات

---

2) للتحقق من الاسكندر المقدوني ليس هو المعني بذي القرنين في القرءان . راجع « دعوة الحق » العدد الثاني ، السنة التاسعة ، ص 8 . — المترجم

ذات اطلاع واسع ، وحرية فكر ، مثل اليعقوبـي (3) فان جميع الكتاب المسلمين قد اتجهوا الى أن لا يهتموا بوجوه النشاط التي كانـت (للكفـار) قبل ظهـور (المومنين) (4) .

وقد وجد عكس هذا الاتجاه نوعا ما في كثير من المؤلفات في الاراضي الفارسيـة واليونانيـة ، ولكـن الروايات الاكثر قد ما لم يكن لها من حسن الحظ ما يضمن لها الاستمرار في هذه الواحات الصحراوية ، غير ان شعب سجلماسة استمر يذكرهـا باستمـرار وجود سجلماسة ، وقد سجل ليو هذه الروايات في وقت كانت فيه قد هجرت من زمـن بعيـد ، وكـان السكان الاقدمون يقيمون في قصور حولها، ولم يحتفظ هؤلاء السكان ـ بطبيعة الحـال ـ بهـذه الروايـات مكتوبة لديهم، ان ليو هو مصدرنا الوحيد عن الروايتين اللتين سجلتا اعظم اقدم الآثار بالنسبة للمدينـة . ويمكن للمرء ان يتساءل عما اذا كان ليو ـ وهو يكتب الى جمهور ايطالي ، ويتحدث عن قائد روماني ـ كان فقط يحاول ان يسترضي جمهوره ويتملقه ؟ وانـه اخترع القصة لاجل هذا الغرض ، قـد يكـون ذلـك حقيقة اذا نظرنا الى النص الذي بسببه اعتبرنا هذه الروايات ، ولكن ذلك لا يصدق الى نظرنا الى مجموع كلامه في مؤلفه باجمعه ، وربما كان غرض ليـو هـو تسجيل كل ما راج حول هذا الموضوع الشامـل من جزئيات الاخبار مهما صغر شانها ، وقد يكون الباعث له على تسجيل هذه الروايات هو ادراكه لأهميتها لدى الجمهور الاوربي ، وانه لو كان يكتب لجمهور مغربي لحذفها ، وربما لا هذا ولا ذاك ، وانمـا اراد ليـو أن يستحث شعور قرائه وكأنه أدرك أنهم عندهم تطلعـا الى معرفة الاخبار الغريبة . ويمكن ان يتسـاءل المرء ، لماذا لم يرد اى ذكر للقرطاجنيين مع انهم كانوا رجال تجارة ناجحة في الاقليم ؟ . فاذا كانت التجارة قـد ازدهرت في هذا الوادي في زمنهم فالغالب انهـم قـد اتجهوا نحوه ، لذلك فان دلائل تاريخهـم التجـاري تجعل عدم ورود اي ذكر لهم في هذه الروايات امـرا غريبا . واذا كان وصول التجار القرطاجنيين اقرب الى الاحتمال من وصول الرومانيين الى هذه الناحية، فهل ان صعوبة التحقق من وجود ذكر القرطاجنيـين في اللغة العربية ـ وهي اللغة الوحيدة التي عن طريقها وصلنا الى ما وصلنا اليه من اخبار ـ هي التي حالت دون الوصول الى الحقيقة في هذا الشان ؟ ربما كان الامر كذلك ، او ربما اننا لا زلنا لم نحرز على السجل التام لجميع الروايات ، غير انه ليس من المرجـح ان نحظى بعد بالمزيد من الروايات بعد ان مضى من الزمان ما مضى ، ربما ان هناك سؤالا يمكـن ان يطـرح على احدى الروايات التي يشم منها رائحة الاشـارة الى رجل قرطاجني ، ولكن لا استطيع التكهن بما عسـى ان يكـون .

شي من الاستنتاج من الروايات السجلماسية

ان رواية عيسى تمدنا باستنتاج ثبوت حكومة السود ، كما أن رواية الاسكندر الاكبر تمدنا باستنتاج ثبوت التاثير المصري ، أما رواية مدرار فهي تنبئنـا بالخبر عن وجود الحداد الحكيم الذي ادخل معرفـة صناعة المعادن ، وكل هذه العناصر يمكن ان يناسـب بعضها البعض الآخر بسهولة .

فمدرار يمكن ان يكون هو الذي ادخل معرفـة الرى وجلب كذلك عبادة عمون رع ، وكيفية استخدام صناعة المعادن ، واوجد الحكومة التي انحـدر منهـا عيسى ، وان كنا في الحقيقة لا نتوفر على الحجة التي تجمع بين هذه الروايات ، واما رواية القائد الروماني فانها بالاضافة الى الاسم ، (عيسـى) ، تشيـر الى حصول اتصال بالعالم الرومانـي ، أما عـدم ورود أي ذكر للتجارة أو الذهب فانه يدل على اهتمام الروايات بالمحليات أكثر من دلالته على عدم وجـود التجارة في ذلـك الوقـت . (يتبـــع)

البيضاء ـ محمد الحمداوي

---

3) ابو العباس احمد بن ابي يعقوب المشهور بابن واضح اليعقوبي ، احد مؤرخي وجغرافيي المسلمين في القرن الثالث الهجري ، له (كتاب البلدان) في الجغرافية و (كتاب التاريخ) ، توفي سنة 284 هـ على ما يقول ياقوت في معجم الادباء ، ويستنتج محمد صادق الذي ترجم لـه في فاتحة طبع كتابـه (البلدان) انه عاش حتى سنة 292 . المترجم

4) قارن هذا القول مع قول فرانز روزنثال في كتابه (علم التاريخ عند المسلمين) ، ص 130 ترجمـة الدكتور صالح احمد ، قال : (والواقع انه لم يكن من الصعب الحصول على المعلومات التي تحتويها التواريخ الاسلامية عن الامم الاجنبية كافة) . وقال : (تقبل التاريخ الاسلامي منذ بدايته تاريخ ما قبل الاسلام ، فقد الحق بسيرة الرسول تاريخ الجزيرة القديم واليمن ، والتاريخ اليهودي والمسيحي منذ الخليقة) . المترجـم



دراسة الفكر السياسي والحضاري المغربي خلال القرن التاسع عشر : ميدان بحث واستطلاع خصيب بقدر كبير في روافده وموارده ، وذلك بالنظر لتشعب الاوضاع العالمية آنئذ ونجاح المغرب في اتخاذ موقف متميز به ، ازاء تلك الاوضاع ، وتبلور احوال ايجابية مغربية من خلال كل ذلك .

ان الموضوع من سعة الافق في درجة كبيرة ، هذه نظرة سريعة جدا ، هي بمثابة مدخل بسيط الى صلب القضايا الاساسية ، فعسى ان تتضافر الجهود من اجل العمل على بلورة لوحة علمية كاملة عن ذلك العهد الحاسم من تاريخ بلدنا .

يكتسي القرن التاسع عشر قدرا كبيرا من الاهمية في مجال التعرف على تطور العلاقات الانسانية في الاعصر الحديثة ، وتقييم التبلورات السياسية والحضارية، الناتجة عن سعة التحول التاريخي، وعمق ابعاده في ذلك القرن ، ومرجع هذه الاهمية التي نعزوها للقرن التاسع عشر ، انه كان بمثابة مفترق طرق تاريخي بين حقبتين من حياة المجتمعات الانسانية . في العصور الحديثة ، حقبة بداية الاستعمار ، واستفحاله قبل القرن التاسع عشر ، ثم الحقبة التي يسجلها ما بعد القرن التاسع عشر ، وتتمثل في تراجع المد الاستعماري وتحول مراكز الثقل الحضاري في العالم ، واخذ الشعوب المعتبرة متخلفة، بزمام امرها التاريخي الاساسي،لقد كان القرن التاسع عشر، مفترق طرق رئيسية بين هذين العهدين من التاريخ الانساني الحديث، ومن ثم فهو يسجل حالة بلوغ الحقبة الاولى قبله اقصاها ، ومظهر هذه الحقبة في الاساس ، كان هو المد الاوروبي عبر العالم ، اذ بلغ حينئذ نقطته الاكثر حدة ، والاوسع تعبيرا عن التحدي بكل اشكاله ومقتضياته ، وفي مضمون هذا المد الاوروبي كان هناك نوع من التواجه بينه وبين الشعوب الافريقية ـ الاسيوية، تواجه سياسي يتمثل في الاستعمار والنضال ضده ، وتواجه حضاري ، يتشخص في التجاذب بين المدنية الحديثة ، والحضارات التقليدية في آسيا وافريقيا والاقيانوسية، وفيما كان المد الاستعماري بالغا الاوج في غضون تلك الظروف ، كان التواجه بين المدنية الحديثة ، والحضارات التقليدية ، قد ادرك المدى الذى كان من اللازم ان يصل اليه الامر بعد خمسة قرون من

الانفصام الحضاري بين الشرق والغرب ، ونمو الحضارة في اوروبا ، تحت ظروف وبحسب مقاييس جديدة ، تم استعداد هذه الحضارة بعد ذلك ، لابتلاع غيرها من الحضارات بعد ان نمت وبلغت عنفوانها ، واذا كان القرن التاسع عشر ، قد سجل حالة بلوغ الحقبة الاولى قبله اقصاها ، فقد كان ايضا ، وبنفس المقدار ايذانا بانفتاح المرحلة بعده المتمثلة في القرن العشرين . وما حصل فيه من تقلبات في موازين السياسة والحضارة بالعالم ، ففي القرن العشرين اخذت الحيرة في افريقيا واسيا ازاء المدنية الحديثة تنجاب اكثر فاكثر ، واصبح من الممكن بذلك تبين قدر متزايد من التعاطي بين المدنية الحديثة ، والحضارات القديمة ، في مجالات فكرية وفنية واجتماعية ونحوها ، وقد صاحب هذا التطور الواقع في مستوى حضاري ، تطور مواز على الصعيد السياسي يشمل كل العالم ، ويتمثل في انتهاء عهد الاستعمار الاوروبي ، وبروز الدول الصغرى كقوة دولية في الميدان ، لها اهمية مطردة ، ولم يكن الامر ، مثل هذا ، في غضون القرن التاسع عشر حيث كان الوضع السياسي العام في العالم ، مختلفا تماما ، عما هو عليه في هذا النصف الثاني من قرننا ، وحيث كانت نفسيات الشرقيين والافارقة ، ازاء المد الحضاري الاوروبي ، غير ما عليه نفسياتهم الآن ، بعد ان القوة ، وصار يراودهم الامل في ان يذهبوا الى حد مجاراته واللحاق بركبه! ذلك انه الى حد القرن التاسع عشر ، بينما كان الغربيون يتمركزون في العالم ، كانت هناك حالة من الانبهار امام المدنية الحديثة حالة انبهار اجتاحت شعوب القارتين بنسب تقل او تكثر ، وبمقدار احتكاك شعب من هذه الشعوب بآثار المدنية الزاحفة ، ودرجة استعداده للانفعال بها . وقد كانت حالة الانبهار هذه ، تقع بصورة طبيعية في كثير من الاحيان ، نتيجة لقوة ملامح المدنية الحديثة ، وسعة نطاق مظاهرها وطول خمود الشعوب غير الاوروبية قرونا عديدة ، قبل انسياح المد الاوروبي في بلدانها ، الا ان هذا الانبهار ، كان يستغل في عدة احيان ، من ناحية عسكرية وسياسية ، وكان التوسعيون الاوروبيون ، يعملون كل ما امكنهم على تضخيمه ، وتهويل امره ، ليمكنهم الاستفادة بقدر كبير من الآثار النفسية الملائمة لهم ، التي كان من شأنه ان يخلقها على نحو او آخر ، بين الشعوب الافريقية والآسيوية ، وقد بلغت حالة الانبهار هذه ، اوجها في غضون القرن الماضي ، ومن ثم كانت نظرتنا الى ذلك القرن ، باعتباره مفترق طرق تاريخي ، يقع بين القرون الاربعة الماضية التي اختلت فيها موازين التفوق الحضاري والسياسي في العالم ، لفائدة الغرب ، وبين القرن العشرين ، الذي استنفذت فيه حالة الانبهار عند شعوب آسيا وافريقيا كل حتمياتها ، واخذ العالم يتجه ، ولكن ببطء شديد ، الى نوع من التفاعل الحضاري ، جديد من نوعه ، يربط بين مختلف العبقريات الحضارية في العالم ، برباط اكثر ايجابية ، واوسع تجاوبا ، لكن علينا في هذه العجالة ، ان نصرف نظرنا عن المستقبل ، وعن الحاضر ايضا ، لنركز النظر في هذا الماضي القريب ، حوالي القرن 19 ولنرى الامر خاصة من زاوية الحياة المغربية : هناك حقيقتان مهمتان كانتا تحيطان بالمغرب في خضم الظروف العالمية للقرن التاسع عشر اولى الحقيقتين تتعلق بموقع المغرب ، والثانية تتعلق بصفته السياسية والحضارية ، فمن حيث الموقع المغربي الادنى الى اوروبا من اي موقع عربي اسلامي آخر . نجد ان هذا الموقع قد جعل من هذه البلاد ، الارض الاكثر تعرضا من الناحية المنطقية ، لآثار المد الاوروبي البالغ آنئذ اوج عنفوانه وسعة نطاقه ، وموجب المنطقية في هذا ، هو ان المغرب مجاور بالاخص لمنطقة غربي اوروبا ، وقد كان الغرب الاوروبي ، في غضون القرن التاسع عشر ، محور كل اندفاعية للتوسع الاوربي عبر البحر الابيض المتوسط والمحيطين الاطلسي والهندي ، ومصدر طاقة هذا التوسع ، وروافده سياسيا وحضاريا ! . ومن ثم ، فقد كان المغرب بمثابة ملتقى الحاسية الاكثر مباشرة ، بين كل العالم العربي – الاسلامي المعرض للغزو والتوسع فيه ، وبين غرب اوروبا ، القائم على هذا التوسع ، ومدبره والمستفيد منه ، وليس المهم في التوسع الاوروبي الغربي آنئذ ، جانبه السياسي والعسكري فحسب بل ايضا ، وجهه الحضاري ، وبالاخص ما يتعلق من امر الحضارة الحديثة بملابساتها المادية والتنظيمية الباهرة للابصار ، فموقع المغرب من حيث هذا الاعتبار ، كان يفرض على هذه البلاد ، تحديات قوية ، في مختلف ميادين الحياة ، ويخلق مضاعفات حتمية على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي ، لم يكن هناك مناص منها ، بسبب الاحتكاك المباشر المفروض وقوعه ، بين المدنية الحديثة ، والحالة الحضارية التليدة المتوارثة بالمغرب ، وهنا نبلغ الحقيقة الثانية التي اشرنا اليها من قبل . ذلك ان المغرب الذي كان عليه في غضون القرن التاسع عشر ، ان يواجه التحديات الحضارية الواردة عليه من شمال المتوسط ، وان يهضمها ويتمثلها على نحو او غيره ، كان هو – اي المغرب ، امينا في نفس الوقت – على

تراث حضاري اثيل ، تقلد مسؤوليته لدى قرون وقرون ، وحمل بمقتضاه رسالة تاريخية ، اسهم بها في عملية التكييف الحضاري طويل الامد بحوض البحر الابيض المتوسط. وهذه الصفة الحضارية الاصيلة التى للمغرب كان من شأنها ان تسبغ على وجوده السياسي والاقتصادي والاجتماعي رداء ذا مناعة قوية، خاصة وان الرداء الحضاري هذا يقوم باستمرار كاطار واسع ومستوعب لقضايا الحياة وآفاتها عند المجتمع الذى يضمه هذا الاطار. ويكفل له ـ بسبب ذلك ـ القدرة على مواجهة مستمرة لحاجياته ومتطلباته . لكن المد التوسعى الغربي كان من الطموح والنزوع الى الانتشار، بالقدر الذي يستهدف به اكتساح مختلف حالات الوجود السياسي والحضاري في القارات الاخرى، الواقعة فيما بين المحيط الاطلسي والهندي والهادىء ، ومن هنا كانت تبدو في غضون القرن التاسع عشر ، دقة الوضع الذي كان عليه المغرب ، العريق حضارة ، والمرتكز سياسة وتنظيما ، امام امتداد اوروبي قوي الروافد ، تحفزه نزعة جارفة لكسح القيم السياسية والاخلاقية الحضارية ، المتوارثة في اسيا وافريقيا ، في نفس الوقت الذى يندفع فيه الغربيون ضمن هذا التوسع ، الى الاستيطان خارج اوروبا ، واحلال مجتمعات اوروبية في القارتين الملونتين ، كضمانة لفعالية هذا الاستيطان ، وتعميق لصورته المادية والانسانية . ان دقة الوضع المغربي ، من هذه الناحية ، لم يكن يوازيها من الجانب الآخر ، الا سعة فعالية الوجود المغربي ، وقوة الروافد السياسية والحضارية ، التى تسند هذا الوجود ، وتمد له ، بما يبقي له حركيته ، وقدرته على المواجهة والمصاولة والتكيف ، وهذه المكامن الايجابية التى تنطوي عليها الفعالية السياسية والحضارية بمغرب القرن التاسع عشر، قد جعلت المغرب مجالا مستعصيا على الغزو الاوروبي ، بينما كانت اكثرية ما يدعى بالعالم الثالث الآن ، قد وقعت فعلا تحت طائلة الاكتساح التوسعي الغربي . وصار وضعها كمستعمرات امرا مفروغا منه ، من وجهة النظرة القانونية للتوسعيين الاوروبيين ، وتكمن ميزة الفعالية التى يسجلها تاريخ القرن التاسع عشر للمغرب ، في قدرة هذه البلاد على الاحتفاظ بحالة مناعة ازاء الغزو الاوروبي لم تتوفر لكثير غيرها ، لكن هل كانت هذه المناعة نتيجة عزلة جعلت هذه البلاد حينئذ بمنأى عن التأثر بالتيارات الخارجية ؟ ان هذه نقطة جديرة بالالتفات ، يثيرها هذا التساؤل في اول ما يثيره ، وتتعلق هذه النقطة التى اليها نشير ، بموضوع العزلة او اللا عزلة ، التى يمكن ان يكون موقف المغرب قد انطبع بها في تلك الظروف العالمية الدقيقة بالذات : فثمة من قد تذهب به محاولة تعليل الظاهرة ، ظاهرة مناعة المغرب في القرن التاسع عشر ـ وهو ادق واحرج فترات تاريخ الاستعمار الاوروبي ، كما اسلفنا ـ هناك من قد يذهب في محاولة التعليل الى القول بأن تلك المناعة كانت ناشئة، في كثير من اسبابها عن حالة عزلة ، التزمت بها هذه البلاد ، حفاظا على استقلالها وضنا به على اي ظرف خارجي ، قد يأتي فيودي به ، ومثل هذا المنطق في التعليل ، قد يغري بالاخذ به في كثير من مواطن النظر التاريخي المتعلقة بالمغرب في خلال القرن التاسع عشر، الا ان الذى يتبلور عند تدقيق النظر ، ان المغرب لم يكن حالتئذ ، منغلقا ، يعيش في حالة عزلة دولية ، كما قد نتصور من مفهوم العزلة ، لقد كان المغرب ضنينا حقا باستقلاله، شديد الحرص والحذر امام المناورات السياسية الدولية بيد انه لم يكن يعيش حالة عزلة حقيقية ، وان كانت الاحوال الدولية ، قد انصبت حالتئذ على عزله جغرافيا ، وتضييق المجال امامه بالاخص ، من ناحية علاقاته الافريقية والمتوسطية . ان علينا ـ بصدد النظر في امر العزلة او اللا عزلة بالنسبة لمغرب القرن التاسع عشر ، ان نميز بين حقيقتين اساسيتين ، تتعلقان بالموضوع : (اولا) سياسة عزل المغرب التى كانت تنهجها كثير من دول الغرب الاوروبي الطامحة الى اصطناع مواطىء قدم لها بهذه البلاد. (ثانيا) عمل المغرب على تحديد نطاق العزلة المفروضة عليه من جهة ، وتلافيه في نفس الوقت. المحاذير التى تنتج عن سياسة تفتح واسع على اوروبا في غير تحفظ ولا حذر . وفيما يتصل بالنقطة الاولى نجد المغرب الذى كان في القرون السابقة للقرن التاسع عشر ، على درجة من الترابط وثيق مع دول المتوسط ومناطق افريقيا جنوب الصحراء ، نجد المغرب هذا ، قد دارت حوله حركة التفاف توسعية اوروبية ، بعد ان سيطر الاوروبيون على غرب افريقيا السوداء، ونهجوا نهجهم التوسعي في الشمال الافريقي ، الى الشرق من المغرب ، وليس هذ وحسب ، بل ان البحر المتوسط الذى كان ـ خلال الدهور ـ مجال تفتح مغربي على اوروبا والشرق ، قد صار هو كذلك ، في غضون القرن التاسع عشر ، بمثابة بحيرة اوروبية محفوظة ، يحط فيها النفوذ التجاري والسياسي الاوروبي بكل كلكله، ولا يترك للبلدان الاخرى غير الاوروبية ، مجالا له اهمية ما للتحرك في نطاق هذه المنطقة الحساسة

أن العزلة التي احيط بها المغرب حينئذ ـ هكذا ـ في القطاع الافريقي والمتوسطي ، لم يكن يخفف من وطأتها الا عمل المغرب نفسه ـ كما اسلفنا ـ من اجل تحديد نطاق هذه العزلة ، وتجريدها كلما امكن، من المفهوم السلبي الذي تفرضه حالة العزلة في العادة . وقد كان التفتح المغربي ، الواقع في اطار من الحيطة والحذر ، كان ذلك التفتح ، بمثابة رد فعل ايجابي ، على حالة التطويق التي احيط بها المغرب حالتئذ ، وقد برز المولى الحسن الاول في ذلك الظرف التاريخي الدقيق ، ليكون رائد هذا التفتح الايجابي المغربي ، وليكون في نفس الوقت امينا على هذا التفتح ، كي لا يصبح بمثابة الثغرة الكبيرة ، تتمكن معها السياسة التوسعية الدولية من تسجيل نقطة او نقط في رقعة الصراع ، الذي كان كل البحر المتوسط ، مجالا له ، ومتأثرا بظروفه. ان عملية التفتح في حد ذاتها عملية جد دقيقة ، وذلك لما تتطلبه من مهارة فائقة في الملاءمة بين عناصر البيئة المتفتحة ، والعالم الخارجي المتفتح عليه ، وما تقتضيه من استعدادات فكرية بعيدة الافق ، للتوصل الى حالة ملاءمة ناجحة من هذا القبيل ، لكن الظرف الدقيق الذي تميز به الجو العالمي في القرن التاسع عشر ، قد اضاف الى دقة عملية التفتح من حيث مبداها مصاعب اخرى ذات صبغة سياسية وسيكولوجية ومادية، ناشئة في اساسها من سمة التناقض في الاحوال والممكنات بين اوربا الغربية كقوة توسعية ، وبين الضفة الافريقية للبحر المتوسط كمجال متوسع فيه ، وارض محكوم عليها آنئذ بالتبعية. هذا التناقض في الحال والممكنات، لم يكن من اليسير معه التخطيط لسياسة تفتح على العالم الاوروبي، وتنفيذ هذه السياسة في ظروف ملائمة او بالاقل في ظروف مقبولة بقدر عادي . وقد عاش المغرب طوال العصر الوسيط ، متفتحا على عالم البحر المتوسط ، عاملا في محيط سياسته الدولية مؤثرا، وبصورة قوية الفاعلية ، على تيارات التاريخ وتطوراته في عموم المنطقة ، ويسجل تاريخ العلائق السياسية والحضارية بين المغرب واوروبا خلال العصر الوسيط واثناء عهد الدولة العلوية، يسجل خطوطا طويلة عريضة، يحفل بها تاريخ الضفتين ، وتنطبع بها كثير من صور هذا التاريخ ، الا ان ظروف القرن التاسع عشر ، بهذا الصدد ، كانت ـ كما سقناه ـ ذات خصوصية جد مهمة، ويأتي ذلك من انقلاب موازين القوى في المتوسط وفي العالم ، لصالح الغرب الاوروبي في الغالب . وانفراد المغرب تقريبا، من بين الاكثرية الكاثرة من مناطق آسيا وافريقا ، بموقفه الصامد سياسيا وحضاريا تجاه المد التوسعي الغربي الاوروبي، ووجوده نتيجة لذلك ، ملزما بزيادة الانفتاح على هذا الغرب نفسه ، ليكون في مستوى مصاولته بالوسائل الجديدة المتطورة ، المتوفرة للغربيين. وتسوق الرواية التاريخية الحديث عن جهود المولى الحسن الاول من اجل تنظيم هذه المواجهة السياسية والحضارية الواسعة بين المغرب وغربي اوربا ، وما سار عليه من نهج بعيد المدى في هذا الصدد . وتشير سياسة ايفاد الطلبة الى غربي اوروبا ، للتثقف والتكون الحديث ، تشير الى سعة الافق الفكري التي اخذ يتم فيها تنفيذ هذا النهج ، المستهدف منه الاعداد للرد على التحديات الاوروبية بصورة مناسبة ، فالعنصر الانساني في كل عمل تطويري هو العنصر الاهم من اي عنصر غيره ، لانه الاكثر فعالية ، والاضمن نجاحا . ان العمل على تعليم وتدريب الطلبة ، بحسب الاساليب الجديدة ، والمقاييس المتطورة في المجال المدني والعسكري ، هو بطبيعة الحال ، ما ندعوه بـ « تكوين الاطارات » طبقا للتعبير السائد في عصرنا . وتكوين الاطر ـ كما تتفق عليه جميعا ـ هو مفتاح اي عمل جدي للنهوض على مستوى مجتمع من المجتمعات . وبطبيعة الحال ، فان القضية تحتفظ في عصرنا بصبغتها شديدة الالحاح .وكذلك كان الامر في مغرب القرن التاسع عشر ، الذي اخذ فيه المولى الحسن الاول بزمام فكرة جذرية كهذه الفكرة الجذرية . وثمة ملحظ له اهميته في الامر . ويتعلق بجغرافية توزيع الطلاب الذين اوفدوا الى اوروبا ، في هذا المجال ، فقد توزع اولئك الطلاب على اقطار اوروبية متعددة ، منها ما ينتسب الى جنوب اوروبا كايطاليا مثلا ، ومنها ما ينتمي الى اواسط اوروبا كالمانيا ، ومنها ما هو من صميم الغرب الاوروبي ، اما جنوبا كاسبانيا، او شمالا كانجلترا . ان هذا التوزيع، لا يخلو من دلالات ، ان اريد ان تستقى منها دلالات معينة . فهو يشير الى الرغبة التي كانت قائمة حينئذ ـ ولا شك ـ في تنويع المصادر الثقافية والحضارية المأخوذ عنها . وهذا التنويع مما يضمن لعملية تلاقح من هذا القبيل حظوظا ايجابية مهمة ، تؤدي الى اغناء المحتوى الفكري والتجريبي الحاصل من وراء العملية ، وتأمين نوع من التكامل لا غنى عنه في صلب النهضة العلمية والحضارية المنتظرة من وراء المبادرة من اساسها ، وثمة ما قد يعتبر اهم من هذا كله ، وهو ما يرشد اليه تنويع المصادر المأخوذة عنها ـ كما في مثال المبادرة المغربية ـ من كون المغرب قد عرف بذلك ،

كيف يتلافى الوقوع تحت وطأة توجيه معين ، صادر عن دولة معينة من الدول الاوروبية التي كانت تتصارع ساعتها على اتخاذ مواطىء قدم في منطقة أقاصي المتوسط الغربي ، ولم يتجه لواحدة فقط من بين الدول الاوروبية التي لها امكانيات في هذا المجال؛ على انه لا بد أن يرد بصدد كل هذا ، السؤال عن مدى اهمية هذه المبادرة في المجال المغربي، والجواب ، ان تلك البعثات الطلابية، قد كونت حلقة اتصال للعقل المغربي بتيارات الفكر والعمل السائدة في الغرب خلال القرن التاسع عشر . وابرزت مدى حيوية هذا العقل في مجال الاستجابة للمقتضيات الجديدة الطارئة عليه ، واذا كانت علائق هذه البلاد بالغرب قد انطوت في المدى الطويل ، على ملابسات سياسية واقتصادية وغيرها ، فان مبادرة ارسال الطلاب ، قد أعطت للعلائق المغربية الاوروبية ، ملابسات اخرى على الصعيد الفكري والحضاري بصورته الموجود عليها في القرن التاسع عشر ، وكان ذلك حلقة في سلسلة التفتحات المغربية على العالم الا انها كانت حلقة ذات اهمية كبيرة في المضمار السيكولوجي خلال فترة تميزت ببلوغ الانبهار عند كثير من الشعوب الافريقية والآسيوية درجة قصوى امام المدنية والثقافة الاوروبية .

* * *

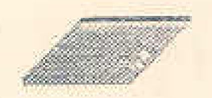
لم يكن بعث وفود الطلاب لاوربا الا مظهرا واحدا من جملة مظاهر تشير الى سعة المجال الذي انفتح للتفاعل بين المغرب والتيارات الحديثة . والواقع ان الاحتكاك المغربي بهذه التيارت، لم يكن قوامه فقط الجانب الذي ذكرنا ، اي الجانب المتجلي في الاحساس المغربي بابعاد الوضعية العالمية الجديدة ، واستعداد المغرب للتلاقي مع تيارات هذه الوضعية ، لاكتساب القدرة على التوقي من ملابساتها السلبية ، وانما تعدى الامر ذلك الى درجة حدوث تطورات اقتصادية واجتماعية بعيدة الاثر في حياة البلاد ، واخذ الدولة المغربية بزمام المبادرة في مواجهة هذه التطورات ، واعطاء الانعكاسات الاجتماعية المترتبة عنها محتوى ايجابيا مناسبا . وليس من اللازم ان نعزو هذه التطورات الى عامل الاحتكاك بتيارات الحياة الدولية لا غير ، فقد كان على المغرب ــ بصرف النظر عن ذلك ــ على اعتباره بلدا ذا امكانيات مادية وبشرية خصبة ، ثم بالنظر ــ بعد ذلك ــ لموقعه في عقر دائرة الاتصال بين ثلاث قارات وبحرين عالميين ، كان على هذه البلاد ، نتيجة لذلك كله ، ان تواجه نموا متزايدا في حجمها الانساني ، وان تجابه بالتالي الانعكاسات المادية التي يخلقها مثل هذا النمو المتطلب باستمرار لواسع الامكانيات . وقد عرف مغرب القرن التاسع عشر ، حالة نمو اقتصادي واجتماعي مطرد على هذا القرار ، وتمثل هذا النمو في مظاهر اساسية من ابرزها : (1) ازدياد الحجم السكاني بصورة تضاعف فيها عدد السكان في بعض المناطق كطنجة مثلا فيما بين سنة 1884 و 1895 . (2) تضخم حجم المدن وانتشار مزيد من مجالات التعمير فيها ، وذلك بصورة ادخلت تغييرا مهما على الخريطة الحضرية للمغرب ، ووسعت من نطاقها بقدر كبير . (3) تركز كثير من النشاطات الاقتصادية بالمدن الساحلية . وبالاخص : المدن التي لها موانيء ذات اتصالات تجارية . (4) ازدياد تنوع مجالات العمل، وبروز قطاع البناء خصوصا، كقطاع مهم لاستيعاب الايدي العاملة. كل هذه التحولات ، كان من شانها ان تحدث مضاعفاتها على الحياة الاجتماعية العامة بالبلاد ، وقد كان من ابرز آثار ذلك : حدوث تغيرات كان لابد من حدوثها على مستوى التوزيع السكاني بين المدن والقرى والارياف، فحصل المزيد من التنقلات بين الحواضر والارياف ، وتضخم الحجم السكاني للمدن ، واتسع نطاق العلاقات الاجتماعية بالتبعية لذلك ، وملاحظة تطورات كهذه تشعرنا بضرورة تغيير الفكرة التي ربما ياخذ بها البعض ، وفحواها ان مظاهر التوسع الحديث ، المتمثلة في تضخم السكان ، واستبحار العمران ، لم يعرفها المغرب في عهود استقلاله الاول ،وانها ما حدثت الا بعد ذلك ، فالسجلات والوثائق المتوافرة ، تشير الى حالة معاكسة لهذه ، بقدر كبير ، وترشد الى ان المغرب قد عرف ــ في غضون القرن التاسع عشر ــ اعراض توسع مادي وبشري على نطاق واسع وان هذا التوسع ، كان من سعة النطاق بحيث نشأت عنه حركة حضارية ذات شأن في تاريخ التطور الحضاري المغربي. وهذه بعض الارقام للدلالة على مبلغ التوسع الذي وقع من الناحية الاجتماعية ، والارقام التي نسوق ، تتعلق بالفترة فيما بين سنة 1832 و 1866 ، اي خلال ثلث قرن تقريبا ، فقد ازداد سكان الرباط في غضون تلك الفترة ، بنحو 18 في المائة ، وسكان آسفي بحوالي 33 في المائة ، والعرائش 50 في المائة ، وطنجة 60 في المائة ، اما الجديدة فقد بلغت نسبة التضخم الاجتماعي فيها درجة 400في المائة، واضخم من هذا ، مثال الدار البيضاء ، التي رقي الرقم السكاني فيها الى 700 في المائة ، وما فتئت النسبة ترتفع بعد

ذلك ، في غضون القرن التاسع عشر وما بعده ، وقد عرف المغرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، توسعا في ميادين التجارة الداخلية والخارجية ، موازيا لهذا النمو الحضري الذي سجلته تلك الفترة من تاريخنا القريب، وكان لنشاط الموانيء اثر مهم في اجتذاب اعداد كبيرة من السكان الى المدن المينائية حيث يجدون مجالات واسعة للنشاط والحصول على الموارد ، ويعرض جان لوي مييج » (1) لصور طريفة من هذا القبيل ، منقولة عن الوثائق الصحفية وغيرها اثناء ذلك العصر ، ويذكر من ضمن هذه الصور ، ان ضواحي طنجة والعرائش قد انتشر فيها العمران خلال القرن التاسع عشر ، على نحو واسع النطاق ، وان النمو السكاني في مدينة الجديدة، بلغ درجة صارت معها البيوت كلها غاصة ليس منها فارغ ، الامر الذى ساعد على انسياح المساكن عبر ضواحي المدينة . ومثل هذا في البيضاء ، حيث تطلب خزن الحبوب هائلة المقدار ، التي جاد بها محصول سنة 1887 ، تطلب بناء مزيد من المخازن الواسعة ، هذا الى المزيد ايضا من المساكن التي استوجبها آنئذ ، التزايد السكاني المطرد ، ونفس الحالة من التضخم الاجتماعي لوحظت اواخر القرن التاسع عشر في مدينة الصويرة، وحتى في المدن الداخلية كسطات والقصر الكبير وسواهما . وقد ارتبط النمو السكاني في المدن الداخلية كمثال ما ذكرنا ، ارتبط بحركة نشاط تجاري كبير ، نتيجة لجودة المحاصيل من جهة ، والازدهار العام الذى سجلته حركة التصدير والاستيراد بين المغرب وعدد من الاقطار الاوروبية .

على ان المهم في ظواهر النمو والتوسع التي ذكرنا ، لا ينحصر في مجرد وجود هذه الظواهر وكفى ، وانما يبدو جانب كبير من اهمية هذه الاحوال، فيما قامت به دولة المولى الحسن الاول ، والعهود قبله ، من اعمال ايجابية . في نطاق تشجيع عوامل التوسع والنمو المشار اليهما ، ومواجهة المتطلبات التي تفرضها اوضاع سريعة التطور من هذا القبيل . ففي سنة 1866 ، صدرت اوامر شريفة بالقيام بحركة توسع عمراني بعيد المدى ، في مدينة ءاسفي، حيث شيدت مجموعات من الدور والفنادق والمتاجر . وفي سنة 1890 ، صدرت أوامر مماثلة ، باقامة حي جديد في مدينة الصويرة ، وبناء اعداد كبيرة من المساكن ضمن ذلك . وفي سنة 1892 ، اعطيت اوامر عليا مماثلة ايضا بشأن الدار البيضاء ، وهكذا. ولم نسق هذه الوقائع ، التي تثبتها المصادر في الموضوع لتحديد احصائية معينة ، وانما هي مجرد صور نموذجية لحالة اقتصادية واجتماعية واسعة الابعاد ، سجلها المغرب على عهد المولى الحسن الاول والعهود قبله . وهذه الحالة ، تدل ـ كما اسلفنا ـ على ان رياح التحول الاقتصادي ، والاجتماعي ، التي حملها معه القرن التاسع عشر ، قد تشبع بها المغرب آنئذ بقدر كبير ، وعرف كيف يصوغ منها احوالا ايجابية ، على الرغم من الجو السياسي المريب ، الذى خلقه التوسعيون الاوروبيون في عموم منطقة البحر الابيض المتوسط ، تمهيدا للسيطرة على مجموع الضفة الافريقية منه .

سلا ـ المهدي البرجالي

(1) «Le Maroc et l'Europe», Jean-Louis Miège





النص الكامل للبحث الذي القاه الاستاذ محمد التازي في مؤتمر الادباء العرب المنعقد في بغداد من 19 الى 27 ابريل 1969 .

ترسب في اذهان كثير من المفكرين ان المغرب بحكم بعده الجغرافي عن منطقة الصراع بين العرب والصهيونية ومن يقف وراءها مساندا لاهدافها ، بعيد كذلك بعاطفته وشعوره ، وهذا الترسب هو الذي يصدر عنه اولئك الذين يرصدون الحركات الادبية وتفاعلاتها من المهتمين والمختصين والمتفرغين في الجزء المشرقي من العالم العربي .

من هذا المنطق الواقعي نستطيع ان نفهم سر الانفصام الملاحظ في موقف الادب العربي من النكبة بين ادباء المشرق وادباء المغرب . ولعلني مسؤول ان اوضح لكم موقف الادب المغربي من القضية الفلسطينية قبل هزيمة حزيران ، وبعدها . ان هذا الكشف ضروري – حتى ولو عجز الوقت المحدد عن استيعابه – ليفهم بعضنا بعضا في البداية . ولنكون موضوعيين عند تقييمنا لحركة الفكر العربي في مواجهة التحديات التي تحيط به .

الادب المغربي بعامة ادب كفاح ، وادب معركة ، وادب حرية ، وادب التزام ، وادب عروبة .

ادب كفاح لانه منذ المواجهة التاريخية بيننا وبين اوربا المتوثبة ، ومنذ بدء النهضة العربية كان قدر علينا ان نجند ما نملك من سلاح لنكافح ضد الفناء في دول اجنبية عنا لغة وفكرا وتاريخا، وحضارة ، وما كنا نملك من مواجهة التقدم العلمي والتقنية العسكرية للمستعمرين ، غير سلاح الكلمة ، فانطبع ادبنا بصرامة المكافحين فكان ادبا جادا لا هزل فيه ، وجافا لا ليونة في مفرداته وبنائه .

وكان ادبنا ادب حرية ، لايماننا انه بدون حرية ، فلا فكر ، وبدون حرية فلا ادب ، وبدون حرية فلا التزام . ولان ادبنا الحديث ولد مع كفاح الشعب ، كان واجبا ان يبقى وفيا لهدف كفاح الشعب ، وهو الحرية .

لهذه الخصائص القومية والانسانية التي تطبع الادب المغربي ، ارتبط الادباء المغاربة بكل قضايا الحرية والقومية ، وفي الفترات التي كان الفكر العربي – شعرا – يمر بالمرحلة الرومانسية في مدرسة ابوللو ، وبالصراع النقدي عن الوحدة العضوية للقصيدة بين مدرسة العقاد والمازني ، وعبد الرحمن شكري ، وبين انصار شوقي وحافظ ، كان الفكر المغربي في الفترة ذاتها ، اي في اواخر العشرينيات واوائل الثلاثينيات يصارع محاولة الاستعمار في القضاء على عروبة المغرب لمحو قوميته ، وعزله نهائيا عن الوطن العربي لغة وتفكيرا .

كان جيل آبائنا اذ ذاك يقاوم الانفصال القومي بين العرب والبربر ، الذي اراد الاستعمار فرضه على المغاربة ، وسن قوانين لتطبيقه . وكان الفكر العربي

ـ نثرا ـ يهدر طاقته في صراع رجال السياسة على الحكـــم .

في ذلك الحين ايضا كان شعب فلسطين يقاوم السياسة البريطانية الهادفة الى غرس خنجر اسرائيل في قلب العالم العربي ، فلم يعجز الفكر المغربي ان يربط بين الحادثين ، ويمزج بينهما ، ويستصرخ الامة العربية ان تستيقظ من رقادها . ويسجل السيد علال الفاسي هذا الترابط والتمازج في قصيدة نظمها اثر المظاهرات النسائية في فلسطين عام 1932 يقول فيها :

ان البلاد يعيث فيها المستبدون الشداد
يتمتعون بخيرها ونظل نحرم من سداد
يابون ان نسعى لعلم او لفكر في اتحاد
والآن قد خطت فلسطين لنا سبل السداد
حيا الاله فتاتها وحمى مواقفها الجياد
كوني فتاة العرب رائدة لنا يوم الجلاد
ضمي الصفوف ووحدي لاتختشي اهل العناد
لا تتركيها فرقة ترمي بنا في كل واد

ولم ينشغل المفكر المغربي بقضايا وطنه الخاصة، بل انه يعتقد ان مصيره مرتبط بمصير الامة العربية؛ لذلك بقي وفيا لانفعاله مع الانسان العربي في شقائه ومحنته وتطلعه لغد افضل . وبحكم تجربتنا الطويلة مع الاستعمار ، وادراكنا المبكر لهدفه وغايته ، كنا ننظر باشفاق الى مصير المعركة بين الصهيونية والاستعمار من جهة ، وبين الشعب العربي الطموح النبيل ... لذلك صدقوني اذا أكدت لكم ان النخبة الواعية المفكرة في المغرب لم تفاجأ بما وقع يوم خامس يونيه الاسود ، ولكن فوجئت بنتائج ما وقع ، وبفداحة ما حدث ، ان الحرب قدرنا مع الاستعمار والصهيونية ، ولو لم يخلق الاستعمار اسرائيل لخلق مسوغات يستنزف بها قدراتنا وطاقتنا ، ويعرقل بها مسيرتنا للخلاص من اسر القرون الوسطى ، ومن استرقاق الرجعية للقيم الانسانية لدى المواطن العربي .

وحين وقعت الكارثة ، انتحرت فتاة ، لانها خسرت رهانا مع صديق بانتصار العرب ، وزاغ عقل شيخ ، لان القدس سقطت .. واغرورقت عيننا قائد بالدموع ، لان جيشه لم يستطع الوصول الى ارض المعركة ... ولم يسقط الفكر المغربي ضحية لهذه المظاهر الطبيعية التي لا يملك المرء لها ردا ، وانما حافظ على صفائه ، وواصل استيعابه لبواعث الهزيمة، ووسائل الاستفادة منها ، مستقصيا لظروفها. لم يصمت شاعر ، ولم يخب ذهن كاتب ، ولم ينطفيء ادارك مفكر .

بقي الشاعر المغربي محافظا على اصالته الفنية، وعلى صدق عاطفته يستوي في ذلك الشعراء المخلصون للعمود الشعري، وشعراء المدرسة الحديثة ، واذا كان هناك من اختلاف بينهما فهو اختلاف استوجبه التكوين الثقافي ، واستلزمته النظرة الخاصة لكل فريق الى اسباب الهزيمة .

فمن الفريق الاول نجد شعراء ، امثال علال الفاسي ، المهدي ابن ادريس العمراوي ، ادريس الجائي ، عبد الكريم التواتي ، محمد الحلوي .

ومن الفريق الثاني شعراء امثال الطبال ، والجوهري ، ومالكة العاصمي ، وابن دفعه ، وابو عسل وابن ميمون .

بل ان النكبة خلقت مجموعة من الشعراء ، سمعنا اصواتهم للمرة الاولى ، وفي ميدان القصة كان ابرز الاعمال القصصية مجموعة الادبية خناثة بنونة « النار والاختيار » ، التي تضيف رصيدا من الشعور القومي الصادق الى ادب النكبة .

ومن الكتاب : رفيقة الطبيعة ، وعبد الكريم غلاب ، وعبد الجبار السحيمي ، وعبد القادر السميحي، والعربي المساري ، ومحمد العربي الخطابي ، ومحمد الصباغ ، ومصطفى اليزناسني ، والهرادي ، وعمر نجيب ، وعبد المجيد بن جلون .

واصدرت دار العلم كتابا حلل فيه مؤلفوه : غلاب ، والسحيمي ، والمساري اسباب الهزيمة وظروفها ، ونشطت حركة الترجمة لتعريف المواطنين بما يقوله خصوم العرب واصدقاؤهم ، ودعا مؤلف كتاب ضد اسرائيل لزيارة المغرب ، وترجمت جريدة العلم كتابه ، بعد ان نشرته بالفرنسية جريدة الراي. واوفدت الصحف مراسلين تجولوا في انحاء العالم العربي، ودرسوا على الطبيعة ظروف النكبة ، وعادوا لينشروا التحقيقات والدراسات والاحاديث باللغتين العربية والفرنسية .

وتاسست جمعية مغربية لمساندة الكفاح الفلسطيني ، وتتكون من ادباء ، ومحامين ، واطباء ، واساتذة ، وطلبة وعمال. ولعل المغرب البلد العربي الوحيد الذي صدرت فيه بعد النكبة جريدة اسمها « فلسطين » لا تنشر الا ما له صلة بقضية فلسطين .

فما ميزة هذا الادب ، ما اصالته ، وما روافده ؟
هل هو ادب مأساة ، او ادب معركة ؟

هل هو ادب يأس وضياع، ام ادب اصرار على احراز النصر ؟

هل هو ادب استسلام ، او ادب مقاومة وفداء ؟

هل هو ادب اعلام ودعاية، ام ادب كشف للحقائق وتوعية للجماهير ؟

هل هو ادب نكبة ، او ادب نكسة ، او ادب هزيمة ؟ ...

ان الادب المغربي بجميع اشكاله التعبيرية لم ينزلق الى هاوية الغموض والابهام ، ليبتعد عن مواجهة المشكلة الحقيقية ، كما نلاحظ ذلك عند بعض الادباء في المشرق العربي ، الذين الفوا ان لا يعالجوا القضايا القومية والانسانية الا حين تمسهم هذه القضايا مباشرة . واغلب هذا المس لا يكون تلقائيا بل لا بد له من مؤثر سياسي .. فينقلب الادب الى اعلام ، والى دعاية .

ان الاديب المغربي الذى لم تفاجئه الهزيمة وما نجم عنها من احداث ، وجد في الهزيمة دليلا على صدق حدسه واحساسه ، ففى الوقت الذى ظهر فيه ادب التشاؤم واليأس والشك في كل القيم والمقومات الاخلاقية والانسانية ، حرص الادب المغربي على التأكيد على ضرورة التمسك بالاصالة الروحية للانسان العربي . ونحن على خلاف واضح مع بعض النقاد العرب ، فعندما لاحظوا سطحية الادب العربي بعد الهزيمة ، وتعبيره المباشر عن آثارها ، زعموا ان ذلك يرجع الى فقدان العمق والاصالة من الثقافة العربية المعاصرة . بينما زعمنا ان الثقافة العربية غنية بالعمق والاصالة ، وان مرد السطحية الملاحظة ، هو سقوط الادب بين براثين الاعلام . فلا الادب استمر على اصالته محافظا على مقوماته ، ولا الاعلام استفاد من قدرة الاديب على التعبير ، فتكررت معه قصة الغراب الذى اراد ان يتعلم مشية الحمامة ، فنسي مشيته ولم يتعلم مشية الحمامة ، وكانت كارثة الاعلام العربي الممهدة للكارثة العسكرية ، وبذلك فقدت الكلمة اشراقها ، وصدقها ونفاذها ، واخذ المواطن العربي يكذب كل ما يسمع ويقرا ، بعد ان كان يصدق كل ما يسمع وكل ما يقرا ، واصبحت المشكلة في نظرنا ليست مشكلة تعبير وقول وتبليغ ، وانما المشكلة مشكلة تصديق ما يكتب وما ينشر . فقد فقدت الثقة بين الاديب والانسان العربي ، حين اكتشف هذا الانسان الطيب المكافح، انه كان ضحية للمذياع والتلفاز، والصحيفة والكتاب ، قبل ان تزحف عليه قوى الشر باسلحتها الفتاكة لتقتاله ، وتحرقه وتشرده .

في المغرب حرصنا كل الحرص على ان نحتفظ بادراكنا السليم لرسالة الاديب ودوره في المعركة ، فكان ادبنا ادب كشف لحقائق الواقع العربي اجتماعيا وسياسيا ونفسيا ، توعية للجماهير ، حتى تبقى محافظة على تماسكها النفسي ، فلم يكن ادب دعاية واعلام .

كذلك فان الادباء العرب انفصلوا الى فئات ثلاث بعدما حصل يوم 5 يونيه . وهذا الانفصال لم يكن ناتجا عن اختلاف في التفكير او في النظرة لما وقع يوم 5 يونيه ، وانما حصل بتأثير وسائل الاعلام التى ما تزال لها الكلمة الفاصلة في محاولة التأثير على التكوين الانفعالي للانسان العربي .

وهذه الفئات هي :

فئة النكسة ، التى تعتقد ان ما حدث يوم 5 يونيه هو مجرد نكسة اصابت الكفاح العربي ، وانها لا يجب ان تؤثر باي حال على السياسة والمنهج والاسلوب والتفكير ، وكل ما كان خطة للعمل قبل 5 يونيه . وهؤلاء هم الذين اريد لهم ان يرفعوا علم النكسة بعد الحرب ، واتخذوا من الكلمة مسوغا للاستمرار في السياسة التى كان سوقها رائجا قبل 5 يونيه .

وفئة النكبة ، اولئك الادباء الذين اطلقوا على ما حدث يوم 5 يونيه اسم النكبة ليعبروا من خلال هذه التسمية على استمرار شكهم في السياسة والمنهج والاسلوب الذى كان سائدا قبل 5 يونيه ، وزادتهم النكبة اقتناعا بتفكيرهم وتأكيدا لشكهم .

وتسمى الفئة الثالثة ما حدث بعد الخامس يونيه بالهزيمة العسكرية ، لتحدد مسؤولية ما وقع، ولتضع خطا فاصلا بين المسؤولية الشعبية التى انزوت وخفتت ، وبين المسؤولية العسكرية التى اوشكت ان تقضي عليها . وجاءت الهزيمة العسكرية لتؤكد هذه الحقيقة ، واذا كان المستقبل من صنع الحاضر ، فان الحاضر من صنع الماضي ، والذين لا يتذكرون الماضي محكوم عليهم ان يعيدوا اخطاءه ، حتى ولو لم يريدوا ذلك . ومجرد رفض الماضي لا

يقيم حاضرا ، ولا يعد لمستقبل ، رفض الماضي لا يكفي ، وارادة التغيير لا تجدي ، وتقييم ما حدث يوم 5 يونيه وما نتج عنه يجب ان يكون تقييما سليما ، واخشى اذا نحن حاولنا هذا التقييم ان نجد نتائجه سلبية .

ايها السادة :

بعد الهزيمة العسكرية فى يونيه 1967 ، تكشفت لنا بعض الحقائق التى لا نزعم انها غير قابلة للمناقشة، وانما هي افكار ساكون سعيدا لو حظيت بانتباهكم .

اولا — ان دور الادب بعد الهزيمة لا يجب ان يكون دورا تسجيليا لما حدث ، او دور المتنبيء لما قد يحدث ، فتلك مهمة الصحفي ، وليست رسالة الاديب .

ثانيا — ان معظم النتاج الادبي فى هذه الفترة كان تعبيرا عن العواطف التى حركتها الهزيمة فى نفس الانسان العربي ، فلم تزد على ان اذكت نار حقده وسخطه ، ونقمته ويأسه .

ثالثا — ان المثقفين العرب قصروا فى واجبهم نحو الجماهير التى تحولت من فعل مؤثر ، الى متفرج فى حلبة يتصارع فيها الطموح الشخصي على حساب قضية الجماهير ، فأوشكت هذه الجماهير ان تفقد حس المعركة ، ان لم يكن هذا الفقدان قد وقع بالفعل، وكان من بين اسباب الهزيمة .

رابعا — ان المثقفين كانوا يجهلون كل شيء عن العدو المتربص بهم . ولجهل المثقفين وليد هو جهل الجماهير بحقيقة المعركة التى يجب ان تعبأ بها ، فى الوقت الذى كان العدو يعرف كل شيء عن العرب فاعتدى علينا بالمعرفة ، وواجهناه بالجهل .

خامسا — اننا نعتقد ان تخلفنا الاقتصادي والاجتماعي والتقني ، نتيجة حتمية لتخلفنا الثقافي ، فالتقدم الاقتصادي والاجتماعي والتقني وليد الثقافة، وليس يصح العكس .

سادسا — ان معركتنا مع العدو ليست معركة تقدم وتخلف ، وانما هي معركة ثقافية حضارية .

سابعا — ان العدو جعل التوسع فى اراضينا ، والقضاء علينا المبتدا والمنتهى فى سياسته وتفكيره وتخطيطه ، بينما نجعل نحن بعضنا بعضا هدفا فى تفكيرنا وتخطيطنا .

ثامنا — ان الجماهير العربية ترفض رفضا باتا اي حل سياسي على حساب قضية الارض والشعب ، وان الادب العربي اكره فى كثير من اجزاء الوطن العربي على تجنب تحليل هذا الرفض وتعميقه لدى الانسان العربي .

تاسعا — ان هذه الحقيقة تضع امامنا موضوعا خطيرا لعله اخطر قضية تواجه الادب العربي . وذلك هو موضوع الحرية . فالى اي مدى يتمتع الاديب بحرية التعبير فى الوطن العربي ؟ وهل يكفي ان تصدر القرارات والتوصيات مطالبة بهذه الحرية؟.

عاشرا — ما هذه الحرية التى نطالب بها الاديب ؟ على المؤتمرين ان يقولوا كلمتهم فى صراحة ووضوح ، حتى تنجلي حقيقة هذه الحرية التى نزعم انها ملهمتنا ورائدتنا .

ان اتحاد كتاب المغرب قد درس موضوع حرية الاديب فى مؤتمره الذى انعقد فى الرباط فى شهر يوليه 1968 ، « واعتبارا منه بأن رجل الفكر هو العنصر المتنور فى العالم العربي ، واعتبارا لكونه يتميز بطاقة فعالة هي طاقة التعبير ، واعتبارا لكونه ملزما بتحمل مسؤولية كاملة فى التنوير ، والتوجيه والبناء ، وملزما بالمساهمة فى التقدم الثقافي تحقيقا لتطور اجتماعي ونمو اقتصادي ، حتى يتمكن الى جانب قطاعات الشعب الاخرى من ممارسة حقوقه المشروعة التى كافح من اجلها ؛ فاننا نرى ضرورة فتح مجال عرض وتقبل وذيوع الافكار وحرية مناقشتها » . فلا مسوغ اطلاقا لفرض وصاية على الفكر البشري ، مهما كان نوع هذه الوصاية ، وكيفما كان شكلها ، لان فرض مثل هذه الوصاية وكيفما كان شكلها ، لان فرض مثل هذه الوصاية ستقلص من دور الكتاب والمثقفين ،وتدفعهم نحو العزلة والانكماش واللا مبالاة ، وتدفع بالحياة الفكرية والثقافية الى فراغ يسهل انزلاقها نحو الزيف والتحلل والانحراف ؛ فلا فكر بدون حرية ، ولا كرامة بدون حرية ، ولا حرية ولا كرامة بدون مسؤولية ، ولكن ما بداية الحرية وما نهايتها ؟ .

ذلك موضوع آخر اطرحه امامكم للمناقشة ، فقد تردد هذا السؤال من قبل كثيرا ، من غير ان يصل واضعوه الى تحديد جامع مانع له . علينا ان نبحث ونقارن بين مختلف المفاهيم الحديثة للحرية ، لنلزم انفسنا باصلحها للمجتمع العربي ، وللمستقبل

العربي ، وللكرامة العربية . ولقد مر الشعب العربي بكثير من التجارب ، وخبر عددا من النظم والاتجاهات . فهل استقر على سبيل ؟ ام انه ما يزال حائرا ؟ . . .

حادي عشر – ان كتاب المغرب تقديرا منهم لمسؤوليتهم نحو قضية العرب الاولى ، فلسطين ، الزموا انفسهم فى المؤتمر الذى عقدوه بالرباط فى شهر يوليه 1968 ، بالدعوة الى تجنيد اقلام الكتاب لفضح الاساليب الصهيونية المختلفة ، وقرروا اقامة مهرجانات خاصة لكفاح شعب فلسطين ، مساهمة منا فى دعم الكفاح العادل والمشروع الذى يخوضه الشعب الفلسطيني ، ودعا المؤتمر الكتاب فى جميع انحاء العالم العربي والاسلامي لتوحيد الخطة لمقاومة الخطر الصهيوني .

ولسوف يسعد الادباء المغاربة ان يتبنى المؤتمر هذه المقترحات .

وقبل ان اختم هذا الحديث استاذنكم فى قراءة جزء من قصيدة الشاعر المغربي محمد الحلوي يقول فيها :

وافى الربيع وفي فؤادي مأتم
وربيع اخواني هناك مدامع
فى القدس، فى سيناء، وفى جنباتها
شعب يصوغ ربيعه بدمائه
شعب اراد فهب رعدا قاصفا
ليعيد ارضا دنست حرماتها
فى الستة الايام ضرنا لقمة
سكتت مدافعنا وذاب حديدنا
وخلت مواقعنا كأن لم يحمها
الستة الايام كانت لعنة
الستة الايام كنا قبلها
صهيون تحشد نارها ودمارها
والحرب ليست لعبة او سهرة
ما الحرب الا ثورة لا تعتلي
وا للعروبة ضيعت فى جولة
كانت هزيمتنا نتيجة ضعفنا
اني لآمل أن تهب جموعها
فاذا الهزيمة قوة وعزيمة
لا ترقصوا للزهر فى خضر الربى
فربيع يعرب ليس فى ازهارها

وجراح حزن بالغ الآثار
تجري دما فى موطن الاحرار
وعلى ضفاف النهر فى الاغوار
ويرى الزهور قذائفا من نار
متدافعا فى ثورة الاعصار
صهيون فى صلف وفى استكبار
وشويهة فى قبضة الجزار
وغدت كتائبنا بلا اظفار
قومي بجيش عروبة جرار
للعرب تصرخ فى دم الاحرار
مجدا اقيم على شفير هاري
والعرب بمكر جارها بالجار
حمراء تمتع انفس السمار
راياتها الا يد الثوار
ما قد تبقى من مفاني الدار
ومن التخاذل لا من الاقدار
فى وحدة كبرى لاخذ الثار
واذا العدا خبر من الاخبار
والطير يسبح فى شذاها الساري
لكنه فى محوها للعار

الرباط – محمد التازي

أولية الأدب الأندلسي

خالد بن زيد الكاتب

للدكتور عبد السلام الهراس

لم يتح للاندلس اوائل الفتح العربي استقرار يحقق نهضة علمية ونشاطا ادبيا شاملا واهتماما بالتدوين للتراث ، وعندما سئل احد الاندلسيين عن سبب ضياع « علم » معاوية ابن صالح ، الذى كان مصدرا هاما وفريدا لبعض اسانيد الحديث، اجاب قائلا : « قدم بلدا لم يكن اهله يومئذ اهل علم » وقد حاول بعض المهتمين بالحديث الشريف البحث عن كتب معاوية واصوله وامهاته بعد وفاته فلم يعثر عليها اذ ضاعت ، وذلك ـ كما قال ـ بسقوط همم اهلها (1) .

وان الاندلس ، مع ذلك ، لم تخل فى عصر الولاة من خطباء وشعراء وكتاب ، فقد تسرب الينا، خلال الغموض الكثيف المكتنف لهذه الحقبة ، بصيص من نور كشف لنا اسماء لبعض هؤلاء دون ان يقدر على الكشف لكمية هامة من انتاجهم الادبي. والملاحظ ان اكثر هؤلاء ـ والاكثرية هنا نسبية ـ كان يعيش فى اواخر هذا العصر ، ولقد طال العمر ببعضهم الى ان شاهد حكم الولاة يلفظ انفاسه بل ان منهم من عاش فى ظل الامارة الاموية التى اسسها عبد الرحمن الداخل .

ومن هؤلاء الادباء المخضرمين خالد بن زيد الكاتب الذى برز بشخصيته وادبه على مسرح النزاع بين يوسف الفهري وصقر قريش .

ان دور خالد فى الصراع بين الداخل وآخر ولاة الاندلس هو الفرصة الوحيدة التى اتاحت لنا ان نتعرف على جوانب ضئيلة من حياته وعلى بضعة سطور من نثره ، اما قبل هذا الصراع فلا نعرف عنه شيئا لحد الآن .

اسمه خالد بن زيد (2) ، وفى بعض المصادر ابن يزيد (3) ولعله تحريف ، وهو علج مولى (4) ونفهم من هذا انه من ابناء الاسبان الذين اسروا فى الحرب خلال الفتح ، وقد يكون جده هو الذى اسلم لان والده يسمى زيدا وهو اسم عربي .

وارتبطت اسرة خالد باسرة يوسف الفهري بالولاء ، وقد يجوز ان نفترض ان جد خالد او اباه كان مولى لعبد الرحمن بن حبيب ، والد يوسف ، وذلك عندما غزا الاندلس مع حبيب بن ابي عبيدة الفهري (4 م) ولا يستبعد ان تكون اسرة خالد صحبت سيدها لافريقيا عندما عاد اليها وان صح هذا فان نشاة خالد كانت فى جو عربي اسلامي وفى اسرة

---

(1) الخشني ، قضاة قرطبة ص 30

(2) اعتاب الكتاب 71 ، الحلة السيراء 346/2 ، الاحاطة ورقة 11 مخطوط ، واخبار مجموعة ص 39

(3) اخبار مجموعة 79 .

(4) مكرر : انظر نفح الطيب 24/1

مجيدة عريقة ، وقد استطاع هذا المولى ان يستأثر باعجاب سيده يوسف فارتبط به ارتباطا قويا ورجع معه للاندلس ، وذلك لرجاحة عقله ، وروعة بيانه وجم ادبه وشدة اخلاصه مما جعله يتخطى رقاب العرب الاقحاح الى مكانة الكتابة الخاصة بالامير يوسف وهكذا اصبح كاتبه الاثير ومن اقرب الناس اليه واشدهم اخلاصا وحماسا لنصرته ومشاركة في تخطيطه واموره وتحبيذا لمواقفه ومقتا لاعدائه ، والصقهم به في حله وترحاله ، ويبدو ان خالدا كان ، على اخلاصه ، لبقا في الحديث مع سيده ، يعرف كيف يدغدغ آماله ويعلل مطامعه فتسرب بذلك الى اعماقه ويشعره بشدة الحاجة اليه والاعتماد عليه ، فنراه يؤاكله ويشاربه صحبة وزيره الصميل ، وذات يوم قال خالد لسيده بمحضر الصميل ، وقد فرغ الامير من مؤاكلتهما واثر القضاء على بعض اعدائه من العرب : « هنيئا لك ، ايها الامير ، اكتمال سعدك . قد قتل الله لك كاشحك ابن شهاب وفلانا وفلانا — يعد الاشراف من العرب المقتولين في غزوهم الروم — ووفقك لقتل انغلهم ضميرا هذا لعبدري — يعني عامرا وابنه — فمن ذا يعارضك بعدهم ، هي والله لك ولولدك الى الدجال » (4)

ويبدو ان خالدا بن زيد كان يشارك فعليا في التخطيط للقضاء على الزعماء العرب الذين كانوا ينافسون يوسف ويحاولون الانقلاب عليه او هكذا كان يتراءى ليوسف ويزين له من قبل الصميل وخالد ، ولكن ما يكاد هذا الكاتب العلج ينتهي من كلامه ذاك، وقد اغرته النهاية المفجعة لاعدائه واعداء سيده ، حتى يفاجأ المجلس بنذير شر مستطير : ان أمويا سليل الخلافة اسمه عبد الرحمن بن معاوية بن هشام قد حل باطراف الاندلس يدبر انقلابا ويدعو الناس اليه ، انها غصة جديدة تزعج يوسف المنتصر فيتشاور هذا مع وزيره الصميل لمواجهة هذا الخطر الداهم ولما تتلاشى بعد انغام التهنئة الجميلة المعسولة التي زفها اليه كاتبه خالد . وبدون تقدير سليم للموقف يشير الصميل على الامير الاصلع بأن يبعث وفدا الى ابن معاوية ليتصل به ويعرض عليه ان يصاهره على ابنته ويوسع عليه ويبادره بالهدايا وبذلك يأمن جانبه ويضمه اليه او لعلها كانت خطوة لايقاع هذا الشاب الاموي الطموح في شرك للقضاء عليه وعلى انصاره بعد . ويتالف الوفد المفاوض برئاسة خالد بن زيد وبمشاركة عبيد الله بن علي وعيسى بن عبد الرحمن . ويصحب الوفد معه رسالة من الامير كتبها خالد بن زيد ، وهدايا ثمينة (5) لتقدم الى عبد الرحمن ويبدو ان الوفد قرر تقديمها بعد نجاح المفاوضات وقبول ابن معاوية عروض يوسف . ولكن خالدا كان مكلفا بمهمة اخرى غير المفاوضة وقد حدد له اميره هذه المهمة بقوله : « اعرف امره — اي امر عبد الرحمن — واي جند عنده وتأمل اخباره واخبار من معه »

ويخرج الوفد ليلا (7) وفي ارش يتخلف عيسى ابن عبد الرحمن بالهدايا خشية ان يستولي عليها عبد الرحمن دون أن يحقق لهم مهمتهم (8) . ويتابع خالد وزميله السير نحو معسكر عبد الرحمن وعندما وصلا اليه وجده محاطا بكثير من الانصار الذين يزداد عددهم ومن اولئك الانصار قواد كان يوسف ينتظر وصولهم للسير معه لبعض معاركه الحربية ظانا انهم ما يزالون من حزبه .

مثل خالد ورفيقه امام الطاريء الجديد فالقى عليه خطبة باسم يوسف الفهري دعاه فيها الى الالفة ورغبة في مصاهرة الامير الذى لن يألو جهده في الاحسان اليه ، وعند انتهائه من القائها اخرج رسالة سيده فناوله اياها ، ولكن عبد الرحمن دفعها لوزيره واهم انصاره ابي عثمان عبيد الله بن عثمان — وهو من زعماء العرب بالاندلس ومن انصار الصميل السابقين الذين اجابوا عبد الرحمن وحاولوا استمالة الصميل

---

(4) الحلة السيراء 346/2 تحقيق د. مؤنس ، اخبار مجموعة 76 — 79 وهي تنسب هذا الكلام للصميل : وما بين عارضتين من كلام الراوي .

(5) اخبار مجموعة 79 — 80 ، البيان المغرب 45/2 ، وتوجد هنابعض المخالفة لما في غيره. وانظر نفح الطيب 33/1، 51 . وفي ص (32) منه ان الصميل اشار على يوسف بمبادرة عبد الرحمن بالحرب قبل ان يستفحل امره .

(6) البيان المغرب 45/2 ط. دار الثقافة

(7) نفسه

(8) اخبار مجموعة نفس الصفحات السابقة

نفسه ـ فلم يكد يتناول ابو عثمان الكتاب حتى ابدره خالد في غرور وزهو وعجب قائلا (9) :

« يا ابا عثمان لتعرقن ابطاك قبل ان تحير فيه جوابا » فتجرح هذه الكلمة المغرورة كرامة ابي عثمان وتفجر غضبه « وكان ـ كغيره من كبار عرب الاندلس ـ يكره خالدا ولا يرتاح اليه اذ كان خالد مولى اندلسيا اصطنعه يوسف وصعد بمكانه .. » (10) فلم يتمالك ان فاه بشتائم خبيثة وعيره بابن الخبيثة العلج !.. وفي البيان المغرب ان خالدا تكلم بكلام غليظ لابن معاوية اذ ابى التزويج (11) وهي رواية مخالفة لما في اخبار مجموعة التي تسترسل في بيان موقف ابي عثمان الذي ضرب بالرسالة وجه خالد ، وامر بالقاء القبض عليه ، فاخذ وكبل من ساعته ، وسيق الى السجن رغم احتجاج رفيقه عبيد الله بن علي بكونه رسولا ، وهكذا وضع رئيس الوفد خالد رهن السجن ، وتحت حراسة رجلين من رجال بني امية وقد امرهما عبد الرحمن بضرب عنق هذا الاسير عندما ينتقل الناس عن هذا المكان ! فكان خالد يقول في محبسه (12) : « ما آليت على الدعوة لنفسي قط الا يومئذ ، كنت اقول : اللهم انصر يوسف! ثم اقول : في نصره قتلي، وفي نصر ابن معاوية هلكي ». ويظل خالد في سجن عبد الرحمن الى صفر سنة 139 هـ حين اتفق الطرفان على الصلح وتبادلا الاسرى فكان من اغرب ما وقع في هذا التبادل ان اطلق عبد الرحمان سراح خالد بن زيد مقابل تسريح يوسف لابي عثمان عامل الداخل على قرطبة الذي سبق أن شتم خالدا او ضرب وجهه بالرسالة وامر بسجنه (13)

وينتصر عبد الرحمن ويتغاضى عن خالد بل يضمه اليه فيصبح من كتابه حينا (14) ، ولعل تلميذه امية بن يزيد كاتب عبد الرحمن ومولاه حال دون الانتقام منه من قبل اولئك الذين كانوا يريدون تصفية الحساب معه يوم القي القبض عليه ، وما كان ابو عثمان لينسى له وقاحته ، الا ان المواقف الكريمة التي اتخذها عبد الرحمن من اعدائه بالامس كبحت جماح الرغبة في الانتقام ، وطمأنت من غلواء الغضب الجاهلي الذي كان يدفع بعضهم للانضمام لعبد الرحمن كي يثار لنفسه وعشيرته من يوسف وحزبه .

ويبدو ان خالدا لم يطمئن في عمله مع عبد الرحمن، ولعل اخلاصه ووفاءه لسيده المهزوم ، او خوفه من ان يتهم بعلاقته ببعض اولاد يوسف المتمردين ، لعل ذلك كله ، او بعضه ، جعله يقرر الخروج من الاندلس نهائيا ، فيسال الامير عبد الرحمن ان ياذن له بالخروج الى المشرق ، فاستجاب لالحاحه وامر كاتبه ومولاه امية بن يزيد ان يكتب لاستاذه كتاب سراح فابى امية ذلك واعتذر قائلا (15) « معلمي وولي الاحسان قبلي يكون اول شيء يجري له على يدي الكتاب بخروجه عن اهله وماله !! » . ولعل الامر «بالجواز» كان لا يتعدى السماح لخالد بالمرور فقط دون ان يصحب معه اهله او ماله كما نفهم من اعتذار امية بن يزيد ، وقد يجوز لنا ان نستنتج من هذا ان الامير عبد الرحمن كان حريصا على ابقاء خالد بالاندلس كاتبا معه ، ولاجل ذلك حاول ان يثنيه عن الذهاب الى المشرق عندما اذن له بالخروج دون اهله وماله ،وحتى اذا اصر على الذهاب فانه يضطر للاياب ، غير ان خالدا كان صريحا مع الامير عبد الرحمن اذ كانت رغبته مغادرة الاندلس باهله وماله دون ان تكون له نية في العودة، وعلى الرغم من ان المصادر التي تحدثت عن خروجه من الاندلس لم تشر صراحة وبتفصيل الى هذا فان كتاب سراح او « الجواز » الذي كتبه خالد لنفسه بامر عبد الرحمن بعد ان امتنع امية من كتابته يدلنا بوضوح على ذلك ، فقد كتب على لسان الامير عبد الرحمن لعامل الجزيرة الخضراء ما يلي (16) :

« اما بعد فاخرجنا خالدا بقضه وقضيضه فانها الراحة له والراحة منه والسلام »

---

(9) نفسه ص 81 ، البيان المغرب 45/2.

(10) فجر الاندلس ، ص 679 ، تاليف الدكتور مؤنس

(11) ص 45/2

(12) اخبار مجموعة ص 90

(13) اخبار مجموعة 93 ـ 94 .

(14) اعتاب الكتاب ص 71

(15) نفسه ..

(16) نفسه ، والاحاطة الورقة 11 ج الاسكوريال السابق .

ومن هذا الكتاب نرى ان خالدا كان حريصا ان ينص على السماح بالخروج بكل ما لديه من اهل وحشم ومال ، دون أن يصانع او يخفي الهدف من الهجرة من الاندلس فهو يريد ان يربح ويستريح .

والى جانب هذا الاثر الفني الرائع فقد افلت من ايدي العفاء اثر آخر او بعض الاثر : جزء من الرسالة التى كتبها خالد باسم يوسف الفهري موجهة لعبد الرحمن الداخل مع الوفد الذى كان خالد رئيسه وكاد يلقى حتفه بسبب باوه وتطاوله على ابي عثمان، ويبدو ان هذه الرسالة كانت طويلة، لان ابن عذارى يقدم لها بقوله « وكان يوسف كتب الى ابن معاوية كتابا وهذه فصول منه »

ونص هذه البقية ما يلي (17) :

« ... اما فقد انتهى الينا نزولك بساحل المنكب (Al Municar) وتأبش من تأبش اليك ونزع نحوك من السراق واهل الختر والغدر ونقض الايمان المؤكدة التى كذبوا الله فيها وكذبونا ، وبه جل وعلا نستعين عليهم ، ولقد كانوا معنا فى ذرى كنف ورفاهية عيش حتى غمضوا ذلك واستبدلوا بالامن خوفا وجنحوا الى النقض ، والله من ورائهم محيط . فان كنت تريد المال وسعة الجناب فانا اولى ممن لجات اليه اكنفك واصل رحمك وانزلك معي ان اردت او بحيث تريد ، ثم لك عهد الله وذمته بي الا اغدرك ولا امكن منك ابن عمي صاحب افريقية ولا غيره.. »

وليس لنا من الآثار الادبية لهذا الكاتب الاندلسي غير هذين النصين ، وهما ــ كما نرى ــ يتعلقان بالفترة الحاسمة من حياته بالاندلس ، تلك الفترة التى تتمثل فى انهيار حكم الولاة وقيام الدولة الاموية، ولسنا ندري عن مصير خالد شيئا بعد مغادرته الاندلس ولعل قطع علاقته بالحياة السياسية جعله ينزوي بعيدا عن اهتمام التاريخ (18) .

ويهمنا فى الاخير ان نشير امام اول نثر فني بقلم كاتب اندلسي اصيل ، وليس لنا من مثل هذه الآثار الادبية المبكرة الا نزر يسير ويسير جدا . ومن المعقول ان تكون للكاتب آثار ادبية اخرى لكنها ضاعت كما ضاع غيرها وبالاخص فى هذه الفترة المضطربة. وان وصف هذا النثر الفني الاندلسي وبيان خصائصه اعتمادا على ذلك النزر اليسير يجب ان يلتزم الحذر ويتوقى المجازفة .

وعلى كل فنحن امام كاتب فنان مبدع يعاني ويحتفل ويجهد الفكر ، وان قطعته الموجزة لتدلنا على قدرته على التعبير الفني الذى يتجلى فى الدقة وجمال التنسيق واحكام الصياغة وتكثيف المعنى وانتقاء الالفاظ والوضوح والسلاسة دون اي تكلف او تصنع . وفى القطعة الاخرى او على الاصح فى البقية منها تبدو بساطة التعبير ووضوحه واسترساله وتاثره بالقرآن ، وليس فى القطعة محاولة لاظهار براعة الزخرف والحلي اللفظي، ولا نستبعد ان تكون بقية الرسالة الضائع قد سبكت سبكا فنيا جميلا وصيغت صياغة قوية والا ما كانت هذه القطعة الباقية لتصلح وحدها اساسا للتحدي والغرور .

ان مكانة خالد فى النثر الفني تبدو من خلال تلك الرسالة الموجزة من ناحية ، ومن اعجاب عبد الرحمن الداخل بفنه واتخاذه كاتبا له رغم انه كان خصما سياسيا له يشايع يوسف الفهري وكفى بصقر قريش شاهدا .

كان خالد شيخ الكتاب بالاندلس فى عصره وقد تخرج على يديه امية بن يزيد الكاتب الذى استمرت الكتابة فى عقبه من بعده وتولوا بالقلم مناصب هامة لدى الامويين .

فاس ــ عبد السلام الهراس

---

(17) البيان المغرب 45/2

(18) وممن كتب عن خالد بن زيد : الدكتور احمد هيكل فى كتابه : « الادب الاندلسي » ص 61 ط الثالثة . عبد الله عنان : دولة الاسلام بالاندلس 151/1. والدكتور البحاثة محمود مكي فى رسالته للدكتوراه : Ensayo sobre las aportaciones orientales en la España musulmana y... فصلة من مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد المعددان 9 و 10 سنة 1961 ــ 1962 ــ مدريد

صفحات ناصعة من تاريخ المغرب الذهبي يسجلها دبلوماسيون أجانب ...

للأستاذ محمد بن ادريس العلمي

عاش المغرب اياما زاهرة خالدة من تاريخه المليء بالمآثر والمزايا فى شتى المجالات الحضارية ، وكان مطمح الانظار فى العلم والسياسة والاقتصاد والاجتماع وغيره ، ومضرب الامثال عند كثير من الامم والشعوب فى ذلك كله . شهد بهذه الحقيقة اصدقاؤه كما اقرها اعداؤه سواء منهم الذين اتصلوا به مباشرة بدافع المتاجرة او المخالطة ، او الذين اغاروا عليه تبعا لتقاليدهم الصليبية او الذين بقوا يكيدون له من بعيد . وكثيرهم اولئك الذين يموتون حنقا وغيظا حينما يسمعون ان اول جامعة فى اوربا كان يدرس فيها مغاربة امثال العلامة الفيلسوف ابن رشد ، فمنذ ان كان المغرب دولة لها مفهومها الدولي ، وهو يقطع الاشواط البعيدة المرمى فى مجال الحضارة والعلم والبناء فى المجال العالمي ، واذا كان الادارسة قد عملوا على بناء كيانه الدولي ، وحددوا مفهومه السياسي ، واذا كان المرابطون بعدهم قد جددوا من معالمه الدينية ووسعوا رقعته باضافة الاندلس اليه ، وقاموا ايضا بتوسيع حدوده الى اواسط القارة الافريقية ، ولذلك فوائده من النواحي الاجتماعية والاقتصادية على الخصوص ، فان الموحدين والسعديين والعلويين يعتبرون من الذين خلدوا بالمغرب عصورا ذهبية انجبت للعالم رجالا اكفاء مقتدرين ، وافذاذا برزوا فى حقول العلم والاكتشاف والابتكار لا يتسع المجال للتحدث عنهم بل لسرد اسمائهم . والمطلع على تاريخ المغرب يجد فى ذلك ما يكفي ويفي بالمرام .

لقد ظلت حالة المغرب العلمية والحضارية على هذا النمط من التقدم والسمو ، ومجاراة تيارات الحضارات العالمية على سنة الاخذ والعطاء لا عن طريق الاستهلاك وحده ، كما يبغي ذلك اعداء المغرب والانانيون من بني الانسان ، واذا كان للتاريخ ان يحكي واذا كان لاحداثه ان تنطق بما هو كمين فيها ، فاننا نرى ان المغرب امة عظيمة مهما قيل ومهما يقال ، وانها غالبت الزمان والاحداث وانها سارت فى عالم الحضارة والعلم مع العظماء الخالدين ، وكانت لها شخصيتها وسمتها العلمية وعباقرها فى جميع الميادين .

ان اول من صنع خريطة فى الجغرافيا هو مغربي وان اول من حول فى الحساب واحدث الطرق السهلة هو مغربي ، وان المغربي ايضا هو اول من قسم الارض الى فراسخ واميال قبل ان تهتدي اوربا الى الطريقة المترية بقرون ، واحدث طريقة للكشفية العالمية ومدرسة ادارية تهتم بتخريج الموظفين والبحارة ورجال الاعمال الذين يسهرون على تسيير الشؤون ويضطلعون بالاعباء الجسام ، لا اقول كثيرا وكثيرا من هذا النوع ولكن الذى يعنيني هنا ان اسجله حتى على لسان اعدائنا المستعمرين هو ان المغرب هاته البلاد الغنية بخيرها وخيراتها ، ظل محافظا على استقلاله وكيانه وقوميته العربية منذ ادريس الاول الذى جعل منه دولة عربية وامة موحدة المطامح والمشاريع والاهداف الى الفترة الاخيرة من تاريخه حيث دهاه

ما دهى اخوانه العرب والمسلمين في مشارق الارض ومغاربها من الغزو الاستعماري الذى خلفتــه للعالــم تلك الازمنة المتاخرة المقيتة .

لقد قال المشير ليوطي فى مدينة ليــون يــوم 29 – 2 – 1916 فى تصريح له :

« .. بينما وجدنــا انفسنــا فى الجزائــر ازاء مجتمــع فى حكم العدم ، وامام وضعية مهلهلة قوامها الوحيد هو نفوذ الراي التركي الذى انهار بمجــرد وصولنا اذا بنا قد وجدنــا بالمغــرب على العــكس امبراطورية تاريخية ومستقلة تغار الى النهاية علــى استقلالها ، وتستعصي على كل استعباد ، وكانت هذه الدولة الى حد السنين الاخيرة تظهر بمظهــر دولــة قائمة الذات بموظفيها على اختلاف مراتبهم وتمثيلهــا فى الخارج، وهيئاتها الاجتماعية التى لا يزال معظمها موجودا بالرغم عما لحق السلطة المركزية اخيرا مــن انحطاط ، تصوروا انه لا يــزال بالمغــرب عــدد مــن الاشخاص كانوا منذ ست سنوات خلــت سفــراء المغرب المستقــل فى بترسبــورغ ولنــدرة وبرليــن ومدريد وباريز يحف بهم كتاب وملحقــون ، وكــان هؤلاء السفراء رجالا ذوي ثقافة عامة تفاوضوا مــع رجال الدول الاوربية كالانداد ، وكان لهم اطلاع على المسائل السياسية وتذوق لها ، وازاء هــذا الجهــاز السياسي توجد هيأة دينية لا يستهان بها ، فوزيــر العدل الحالي قد سبق له ان القى مدة سنوات دروسا فى جامع الازهر بالقاهرة وفى اسطنبول، وقبرس ، ودمشق ، وهو يتراسل حتى مع علمــاء الهنــد ، وليست له وحده علائق مع النخبــة الاسلاميــة فى الشرق، واخيرا توجد جماعة من رجال الاقتصاد من الطراز الاول تتالف من تجار كبار لهم دور تجارية فى منشســتر وهامبورغ ومارسيليا ، وكثير منهم ذهبوا الى هذه المدن بانفسهم .. اضيفوا الى هذا – كمــا يعلمه جيدا كل من ذهب منكم الى المغرب – ان هناك جنسا له مقدرة فى الصناعات ونشاط وذكاء واستعداد للتصور يمكن ان نستفيد منه كل الفائدة بشرط ان نحترم بكل دقة كل ما يريد ان يراه محترما » .

كماكتب السيد كوليز من عباقرة الاستعمارالفرنسي سنة 1930 م فى كتابه (حمايتنا) فيما بيــن ص 258 – 268 يقول : عند امضاء عقد الحماية وجدنا انفسنا امام حالة واقعية ، اذ وجدنا امامنا بفــاس جامعة القرويين التى زودت دول الاسلام الافريقيــة طوال عشرة قرون بقادة الفكر ، والتى لا يزال فيهــا سبعمائة طالب مغربي يتخصصــون فى القضــاء او العــدالة كما وجدنا ايضا فى الحواضــر والبــوادي عددا كبيرا من الكتاتيب القرآنية يمدهــا السلطــان والاوقاف او مطلق الناس بما تحتاج اليه .

نعم وجدنا انفسنا امام مجموعة زاهرة بديعة من المدارس صغرى وكبرى ، تعمل تحت ظلال الاحيــاء الحضرية او تحت خيام المداشر » .

وقد اقام الاستاذ كلينار بفــاس عــام 1540 م يكتب رسائل باللغة اللاتينية يصف فيها حالة التعليم ايام ابي العباس الاعرج السعدي سنة 948 هـ . وقد تناول باسهاب دروس القرويــن وعوائــد الطلبــة والمدرسين واسلوب التدريس وانواع العلوم المدروسة من عقلية ونقلية من شرعية وعربية ورياضيات وعلوم طبيعية واجتماعية ، وتحدث عن حالة الاجازة التــي تقوم مقام الشهادة اليوم وايــام العطــل الاسبوعيــة والسنويــــة .

كما ذكر المؤرخون ان جيلبير وهو البابا سلفستر الثاني درس بالقرويين ومنها ادخل الارقام العربيــة الى اوربا ، وقد درس بالقروين ايضا عدد كبير من الاوربيين ، ومن الافارقة . وفكر المولى الحســن الاول قدس الله روحه فى القرن المــاضي فى تكــوين اطــر بالمغرب فى العلوم الحديثة متغلبا على جميع العراقيل الداخلية والخارجية فكون مدرسة مركزية للمدفعية بالجديدة ومعملا للسلاح بفاس ووجه كثيرا من البعثات الدراسية الى انجلترا واسبانيــا وامريكــا وفرنســا وايطاليا والمانيا للدراسة فى معاهد هاته الدول من اجل تحقيق التكوين العام ، ثم التكويــن الهنــدسي والعسكري ، ويقال ان بعثة خرجت من المغــرب فى الوقت الذى خرجت فيه اول بعثة يابانية ولكن بكل اسف لاقى هؤلاء المتخصصون المغاربة بعد رجوعهــم اضطهادات كثيرة من لدن اخوانهــم المسؤولين على الحكم آنذاك بدافع الخوف على مراكــزهم وبدافــع تثبيط الهمم والتمهيد للغزو الاجنبي حتى ان بعضــا من المتخصصين فى الهندسة وظفوا تحت تاثيــر ضغط السلطان على المباشرين فى الادارة ، ولكــن فى المكاتب الجمركية وباجــرة زهيــدة لا تتعــدى (14 سوردي) فى اليوم ، وقد تحدث عن هذا بتطويل السيد كامبو فى كتابه ، المغــرب الحديــث مملكــة تنهار فى طبعة 1866 م ص 16 ، وقد نقلت مجلــة هســبريس (عام 1945 م مجلد 31 ص 121) بحثــا بقلم الاستاذ كاييى المدرس بكلية الحقوق بالربــاط ،

تحدث فيه عن اهتمام المغرب بالتكوين الهندسي والعسكري في مدرسة مونبيليي فرنسا من عام 1885 الى عام 1888 اذ ارسلت اولا بعثة تحتوي على 12 مغربيا توجهوا يوم 24 - 6 - 1885 صحبة ميكيل دوكاسترو ، قنصل البرتغال الذي اسلم ودخل خدمة السلطان آنذاك ، وقد درسوا اللغة الفرنسية والحساب ، والهندسة التطبيقية والتدريب العسكري والهيئة والرياضيات والكيمياء والتيلغراف والتيلفون والبصريات والكهرباء والضغط الجوي وترصيف الطرق والسكك الحديدية ومساحة الاراضي وتحرير التصميمات الهندسية، وبعد رجوعهم اقتبلوا من طرف ممثل السلطان وتقرر تعويضهم بخمسة عشر آخرين ولكن هذا التقرير لم ينجز لاسباب مجهولة .

وقد ردد المشير ليوطي ايضا في تقاريره للحكومة الفرنسية ولاسيما عام 1920 م هاته العبارات لقد وجدناها دولة وشعبا ، وكانت البلاد تجتاز حقا ازمة فوضى ولكنها ازمة حديثة العهد نسبيا ، وهي ازمة حكومية اكثر منها اجتماعية .

واذا كان المخزن قد عاد عبارة عن مظهر - لا اكثر ، فهو لا يزال على الاقل قائم الذات ، ويكفي ان نرجع بضع سنوات الى الوراء لنجد حكومة حقيقية تظهر في العالم بمظهر دولة ذات وزراء كبار ، وسفراء احتكوا برجال الدول الاوربية ، ومنهم من لا يزال حيا الى الآن ، ولكن تحت المخزن كانت معظم المؤسسات لا تزال قائمة ، وهي تختلف حسب النواحي ، ولكنها تمثل حقائق ملموسة ، وفي 17 ابريل 1921 صرح بالدار البيضاء قائلا : لا ننسى اننا في بلد ابن خلدون الذي جاء الى فاس وهو ابن عشرين سنة ، وفي بلد ابن رشد ، وليس خلفهما غير جديرين بهما ، وما زلنا لا نعلم تماما ما تضمنه بين جدرانها تلك الدور العتيقة ، في فاس والرباط ومراكش من رجال جعلوا منها مأوى للدراسة والتفكير والبحث وفي كل مرحلة اكتشف من جديد رجالا لهم شغف بخزائنهم العلمية ، قد تفتحت عقولهم لكل ما يجري في العالم ، واشتد طموحهم لمشاهدة بلادهم تساهم في الحركة الفكرية، وصرح في سابع دجنبر 1922 بقوله ، كلما ازددت اتصالا بالمغاربة ، وكلما طال مكثي في هذه البلاد الا وازددت اقتناعا بعظمة هذه الامة ، وفي خامس دجنبر 1923 اعاد الى الاذهان اندهاشه الاول فقال : لما ذهبت الى المغرب للمرة الاولى عام 1908 مبعوثا من طرف الحكومة الى الجنرال داماد اندهشت عندما شاهدت اراضي شاسعة جيدة للزراعة واضحة الحدود تنتظم حول ضيع حقيقية على خلاف اراضي الجزائر المنقسمة الى قطع غير منتظمة ، وكان كل ذلك من عمل اهل البلاد ، فكان عندي مثار دهشة عظيمة .

هذه شهادة واضحة من هؤلاء القادة والكتاب ، في ان المغرب كان قبل الحماية الفرنسية مجهزا بنظام خاص للتعليم، يعمل على نشر الثقافة الوطنية وتعميمها ، ويضمن تكوين الموظفين اللازمين لتسيير دواليب الامور في جميع مرافق الحياة بالبلاد ، ولم يكن هذا التعليم يحتاج لشيء الا الى ادخاله في قالب عصري ، بتجديده وتحويره تبعا لاساليب الحضارة الحديثة ، كما ان الادارة كان يعوزها فقط شيء من التحوير والتهذيب ، تبعا لمقتضيات الظروف العصرية التي يجب ان يعيشها المغرب متعاونا مع الدول الاخرى التي تتكون منها الاسرة الانسانية ، ولكن يجب هنا ان نتساءل ماذا فعلته الحماية بعد بسط نفوذها على المغرب ؟ هل طورت التعليم وحافظت على روحه القومية ؟ هل ادخلت عليه من التحسينات ما يجعله خليقا بان يسمى تعليما وطنيا ؟ هل حافظت على الجهاز الاداري المغربي في روحه ؟ هل اعانت المشرفين عليه حتى يتخصصوا في فروع الادارة المختلفة تبعا لروح العصر ام ضربت بكل ذلك عرض الحائط ، وانشات بالبلاد المغربية نظاما عنصريا جديدا جريا على سنة الغزو الاستعماري ؟

لقد امتدت حركة التعليم قبل الحماية بكيفية تتلاءم ووضعية المغرب ، من الناحيتين الداخلية والخارجية ، وكان المغاربة يقومون ازاء ابنائهم بكل ما يفرضه واجب الابوة والولاية في التربية والتعليم ، تبعا للتعاليم الدينية اولا ، وعملا على تحقيق رغبتهم في تقدم البلاد وازدهارها ، ولم تخل مدينة او قرية من هاته الروح ، حتى انك لتجد على قمم الجبال العالية ، وفي المغاور البعيدة المظلمة ، اشخاصا قطعوا انفسهم لتعليم القرآن والعلم، الذي تقوم به مصلحة الدين والدنيا ، كما بسط ذلك كثير ممن وردوا على المغرب من سواح وقواد اجانب في مذاكرات لهم امثال كرانفال ودولاتور وكاسترو وكما ثبت في تصريحات المشير ليوطي والاستاذ كوليبز الآنفة الذكر .

نعم كانت بالمغرب كتاتيب بالمدن والقرى والمداشر والخيام المتفرقة تعد بالآلاف ، مهمتها تعليم القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن الكريم ، وما لا بد منه من قواعد العلوم الاولية ، في اللغة والدين ، والادب والاخلاق والى جانبها كما نشاهد زوايا

وجوامع كثيرة تمثل دور المعاهد في عصرنا ، وبالاضافة الى ذلك كله كانت جامعة القرويين التي اسست سنة 245 هـ. بفاس وكانت جامعة ابن يوسف بمراكش ، وكانت جامعة سبتة ايضا ، يقصد هاته الجامعات الطلاب من كل حدب وصوب ، ويتهافتون عليها طلبا للعلم والمعرفة ورغبة في تكوين انفسهم ليكونوا مواطنين صالحين ، يعملون للصالح العام ، ويقومون بما يفرضه الواجب الوطني والديني . وكانت الاحباس وعامة الشعب يقدمون الى هاته المؤسسات العلمية والدينية كثيرا من العطايا ، ويتقدمون الى معلميها واساتذتها بجزيل الهدايا والتحف ، اعترافا لهم بالفضل ، وتقديرا لخدماتهم الجليلة . وقد كان الطلبة يجدون المأوي الصالحة ، والطعام المقوي والمساعدة اللازمة لتتبع الدروس على احسن ما يرام ، وبمجرد تخصصهم في شعبة من الشعب العلمية او انهاء دراستهم كانوا يوزعون على المعاهد او الوظائف ، بعد اداء المباريات واجتياز الامتحانات كما هو الشان عند الامم الاخرى. هكذا كان العلم وهكذا كان التعليم يسير وفق سياسة مدروسة معروفة ، وعلى خطط محكمة مدققة وهي تكوين المواطن المغربي العربي المسلم العامل في الحقلين الوطني والعالمي ، كعضو في اسرة واحدة من الناس ، يفيد ويستفيد ، وياخذ ويعطي جريا على سنن الكون ، وتبعا لمقتضيات التعاون الثقافي بين الامم ، وقد وجد الاستعمار في هذا العمل بالطبع ما يتنافى مع خطته الاستعمارية وما يريده من المغرب الذي قرر ان يضغط عليه حتى يسير في ركابه حسب فلسفة فرنسا فيما وراء البحار ، تلك السياسة التي تفرض على المغرب ان يقنع بالدون من العيش ويرضى بأن يكون مسودا دائما يعتبر في رؤسائه الاجانب قدوة سامية ، يجب ان يحتذى ، واشخاصا تفرض عليه قوانين المدنية والترقي تقديسهم واحترامهم ، واعتبارهم في كل شيء ، لقد اعد الاستعمار العدد وخطط التخطيطات ووضع برنامجا مدققا موقوتا يسير عليه من اجل القضاء على روح العروبة والاسلام في المغرب وخلق جو من التشكيك في القيم الدينية والوطنية حتى تتعدد الاتجاهات وتنفصم عرى الوحدة المغربية التي كانت خير ضمان لنجاح هذا الشعب في جميع مطامحه ومقاصده وغاياته .

وبذلك يكون الغزو الفكري شاملا حتى تسهل باقي النواحي الاخرى لان كل شيء انما ياتي عن طريق الفكر الذي هو المقوم للاشياء ، ولكن المغاربة فطنوا لذلك ، وادرك المتنورون منهم ما بيته لهم الاستعمار واذناب الاستعمار فشمروا على ساعد الجد والاجتهاد وقاموا ينشرون العلم ، ويؤسسون المدارس والمعاهد والكتاتيب ، وينظمون الحلقات الكثيرة في المساجد من اجل نشر العلم وتعليم العامة والخاصة لاخراجهم من ظلمات الجهالة الحالكة الى نور العلم المبين عملا بتعاليم دينهم التي تقول : **« فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » .** طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، تعلموا العلم ولو بالصين ، كن عالما او متعلما .

وهكذا شرع المغاربة عن بكرة ابيهم في العناية بشؤون الكتاتيب القرآنية وتنظيمها ، ورفع مستوى التعليم فيها باضافة دروس في مبادىء الدين والعربية والحساب والتاريخ والجغرافية ، والاخلاق والتربية الوطنية كما صاروا يتبارون ويتفننون في تأسيس المدارس الحرة التي كانت تهتم بتعليمها واعتمادهم على رجالها والقائمين عليها من اهم الواجبات الوطنية عندهم ، لانهم راوا ان الاستعمار الاجنبي بالبلاد قد بدأ يركز الاسس للغة ويوطد لها لتغزو الافكار والعقول، وتسيطر على جميع الميادين الحيوية ، وتستحوذ على كل ما دب ودرج من الاشياء ، لتخلق رجالا على الكيفية التي يرتضيها ، لا كما يبغي عامة الشعب وتقتضيه المغربية والعروبة والاسلام ، وقد كان يتعزز جانب المدارس الحرة التي بلغ تلاميذها 250.000 حسب تقرير مجلس شورى الحكومة (القسم المغربي دورتي يبراير ويوليوز 1948) — اقول كان يتعزز — بجامعتي القرويين وابن يوسف وبالزوايا والمساجد المثبتة في القرى والمدن الصغيرة ، والتي كانت هي الاخرى تهتم بدراسة قواعد العلم والدين ، هذه صورة مجملة للجهاز التعليمي المغربي ، الذي انشاه المغاربة ليكون مقابلا للجهاز الذي يعمل الاستعمار على بنائه بهذه البلاد العربية المسلمة ، والذي يهدف الى خلق اجيال كافرة بدينها ومتنكرة لمقوماتها الوطنية .

وقد عمل الاستعمار بمقتضى مرسومي 15 — 8 — 1938 وما بينهما فكان تخطيطه في ميدان التعليم يعتمد على التفرقة بين الطبقات عملا بمبدأ (فرق تسد) حيث كانت هناك مدارس لابناء الاعيان واخرى لابناء الفقراء الى جانب المدارس البربرية التي كان عليها ان تخرج متعلمين لا يعرفون العربية ولا يدينون الا للاعراف البربرية والتقاليد الفرنسية . وقد اسهب الدكتور كودفروا دومنبين في بيان

الاسس التي تنبني عليها المدارس البربرية وذلك في اطروحته سنة 1928 م التي خصصها لبيان عمل فرنسا الانساني في المغرب في حقل التعليم .

وهاته المدارس التي اسسها الاستعمار منها ما كان يسمح لها باعطاء ساعة في الاسبوع او ساعتين للعربية ومنها ما كانت العربية محرمة عليها ولا يمكن ان تدرس فيها الا بعد رخصة من الاستعلامات الفرنسية او المراقب المدني او القائد – ولم يخل حتى جانب التاليف وجانب النشر والاعلان من هذا التقنين والتوجيه ، ففي ميدان التاليف والنشر مثلا لا يسمح باصدار اية صحيفة الا اذا خضعت للرقابة الحكومية والتزمت تطبيق مبادىء السياسة الاستعمارية ولا يسمح بطبع أي كتاب عربي وخصوصا في الحساب والجغرافيا والتاريخ والعلوم التي كانت تعتبر وقفا على اللغة الاجنبية ومحرمة على المدارس الحرة التي تدرس باللغة العربية اللهم الا ما كان من كتب يدونها متعاونون منقولة عن الروح الاجنبية – وقد كان التفتيش من قبل الحكومة جاريا على قدم وساق فكل مدرسة حرة يجب ان تخضع للرقابة الشديدة والا تكون مهددة بالاغلاق او احتلال الحكومة لها كما وقع في مدرستي ابن غازي بفاس وفيكيك وغيرهما من المدارس ، التي اغلقت بامر من المراقب المدني او القائد فقط ، دون علم للادارة بذلك .

وعلى العكس من هذا كان يسمح للفرنسيين القاطنين بالمغرب ، ان يقوموا بأي نشاط يريدونه في حقل التاليف والنشر او الطبع ، حيث كانت صحافتهم معززة محترمة وتآليفهم تباع بالآلاف تحت تاثير الضغط الحكومي زيادة على المغربات الكثيرة ، وبالاضافة الى ذلك كان تدريس العلوم بالقرويين والمساجد الاخرى لا يسمح به الا برخصة من الاستعلامات الفرنسية حتى لا تتسرب روح الاصلاح الى نفوس المواطنين وللايغال في تحقيق الفرنسية بالبلاد المغربية ، حتى تصبح كاملة شاملة وقد صدرت المراسيم والقرارات القيمية، بفرنسة اسماء الشوارع ، وواجهات الدكاكين والمصانع والادارات العمومية والخصوصية ، من اجل تركيز اللغة الفرنسية وفرنسة الامة المغربية ، وحصر التوظيف على الحاملين للشهادات الفرنسية، على مختلف المستويات حتى الشواش لا يمكن توظيفهم الا بشرط تفانيهم في خدمة المستعمر قلبا وقالبا .

اما حاملوا الشهادات العربية ، فجزاؤهم التشريد والتنكيل ، والضغط المتوالي وهذا بعد الاعتراف بخلق شهادة عربية . تلك صورة مصغرة لوضعية التعليم في عهد الحماية ، وليست وضعية الادارة المغربية ايضا باحسن منها فقد كانت اشبه بادارات فرنسية اقل مستوى في ارض مغربية من حيث الاسلوب واللغة والاتجاه .

هكذا عاشت البلاد المغربية زهاء نصف قرن من الاحتلال الاجنبي ، ولكنها بعد الاستقلال عزمت على التخلص من هاته التركات المثقلة ، وصار رجال المغرب يبحثون عن الحلول التي تصحح الاوضاع في الحقل الثقافي ، ويبذلون اقصى جهودهم لتسترجع الوطنية مكانتها ، ورغم وجود اتجاهات متعارضة في الثقافة الوطنية مكانتها ، ورغم وجود اتجاهات متعارضة بعضها يشرق ، وبعضها يغرب ، فقد امكن التوصل الآن الى وجوب سيادة النزعة التي ترمي الى خلق ثقافة مغربية ، تاخذ احسن ما عند الشرق ، واجمل ما عند الغرب ، على اساس التعاون لا على اساس التقمص ، لان المغرب منذ كان – كما قدمنا له مميزاته الثقافية ، ايضا فهو بالنظر الى لغته وتقاليده ودمه يتجه الى الشرق العربي ، وبالنظر الى تمسكه بمبدا الثقافة ليس لها حدود ، وهي عالمية قبل ان تكون اقليمية او بلدية يرى انه يجب ان يعمل على تكوين الفرد المغربي تكوينا عالميا ياخذ ويعطي في كل شيء ، ولذلك فهو في ثقافته يعمل على تحقيق الشخصية العلمية المغربية ، ويريد ان يكون اندماجه ثقافيا في العالم العربي لتحقيق الوحدة الفكرية من جهة ، مبنيا على اساس توحيد المصطلح العلمي العربي والكتاب العربي وتطويره وترقيته ، حتى يكون موازيا لزميله في العالم العربي .

الدار البيضاء – محمد بن ادريس العلمي

القوة البحرية في الغرب الإسلامي بعد الفتح إلى قيام دولة الموحدين

للاستاذ: عبد الحق حموش

يعرف تاريخ البحرية ، خلال العصور الوسطى ، ان الفاتحين المسلمين في شمال افريقيا ، واجهوا صعوبات مصدرها نشاط البحرية البيزنطية. وقد اضطرهم ذلك الى القيام بنشاط بحري مماثل ، فاستقدموا من مصر عددا من صناع السفن الاقباط ، وانشاوا ما اطلق عليه المؤرخون اسم (دار الصناعة)، وذلك اثناء ولاية حسان بن النعمان من قبل عبد الملك ابن مروان ، ثم لم يلبث المسلمون ان اسسوا أو جددوا موانيء اخرى على غرار ما فعلوا في تونس . وانتظمت الشمال الافريقي سلسلة من المراسي تعج بالمسافرين وارباب التجارات والمقاتلة . وبقيت هذه القوة تزداد نموا برعاية الدول المتعاقبة نحوا من اربعة قرون ، اخذت بعدها في التراجع امام قوى بلدان غرب اوروبا . ثم كان ظهور المرابطين ، وبعدهم الموحدون ، ايذانا بتدارك هذا الضعف واستحالته قوة يحسب لها حسابها . منذ بداية القرن الثالث للهجرة ، ايام حكم زيادة الله بن الاغلب في تونس (201 – 223 هـ) ، نازل الاسطول الاسلامي صقلية بقيادة اسد بن الفرات ثم تتابعت الجهود الى ان تم فتحها وظلت في حوزة المسلمين ازيد من ثلاثة قرون حتى سقطت في قبضة النورمان (554 هـ) . ان استحصار هذه الجزيرة ينبيء عن مدى قوة الاسطول الاسلامي الذي اتخذ منها منطلقا الى الاحتكاك بشواطيء سردينيا ومدن الجمهوريات الايطالية المجاورة . فضلا عن ان ضيق المجاز بين الجزيرة المفتوحة وبين راس بونة جعل المنطقة ذات خطورة لا يستهان بها من حيث العبور .

وهناك منطلق بحري آخر ، اقدم من سابقه واشد خطرا وهو مضيق جبل طارق . فمن طريقه دخل المسلمون الى الاندلس ، ومن الاندلس خطوا في جزر البليار ، وفي هذه الجزر كانوا يجدون الماء والذخيرة والطعام ليحتكوا بكورسيكا وشواطيء جنوب شرق فرنسا . ولم يكن نشاط هذه الجزر الواغلة في مياه المتوسط الا جانبا من نشاط اوسع لموانيء سبتة وطريف ووهران والجزيرة والمرية وبلنسية . ولعل الدولة الاموية في الاندلس كانت اكثر حاجة الى الاهتمام بهذا الواقع البحري . وليس ذلك بالنظر الى تثبيت هيبتها تجاه جيرانها من بلدان الغرب المسيحي فحسب ، بل كذلك لاغراضها السياسية والحربية تجاه منافساتها من الدول الاسلامية ، ذلك ان دولة بني امية في الاندلس كانت تعتبر مسالة مراقبة مضيق جبل طارق امرا في غاية الاهمية . وهي لذلك بذلت الكثير من اجل ابقاء شواطيء شمال المغرب في نطاق نفوذها ، وان لم تتعنت ضد الدول التي نشات في المناطق الداخلية المصاقبة لتلك الشواطيء شان مافعل العبيديون مثلا . ولم يكن يعني هذا سوى الترحيب باي حاجز يبقي سيطرتها على المضيق . ومن الطريف ان هذه الدولة ، التي بذلت الجهود لصيانة امنها وهيبتها في المتوسط ، فوجئت عن طريق المحيط الاطلنطي بغارات خطيرة من النورمان القادمين من الجزر البريطانية ؛ فوصلت غاراتهم الى قلب اشبيلية عبر الوادي الكبير . وهي غارات كبدت الامويين اكثر من خسارة ؛ كما برهنت على مقدرتهم الحربية

فوق المياه. هكذا ظلت الدولة الاموية تمثل جانبا من سيادة الاسلام في غرب المتوسط الى ان انتهت في مطلع القرن الخامس فاسحت بحريتها تركة واهنة كالامارات الصغيرة التي اعقبتها ، وهو ما ستنتهي اليه تونس بعد قرن ونصف.

هذا النشاط البحري الذي انتهى الى الفتور - بل كبد اصحابه المخاطر والخسائر - سينبعث من جديد . سينتفض على نحو لا يشبه المرحلة السابقة . سيستأنفه المرابطون فيما دخل تحت حكمهم من موانيء المغرب الاوسط ، وفي المغرب والاندلس . وسيكون على باقي الشمال الافريقي ان ينتظر قرنا ونصفا حتى يظهر عبد المومن الموحدي، ليزيد البحرية المرابطية انماء ثم يشرك فيها تونس وليبيا .

عندما انطوى كل من المغرب والاندلس تحت حكم سلاطين المرابطين ، كان المجال البحري في جملة ما لا بد من التفكير فيه . والمؤرخون يتحدثون عن يوسف ابن تاشفين - يوم ركب السفينة ليعبر الى الاندلس - وقد ملك التهيب عليه نفسه : انه ابن الصحراء التي تموج رمالا وليس ذا صلة متينة بالبحر الصاخب الامواج ! غير انه اذا كان للنشاة والمحيط الصحراويين مواضعاتهما ، فان للقيادة والطموح حوافزهما . وقد وجد يوسف - شان الامويين قبل - انه لا بد من ركوب البحر في سبيل الاندلس . ثم بعد ان دقق في شؤونها ازداد ادراكا لخطورة البحر على تجارتها وحربها . فهي من الشرق مكشوفة على البحر ، وهي لا تعدم عشرات المدن الغنية العامرة في هذا الشرق المكشوف . وهي عرضة الى اعداء كثر، من جنويين وبيزيين وفرنسيين يتعاونون مع خصومه نصارى شمال اسبانيا . والبلاد ، بعد ذلك ، مكشوفة من جهة الغرب على المحيط الاطلسي ، حيث الف ان يعبر محاربوا وقراصنة بحار الشمال وانجلترا والبلدان المنخفضة ولا شك ان هذه امور عرفها من اهل البلاد المجربين ، ثم رتب لها ما يلزم من اهبات ، ولم يكن بالصعب على المرابطين ان يضمنوا هيبتهم البحرية بما توفر لديهم من مال عريض ومن عناصر بشرية ملائمة. وليس من الصدفة ان اخلافهم الموحدين استطاعوا القضاء على كل مظهر لدولة المرابطين قبل ان يتمكنوا من القضاء عليهم في البحر ، فقد ظل نسل ابن غانية المرابطي معتصما في جزر البليار يتحين كل فرصة لمهاجمة الاملاك الموحدية . ولم ينقطع لهم دابر الا في عهد رابع ملوك الموحدين الناصر بن يعقوب .

اذا حاولنا ان نجد لهذه الانتفاضة وقائع من تاريخ المرابطين ، كان علينا ان نتجه نحو الاندلس ، خلال كفاحهم ضد نصارى الاسبان . ويتعلق الامر بالاعتبارات التالية :

1) انه باستثناء قطلونية كان موقع الممالك الاسبانية الاخرى لا يمكنها من اي قصبة تنفس على البحر الابيض المتوسط . وقد بذل النصارى الاسبان جهودا كبرى للحصول على شيء كهذا .

2) ان الاسبان كانوا يستعينون على مبتغاهم بشتى الروابط التي تجمعهم بجيرانهم من بلدان الغرب المسيحي ، كالطليان والنورمان في صقلية ، وكالفرنسيين الذين كانت بعض اجزاء بلادهم تدين بالتبعية لبعض ملوك الاسبان . كما نجد انهم استعانوا على المسلمين ببحارة لا علاقة لهم بالمتوسط .

وهي اعتبارات تبين مدى الجهود البحرية التي كان على المرابطين بذلها . فمثلا في سنة 1115 م (509 هـ) استولى القطلونيون بمعاونة البروفنسيين والبيزيين على جزيرة ميورقة ليتخذوا منها قاعدة ثابتة للوثوب بمدن الساحل الشرقي ؛ غير ان المرابطين سرعان ما اخرجوهم من الجزيرة واستعادوا قاعدتهم الهامة . ولما كانت الخطط البحرية سبيلا الى اغتنام الاراضي ، كان امتلاك بعض الاراضي ضرورة لا بد منها للوصول الى البحر . وهذا هو الوضع الذي كان قائما بالنسبة الى المدن الاسلامية في « الثغر الاعلى » شمال شرق الاندلس ، لذلك فان الاسبان طالما ركزوا جهودهم للسيطرة على المدن والحصون الواقعة على ضفة نهر الايبرو ، الذي يعتبر منفذا ملاحيا هاما الى البحر المتوسط . لذلك كانت حروب المرابطين في هذه المنطقة من اقسى حروبهم في الاندلس ، خاصة حملاتهم المتبادلة مع ملك اراجون الفونسو المحارب . ولو ان هذا الملك حالفه النصر في معركة (افراغة) (529) لانفتحت امامه السبل الى شواطيء المتوسط ولخسر المرابطون شيئا كثيرا في مجالهم البحري .

لم يكن نشاط المرابطين قاصرا على شواطيء المتوسط ، بل شمل شواطئهم على المحيط الاطلسي، باعتبار امتداد السواحل الغربية لمملكتهم . فقد كان مجرى الوادي الكبير - الذي يقطع اشبيلية - طريقا ملاحيا يربط هذه المدينة سبتة وطنجة عبر قادس كما يربطها بالموانيء المجاورة كاشبونة وقلمرية من شواطيء البرتقال ، وكان بهذه الشواطيء اسطول

عامل ، ويذكر التاريخ ان المرابطين باغتوا به اشتوريش وجليقية خلال العشرة الثانية من القرن الثاني عشر الميلادي ، وكان معظم من يشارك فى معارك هـــذه الجهة ، من غير الاسبان والمرابطين ، بحارة الانجليز والالمان والاراضي المنخفضة ، وتجدر الاشارة الى ان هذا الممر عرف نشاطا متزايدا خلال حكم المرابطين، لانه كان طريق هؤلاء البحارة للمشاركة فى الحروب الصليبية واحيانا لاعمال القرصنة . وهم لذلك كانوا يعرجون على الموانىء الاسلامية او الاسبانية قصـــد المشاركة فى الفتح او التزود بحاجتهم من المـؤن . وبفضل هؤلاء استطاع المسيحيون الاسبان ان يستولوا على اشبونة خلال الفتنة التى نشبت فى الاندلس غداة انهيار دولة المرابطين (541 هـ) .

ذلك ، باجمال ، هو الوضع البحري ، كقـوة حربية فى دولة المرابطين ، ولا يقل اهمية عنه جانب التجارة والنقل . فالنشاط التجاري بين شطـري المملكة لا يمكن تصوره من دون عبور البحر . ومثله تنقل نسبة من الحجاج ، وقد بدا خلال انهيـار دولـة المرابطين ان الحوادث قد نالت من متانـة قوتهـم البحرية ، فقد سقطت المرية فى قبضة الاسطــــول النصراني (541 هـ) ، كما اقتحـم القطلونيـون والجنويون طرطوشة (542 هـ) مع ما رافق ذلك من سقوط اشبونة كما سبق . والواقع ان المرابطين كانوا يمثلون قوة بحرية فتية . وقد ظلت قوتهم تلك مرهوبة الجانب خلال فترة عظمة دولتهم . وعندمـا عملت فيهم ثورة ابن تومرت عملها، مع ما رافق ذلك من فتنة فى بلاد الاندلس ، بدا وكان اهمية بحريتـــهم اخذت فى النقصان . وهو امر طبيعي نتيجة قلـــة الامداد والتحسينات . ولكن الامر لم يطل كثيـرا ، فسرعان ما استتبت الامور السياسية من جديد ، وتابع الموحدون نشاطهم البـحري من حيث انتـهى اسلافهم .

واول ما يلاحظ، بصدد الجهود البحرية لدولة عبد المومن ، امران : اتساع رقعتها تبعا لاتساع مملكته ، وتزويدها طبقا لانظمة اكثر دقة . لقد بلغ ملكه من الاتساع حدا لم يبلغه المرابطون قبل ، اذ اضاف اليه ما كان بيد دولة بني حماد فى جزائر بني مزغنـة (543 هـ) ، ثم ما كان بيد فلول دولة بني منـــاد الصنهاجية في تونس ، ثم توج ذلك بمعركته البحرية الهائلة لطرد نورمان صقلية من شواطيء تـونس . وقد كان لاتساع ملكه على هذا النحو ان استطاع ان يوفر لبحريته موارد هائلة ، سواء من حيث الصرف عليها او من حيث تزويدها بالعناصر البشريـــة المجربة . لقد قام بتنظيم مملكته اداريا وماليا ، وكان فى جملة ما فرض على الاقاليم من واجبات تقديم عدد معين من الرجال لاداء الخدمة البحرية . ومع ذلك فقد كان يحرص على اعداد رجال بحريته بما لا يقل عن سواهم من اطارات الدولـة ، ففـي معاهـــدة التعليمية بمراكش كانت فنون السباحة والقتـــال والحصار البحري وادارة السفن مواد لها حيزها ضمن البرامج المقررة ، يقوم بتعليمها امراء بحر لهم تجاربهم وخبراتهم . وكان ملحقا بهذا التعليم احد الصهاريج ، حيث يمارس الطلبة (الحفاظ) مختلف تماريتهــم ؛ قبل أن يأخذوها ، على نطاق اوســع ، فى المـراسي المغربية . وكانت الغابـات المنتشرة فى الشمـــال الافريقي والاندلس مصدرا للاخشاب اللازمة لبنـــاء السفن ، وكانت المرية والجزيرة وسبتة وطنجة وسلا والجزائر وتونس دورا للصناعة تعج بالعرفاء ومهندسي السفن المتفاوتة الاحجام . ويذكر المؤرخون انه فى سنة 557 للهجرة (اي قبل وفاته بعام واحـد) امـر بالاكثار من انتاج السفن، فأوجدوا لهمنها سبعمائة قطعة واذا عرفنا ان هذا العدد (وهو مجال للنظر) اضيف الى القطع التى سبق ان استعملها فى طرد النورمان من المهدية بتونس ، قبل ثلاث سنوات ، ادركنا مدى النمو الذى بلغته القوة البحرية فى الغرب الاسلامي ايام عبد المومن . لقد قيل ان هذا الملك كان يعتـــزم اقتحام بلاد الروم حينما اوصى بالزيادة فى عدد وعدة الاسطول ، وقد نشك فى ان هذا الامر كـان جــدا لا يشوبه روح من المناورة ، ولكن من المؤكد انه كان استجابة لواقع بحري خطير : وهو ان بحرية الغرب المسيحي اخذت تتكتل ضد بلاد الاسلام على نحو اكثر من ذي قبل ، وناهيك باطراف هذا العدو مجتمعة فى مدن الجمهوريات الايطالية ونورمان صقلية والاسبان الشماليين واتباعهم فى جنوب شـرق فرنسـا . وبقطع النظر عن هذه القوات المسيحيـة كان هنـاك جانب لا يمكن اغفال خطره ، وتمثله بقايا المرابطين فى ميورقة برئاسة بني غانية .

وليس من الصدف ان تعرف البحـرية هـذا الازدهار فى عصر عبد المومن ، ذلك انه لم يكن اقـل تعلقا بالعلوم ولا اقل رغبة فى استغلالهـا للفائــدة العملية ، سواء فى مجالات السلم او ميادين الحروب : فالامر الذى اصدره « بتكسير » اراضي ملكه العريض (555 هـ) يفترض معلومات جغرافية ورياضية دقيقة، كما ان اساليبه فى كثير من المواقيع الحربية توحي

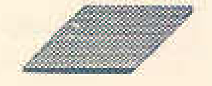
باهتمام بالغ بشؤون الهندسة وتطبيقاتها فى شؤون الحروب . وهي معلومات لا يستغني عنها امراء البحر او قواد الاساطيل ، اضف الى ذلك ما يلزم لهذه الخدمة من علوم اخرى كالميقات ورسم الخرائط وآلات القياس ، وهي علوم كانت ثقافة المسلمين فى الاندلس وشمال افريقيا قد تشبعت بها كثيرا . واذا كانت للملاحة فى كل اقليم اعتباراتها الخاصة – وهو ما ينعكس على طريقة ممارستها – فالمعتقد ان البحرية المغربية الى عهد عبد المومن كانت متاثرة بالاساليب العلمية لمعاهد الاندلس وافريقية ، وهي اساليب ذات اصول شرقية عربية ، خصوصا منها ما يلائم البحر المتوسط ، ولعل هذا تؤكده دهشة الربان البرتغالي (فاسكو دي جاما) فى القرن الخامس عشر ، من اختلاف اساليبه – وهي فى مجملها ميراث اندلسي عربي – عما وجده عند بحارة المحيط الهندي .

هكذا تابع عبد المومن تقوية البحرية المغربية بعد دولة المرابطين ، وسياتي اخلافه بعد ، ليضيفوا الى قصتها فصولا اخرى .

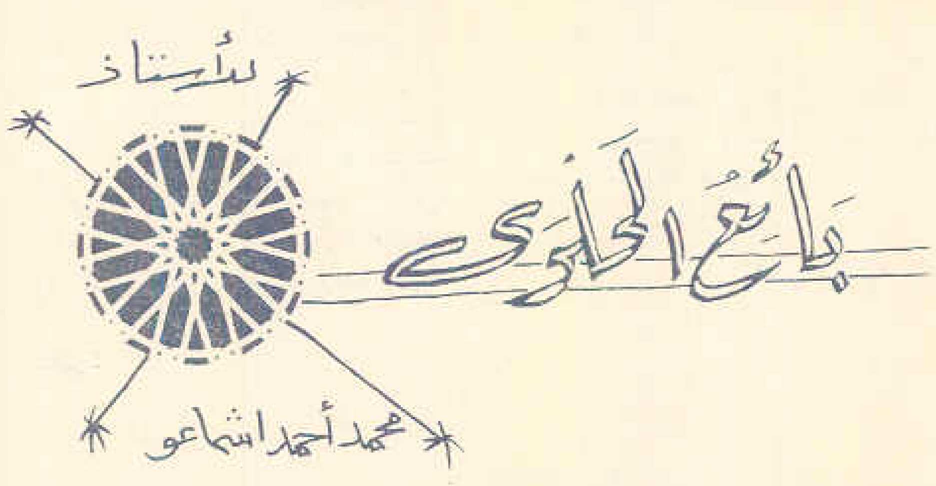
فاس – عبد الحق حموش

المصادر :

1) الاستقصا : الناصري
2) المؤنس : ابن ابي دينار
3) تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين : اشباخ – ترجمة : عبد الله عنان
4) القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط : ارشيبالد لويس – ترجمة احمد عيسى
5) ابن ماجد الملاح : انور عبد العليم
6) السفارات الاسلامية فى العصور الوسطى : الدكتور العدوي
7) مراكش : جاستون دو فردان
8) تاريخ المغرب : هـ . تيراس



قصة العدد



بائع الحلوى

للأستاذ
محمد أحمد اشماعو

الآن وقد بلغ الستين من عمره يرى سائرا فى الطريق وكأنه تجاوز المائة : ظهر مقوس ، ورجلان خائرتان لا تقويان على حمل الجسد الهزيل المنهوك ، ويدان مرتعشتان ، حال الكفين فيهما لا تدل على ممارسة عمل شاق فيما سبق من الايام ، بل ان الناظر ليتوهم انهما كانتا تمارسان حرفة تصبين الملابس ؛ مع ان الامر ليس كذلك . ونظرة خاطفة على الوجه المتغضن تغضنا عميقا ، وعلى اللحية المنفوشة التى يخالطها الشيب ، وعلى العينين الواسعتين الذابلتي النظرات .. كل ذلك يدل على ان الرجل سائر بخطى سريعة لا تمهل فيها نحو الفناء .

* * *

منظرنا يومئذ ونحن صبيان غادون الى المدارس او رائحون منها كان لطيفا للغاية ، رؤوسنا حليقة عارية ، وجلاليبنا من مختلف الالوان تستر ما تحتها من اقمصة وسراويل لا نعني بها كما يجب ، ولا نحرص على نظافتها ، رغم تشدد امهاتنا الطيبات وتوعدهن بابلاغ يومية مخالفاتنا الى الآباء الاشداء . ثم احذيتنا - جديدها وقديمها - ثابتة فى ارجلنا بشكل عجيب ، لا يتحكم فيه الا تحركات الاصابع ، وان كانت لا تقوى على الصمود امام صلابة الاحجار التى كنا نقذف بها بين الحين والحين ، ولا امام برك الماء المتجمعة عن الامطار وما حولها من طبقات الوحل المتراكم .

كنا نسير ، وايدينا اليمنى على القماطر الجلدية او الخشبية ، تشد عليها بعزم وحرص ، وايدينا اليسرى تمسك بكراريس او دفاتر للحفظ او المراجعة: حفظ اشعار الزهاوي الفيلسوف ، واين نحن من الفلسفة ؟ وترديد اشعار حافظ الممتعة ، واشعار شوقي الجميلة المنمقة .. ومراجعة القواعد النحوية التى صاغها الاستاذ الجارم سهلة يسيرة . كما نحفظ او نراجع ملخصات تاريخ المغرب سريا خوفا من جواسيس الاستعمار الذين قد يبلغون عن مدارسنا انها تخالف الاوامر الادارية وتعطي دروسا فى تاريخ المغرب مع ان ذلك ممنوع بأمر من الحكام الفرنسيين الحازمين .. ولا يثير عجبنا مطلقا زملاؤنا الاطفال الآخرون السائرون الى مدارس اخرى فى غير اتجاه مدارسنا وهم منكبون على حفظ تاريخ فرنسا دون انزعاج او تخوف ، يسمعهم كل الذين يمرون بهم ، من عمال واصحاب دكاكين وبائعي الحمص وا السفنج) والحلوى ...

استغفر الله، بائع الحلوى ليس معتادا ان يحتل مكانه المألوف منذ الصباح الباكر ، فهو لا يحضر الا قبيل الساعة العاشرة من حيث نجده مستعدا عند خروجنا للاستراحة لما يرخص لنا بالتردد على طاولته لشراء شيء من حلوياته التى يأتي فيها كل يوم بجديد. لقد كنا ننتظر اسابيع ليعود الينا بنوع من الانواع ، وتلك وسيلة منه بارعة لاقتناص قروشنا المعدنية البيضاء المثقوبة الوسط التى يسمع لها رنين اخرس !

قبل ان يوقف (بائع الحلوى) عربته ذات الاربع عجلات يبادر الى رش الارض وكنسها ، ثم يغطي الجدار من ورائه بحصير مزخرف . ويثبت فيه هنا وهناك ازهارا وورودا (لا ذبولية) صنعها هو نفسه من الورق الملون ، ثم يخرج من جوف العربة اصص مغروساته الناضرة الخضرة ، المزهر منها وغير المزهر . ويميل الى لفافة من الورق اليانع ، المقطوف من اشجار الليمون والنارنج او شجيرات (المعطرشاه) ، ويدس منها تحت طاقيته عند صدغيه وفوق جبهته .

وبكل اناقة وتمهل يرفع الغطاء عن اعلى العربة فتظهر الاواني النظيفة وقد رتبت عليها قطع الحلوى لذلك اليوم ، مع لافتة صغيرة كتب عليها بخط جميل (ثمن الحلوى قرش) . وتحت ذلك داخل الصندوق الزجاجي يوجد نوع رفيع تفوح منه رائحة القرنفل يسمى (غزل البنات) ، وما ظنكم بشيء تغزله البنات بانامله‍ن الحريرية الظريفة الانيقة .. ان القطعة من هذا النوع تتعدى القرش الى قرشين ، نصف (بسيطة) بالتمام ، ولا عجب (الشيء المليح بحقه) ! ولقد جرت عادة الحلوانيين ان ينشدوا باصوات رخيمة ما استطاعوا على بضاعتهم ، اسالة للعاب الصغار من امثالنا ، وتحريضا لهم على اقلاق راحة امهاتهم حتى ترضي رغباتهم لكن (بائع الحلوى) هذا لم يكن يرفع صوته ابدا ، بل لا يسمع له صوت قط ، انه يتعامل بالاشارة ، وعلى شفتيه ابتسامة ثابتة يحسبها الانسان ابتسامة متكلفة على الدوام ، مع انها ليست متكلفة مطلقا ، فهي هي سواء اشتد البرد اواشتد الحر، وهي هي سواء ازدحم الزبناء او انتظموا ، وهي هي سواء تذوقوا حلواه واعجبوا بها اعجابا ام التهموها التهاما بدون تذوق ولا اعجاب .. ولو دقق الناظر فى تامل تلك الابتسامة لوجدها اعمق واوسع وهو منكب على ترتيب الزهور فى اصصها ، وهو يقوم بذلك عدة مرات فى اليوم ، ثم وهو ينسج (الطواقي) فى احوال تفرغه بخيوط القطن المتينة الملونة ، مبدعا من خلال النسج اشكالا هندسية رفيعة ، تتخللها زخارف بديعة لا تنافر بين الوانها ابدا ... وهو كلما انتهى من صنع واحدة ابقاها تحت بصره مدة يتاملها وبذلك يرضي شيئا فى اعماق نفسه ، وقد يفلت منه الزمام فيرى وهو يهمس ويبتسم !

اثناء بعض محادثاتنا الانفرادية كنا نثير تعاليق حول الحلوى اليومية ، وقد نتعدى ذلك الى التحدث عن صانعها نفسه ، فنقول شيئا عن تصرفاته وعن اوصافه ، وبدت لنا ملاحظة بالاجماع هي ان عينيه الكبيرتين ذواتا فتحتين مائلتين ، فهما اشبه بعيون الصينيين ، الا ان الحدقتين فيهما بارزتان بروزا مرعبا ، مما يجعل التحديق فيهما غير ممكن . وقال قائل منا ان عليهما مسحة من عيون الجن .. اسم الله علينا !.

ودعم احد القوالين هذا الراي بان (بائع الحلوى) يكون اثناء تنظيم الحلويات او اثناء ترتيب الزهور فى اصصها او اثناء نسج الطاقيات يتمتم هامسا وحده ، ولا شك انه اثناء ذلك يكون مشغولا بمحادثة احدى الجنيات من رفيقاته ...

وكدنا نهتز هولا لما ادعى آخر ان (الحلواني) يسكن احدى الابراج المهجورة التى تحكي جداتنا ان الجن تسكنها منذ غادرها المجاهدون من قرون خالية .. وان له فيها زوجة ماكرة لا يمكنه ان يفلت من حبائلها !

وعقب ثالث بانها هي التي تعاونه فى اعماله ، ولولاها ما استطاع ابتكار تلك الحلويات التى لا يبتكرها غيره ، وانها هي التى تخط له تلك الزخارف الممتازة على الطواقي .. والويل له ان اغضبها يوما، انها سترمي به الى الفلوات الخالية ، او ستسلبه عقله، او ستطعمه سما قاتلا ، وربما نذهب نحن ضحية ذلك الخصام الخبيث ...

وسرى الهمس بين الصغار والكبار منا ، ووصل الى علم الامهات ، فاذا به يملأ اوقاتهن ويشغل بالهن صباحا وضحى وظهرا ومساء وليلا . وعمت الضجة :

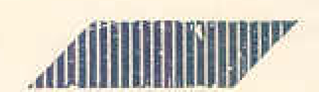
المجنون صديق الجن يبيع الحلوى ، المجنون يستعين بالجن فى صنع حلوياته ، المجنون يوشك ان يهلك ابناءنا ... واخيرا قر رايهن على ان يمنعن اولادهن من التعامل مع الحلوي وعززن الوصية المشددة بانذار السخط ، والعياذ بالله .. كل شيء الا سخط الوالدات ! واضطررنا الى مقاطعة بائع الحلوى .

انتظرنا كعادته وقت حلول الاستراحة صباحا ، وانتظرنا عند الافتراق فى الزوال ، وتمعننا جيدا عند اوبتنا بعد الظهر ، وقطع الامل منا اخيرا عند انصرافنا

فى المساء. وفى الغد وقت الاستراحة لم يكن حاضرا فى مكانه المعتاد . لقد تأثر جدا من معاملتنا فلم يرجع ، وبقينا بين فضول وخوف ننقب عن اخباره، الى ان جاءتنا مهولة تنبيء بأنه قد جن ، واختل عقله، وانه اخذ الى ضريح (سيدي احمد بنعاشر) حيث حبس فى حجرة ضيقة جدا ، واحكمت حول عنقه سلسلة غليظة موصولة بالسقف ، فلا يرى الا وهو جاحظ العينين بشكل مريع ، ولعابه سائل، وشعره منفوش .. وبين الحين والحين كان يطلق صرخات مدوية رهيبة طالبا اطلاق سراحه ، وارجاعه الى بيع الحلوى للاطفال الاعزاء !

ولما انهدت قوته بمرور السنين، وفقد كل اتزان، ولم يعد قادرا لا على حركة ولا صراخ ، وغدا ظهره مقوسا ورجلاه خائرتين ، وغابت عنه طريقة صنع الحلويات ونسج الطاقيات اطلق سراحه ، فمشى هكذا مفضن الوجه ، منفوش الشعر ذابل النظرات ... يسير بخطى سريعة نحو الفناء .

الرباط ـ محمد بن احمد اشماعو





فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان .

تأليف الفقيه محمد غريط
عرض وتقديم الاستاذ عبد الرحيم بن سلامة

هذا الكتاب صدرت طبعته الاولى سنة 1347 هـ، أي منذ نحو واحد واربعين سنة عن المطبعة الجديدة بفاس ، وهو يحتوي على (312) صفحة من القطاع المتوسط جزءها المؤلف الى قسمين : القسم الاول خصه لاخبار الوزراء ، والقسم الثاني لاخبار الكتاب .

ونحن يهمنا في هذا العرض الوجيز ان نقدم للقارىء الكريم نظرة شاملة ومختصرة لاهم ما اشتمل عليه هذا الكتاب من طرائف ادبية وقصائد شعرية انشدها الوزراء والكتاب في مناسبات كثيرة .

فاول ما يطالعنا في الكتاب قصيدة للمؤلف جعلها كاهداء يقول فيها :

يا شباب العصر للتم عروة الفخر الوثيقة
ولكم مستقبل تبـ ـدوا به شمس الحقيقة
ويرى من كان حر الفـ ـكر محمود الطريقة
وينال الوصل من كا نت له العليا عشيقة
هذه تحفة ود غضة الحسن انيقة
ضمنت رائق اخبا ر واشعار شيقة
فاجعلوها للذي الـ ـف في العصر رفيقة

وفي المقدمة نجد تحليلا ادبيا صاغه المؤلف في اسلوب شيق موضحا للقراء الاهداف التي جعلته يجمع آثار الوزراء والكتاب الادبية على عهد قريب فيقول : « وبعد فان من المعلوم ان لكل زمان رجالا عمرت بهم اندية الادب وازدهرت بهم وجوه الرتب . فكانوا لاذانها شنفا ولانوقها شمما ولثغورها لعسا ولترائبها درا منظما ، ولعصرهم ذكرى ممن اعمل قلما او فكرا ، وان في التاريخ مما لا يحتاج الى دليل ، على ما له من النفع الجليل اذ به يعلم الاخر ما للاول من المفاخر . . .

ولما كانت الوزارة لفظا شريفا تعشقه العيون والآذان، وظلا وريفا تتعب على تفيئه القلوب والابدان، ونعيما دون ادراكه عقاب لبنان ، وموردا معينا حوله سيوف الاقلام وسهام اللسان ، فهي مقصود الدر والنفع، وآلة النصب والرفع . . فطالما حضتني محبة الادب واهله . وان لم اكن ممن تجولوا في حزنه وسهله على جمع طرف من اخبار ووفيات من عاصرتهم وادركت من عاصرهم من وزراء وكتاب هذه الدولة العلوية العلية ذات المراقب والمناقب الجلية . . .

وما اراني بمستوف مناقبهم
ولو نظمت لهم زهر النجوم حلا

بعد هذه المقدمة الطويلة التي رصف كلماتها المؤلف ترصيفا فسيفسائي في بيان لفظي بديع ، تطرق الاديب محمد غريط في القسم الاول الى اخبار الوزراء وما وقع لبعضهم من تعظيم وازراء ، مشيدا بآثار أزيد من خمسة عشر وزيرا وما قدموه من خدمات جليلة

للادب المغربي ولا سيما القصائد التي انشدوها في الثورات التي كان يشنها المستعمر على وطننا مثل الوزير ابي عبد الله محمد بن ادريس العمروي والكاتب الوزير ابي محمد عبد الكريم بن سليمان والوزير الكاتب ابي عبد الله محمد بن احمد الصنهاجي .

وسوف نقدم للقارىء الكريم مختصرا لترجمة بعض هؤلاء الكتاب كما وردت ، مع ذكر اهم اعمالهم الادبية كما اخبرنا عنها صاحب كتاب «فواصل الجمان»

* * *

الكاتب الوزير ابو عبد الله محمد بن احمد اكنسوس شاعر واديب لا تجوع بنات فكره ، خزانته كانت تزخر بنفائس العلوم والاشعار ، مجالسه كانت تضم خير الناس واعلمهم ، لانه كان مستمسكا من التقوى بعروة منزويا عن كل شهوة ، مطلعا على قواعد العلوم الرياضية وحقائقها واسرار الحروف ودقائقها ، استقدمه السلطان المولى سليمان قدسه الله واسند اليه عدة مناصب علمية وسياسية اخلص فيها وبرهن عن قدرته في حل المشاكل التى عاصرته وهو القائل :

ومن يحمد الدنيا لشيء يسره
فسوف لعمري عن قليل يلمها

اذا اقبلت كانت على المرء فتنة
وان ادبرت كانت كثيرا همومها

ولكن مكانته هاته جعلت بعض المقربين للسلطان ينقمون عليه ويحسدونه ولكن طريقته التجانية كانت تساعده احيانا على ان يهزم الواشين الذين استطاعوا آخر الامر ان يضطروه للابتعاد الى مراكش الى ان مات ودفن بروضة الامام السهلي وله تاريخ سماه : « العرمرم الكثير » وقد خلف وراءه قصائد شعرية كثيرة من بينها قصيدة يقول فيها :

ومجالس للعلم محتفا بها
أهل التقى يا حسنه من مجلس

قرت عيون الذين اذ رفعوا له
اعلا منار في براح بسبس

نجاهم المولى الكريم بفضله
بجني فعال طيبات المغرس

فسقى بغيث الفضل روضة احمد
وكساه من حلل الرضى والسندس

ذاك الذي وضحت به سبل الهدى
وسمت جلالة مناط الكنس

وهذه القصيدة اتى عليها رد من تونس حيث انشد الوزير الاديب الشيخ قباذ التونسي قصيدة رائعة نقتطف منها هذه الابيات :

جاءت ومن همم الشريف يحوطها
جيش المهابة والجلال الاقعس

الانفس بن الانفس بن الانفس بـ
ـن الانفس بن الانفس بن الانفس

يا اهل بيت شامخ اركانه
لعلوها وسموها لم تلمس

وهذه الابيات ما هي سوى ثلاثة من ازيد من مائة كلها مدح وثناء .

* * *

الكاتب الوزير ابو عبد الله محمد بن ادريس العمروي كان عالما وشعلة فهم وذكاء ، كاتب مليء الحقيبة ، ميمون النقيبة سريع اليد والخاطر في ابراز كل عجيبة، شاعر طلع في عكاظ المجد نابغة ، امتزج الادب بطبعه فاستكتبه السلطان المقدس المولى عبد الرحمان باشارة من ابي القاسم الزياني اذ كان ينسخ تآليفه معتمدا في ذلك على سعة ادبه وغزارة علمه ، وبلغ من السلطان مبلغ جعفر من هارون ، وابن اكثم من المامون وحل منه محل ابن ابي دؤاد من المعتصم ثم اظلم الجو بينه وبين مخدومه، واشبه محمود سعيه بمذمومه لوشايات تنكر واذايات تذكر فانزل عن مرتبته فاقصى عن العتبة الشريفة وبقي منبوذا الى ان امره مولاي الطيب الكتاني يوما بالتوجه الى مكناسة الزيتون وحضر بمقام السلطان الجليل مولاي اسماعيل الذي امر بادراجه في سلك كتبته ، وبعد وفاة الوزير ابى الصفاء المختار الجامعي اعيد الى الوزارة فتصرف فيها على مقتضى ما جد من عثرات الزمان وبس من غدرات الاعوان واخذ يحتاط حتى لا يقع فيها وقع فيه على يد الواشين ، وقد كان ينظم الشعر بكثرة حتى لم يعرف عدد القصائد التي انشدها في المناسبات ، ومن جملة ذلك قصيدة قالها مادحا ؛ نقتطف منها هذين البيتين :

رفعت لمجدك راية الاحسان
وبدا بعصرك ساطع البرهان

وسرت بسرك في الانام سريرة
سر المحب بها وغصن الشباني

يا مفردا في الفضل غير مشارك
اقسمت مالك في البرية ثاني

وهو القائل في قصيدة اخرى يمدح فيها القاضي ابا الفضل العباس بن احمد بن سودة :

ولا كابي الفضل ابن احمد فاضل
اذا عد في الفضل المبين وحيد

امام نمته الاكرمون الى العلا
وخصته بالفخر الاثيل جدود

هو العالم العلامة العلم الذي
له فوق اعلام السماء صعود

افاض بحور العلم والحلم والندى
فللكل منه منهل وورود

واهدى فريد العلم غواص فكره
ولا غرو ان يهدي الفريد فريد

ونور ارجاء البسيطة عدله
فللحق والدين الحنيف سعود

وللعدل في كل البلاد مظاهر
وللجور فيها ذلة وخمود

له مذهب في الحكم بالحق مذهب
وراي على نهج الصواب سديد

له همة تستصغر الدهر رفعة
وباع لدى كل العلوم مديد

له هيبة تستوقف الطرف دونه
وبشر لجاش الناظرين يعيد

له خلق كالزهر نشرا ورقة
وخلق على البدر المنير يزيد

ويقول في قصيدة اخرى على لسان السلطان المقدس المولى اسماعيل :

تاهب ليوم العيد فالحرب عيد
لنا وعليكم محنة ووعيد

ستعلم اشقى الناس يوم لقائنا
اذا قهقهت في الحرب منا رعود

دعوت مجيبا فارتقب ما طلبته
فانا بما تبغي عليك نجود

اتجهل قبل اليوم ما قد علمته
وانتم لنا تحت السيوف عبيد

اسأتم وكنا المحسنين وعدتم
الى السيئات بالعقاب نعود

وله قصائد اخرى قالها في مناسبات مختلفة ، وقد اعجبت بقصيدتين من قصائده ، واحدة قالها في فصل الربيع مصورا جمال الطبيعة وخضرة الاشجار والنباتات والبساتين ، والقصيدة الاخرى انشدها وهو بنزهة لنهر سبو بناحية فاس ، يمكن للقارىء ان يطلع عليها في هذا الكتاب .

ونجد من بين الوزراء الذين تحدث عنهم المؤلف ابا الصفاء المختار بن عبد الملك الجامعي وولده العربي ابن المختار ، فقد تمكن الوزير الجامعي من قيادة جيش الاوداية بعد ما عمه الانحلال ، كما ان ابنه العربي ساعد على أن لا يقع خلاف بين الشرفاء السليمانيين بفاس اثناء بيعة السلطان سيدي محمد ، وبالفعل انتظم الكل في سلك الطاعة بفضل دهائه وحزمه . ثم نجد المؤلف يخصص صفحات كثيرة من كتابه للتحدث عن الكاتب الوزير محمد بن محمد غريط الاندلسي محللا اولا اصل عائلة غريط حيث قال : هؤلاء الاغريطيون كانوا ممن هاجروا بدينهم من الاندلس الى المغرب لما لحقهم من الحادث المكرب باتحاء الاسبانيين عليها . ومدهم يد الوبال اليها فحلوا بمكناسة الزيتون واستفنوا بهمم لا ترضى بالدون ، الى ان اتصل خلفهم بالسلطان الاعظم الجليل ، مولانا اسماعيل . فاقتعدوا اريكة العز في دولته ، وبلغوا ما املوا في ظل صولته . فكان منهم علماء الباء وادباء واطباء ، وتجار امناء بحضرته ... وشرفوا منه ومن ابنائه الكرام بظهائر تضمنت مزيد التوقير والاحترام ، ومنهم صاحب الترجمة وهو رجل الوقار والجد ... شاعر تنبع الحكم من لسانه وتمد اكف التسليم لاحسانه » وقد تتلمذ محمد بن محمد غريط على يد العالم المصلح سيدي عبد القادر العلمي والولي المجذوب ، والفقيه اليمني بوعشرين ، ومن شعره الرفيع المحتوي على نفائس الحكم والصنع البديع، ما اجاب به الوزير ابا عبد الله اكنسوس عن ابيات تهنئة وهو :

من اوتي الدين عالي القدر مغبوط
وغيره معلواته اغاليط

والنقط ليس يزيد الحرف تكرمة
كم مهمل دونه ما هو منقوط

والجد ليس بمجد من مقاصده
يلفي بها عند الانتقاد خليط

واحمق الناس من قد غره عرض
به الذهاب والاضمحلال مربوط

وليس يسلم في حال القيام به
من ذي قلى قوله بالزور مخلوط

ومن شعره قوله :

عبيد العصا فاضرب منهم كل من عصا
ولا تغترر منهم بمن لك بصبصا

وان كنت في شك فجرب تجدهم
كاكمه فيما قص عنه وابرصا

ثم يحدثنا المؤلف عن الكاتب الوزير ابي عبد الله ابن عبد الله الصفار التطواني فيقول عنه : هو من مهاجري الاندلس الذين استوطنوا تطوان لما اناخ الاصبان عليهم بالعدوان ، كان ذا جد وسكينة ودراية مكينة واخلاق عريقة ، وقد كان من خدام السلطان بسيدي محمد الى أن توفي ودفن بدار ولد زيدوح » وبعضهم يقول دفن بضريح الولي الصالح يوسف بن علي خارج مراكش .

ثم نجد المؤلف يعطي ترجمة صادقة لحياة بعض الكتاب الوزراء أمثال أبي محمد الطيب بن اليمني بوعشرين وأبي عمران موسى بن احمد بن مبارك الذي كان حليف دين وعفاف واليف امانة وانصاف ، وكذلك الكاتب الوزير ابو عبد الله محمد بن احمد الصنهاجي المعروف بالفقيه لانه كان يدرس الفقه ، ومن مختار أشعاره هذه الابيات من قصيدة له يقول فيها :

لسان الكون يلهج بالثناء
ويسفر عن علا بدر السماء

وينبيء سائلا فتحا قريبا
وعزا قد تسربل بالبقاء

بأن الله قد اسدى جميلا
وان النصر خيم بالفناء

وان السعد قد اضحى خديما
وكف المجد حاملة اللواء

ومن هذا الشاعر نجد المؤلف ينفذ الى عدة وزراء كتبوا الشعر هم ايضا امثال الكاتب الوزير الحاج المعطي ابن العربي الجامعي الذى قال فى قصيدة له :

ودارهم ما دامت في دارهم
وحيهم ما دامت في حيهم

وأحسن العشرة مع بعضهم
يعينك البعض على كلهم

وكذلك يحدثنا المؤلف عن الحاجب الوزير أبي العباس احمد بن موسى بن احمد اعجوبة الدهر الذي اختلفت فيه العوائد والذي ازدهرت في عهده الدولة وتدفقت عليها الخيرات . ويحدثنا ايضا عن وزير الحرب عمرو وسعيد بن موسى بن احمد الذي كان اندى اخوانه كفا واطيبهم عرفا ، فهو الذى شارك فى حادثة الى هراوة ضد العساكر الفرنسية وجدد الجيش بعدها ونظمه احسن تنظيم . ثم أتى على ذكر الحاجب ابى العلاء ادريس بن موسى بن احمد وكذلك الكاتب الوزير الحسن علي بن الفقيه القاضي ابى عبد الله حم المسفيوي والكاتب الوزير محمد عبد الكريم ابن سليمان الكاتب الرفيع من بيت رياسة مديد الاطناب وعلى لسان هذاالوزير ينقل لنا المؤلف بعض الاطوار من العهد الذي ظهر فيه أبو حمارة الى نهايته ، ثم يحدثنا صاحب « فواصل الجمان » عن كتاب آخرين امثال الكاتب الوزير عبد الله محمد بن عبد الكبير الانجاري الدمناتي الذي يقول فى قصيدة له :

لا تنكروا في المرء حب رياسة
حب الرياسة من طباع العالم

كل ابوه ءادم وطباعه
ارث الخلافة فى ابيه ءادم

نحن بنو الدنيا ومن طبعنا
نحب فيها المال والجاها

وينتقل المؤلف مباشرة الى القسم الثاني من الكتاب فيخصه لاخبار الكتاب امثال الفقيه ادريس بن محمد العمروي الذي يقول فى قصيدة عصماء :

بشرى بها الدين الحنيفي ازدها
الله هياها وانجز وعدها

منن من الرحمان عمت خلقه
من يستطيع من البرية عدها

ورد البشير بها فاحيا انفسا
قد افرشت لثرى نعاله خدها

ولهذا الشاعر قصائد طويلة فى مواضيع كثيرة تمتاز بدقة المعاني وحسن اختيار القوافي، ويحدثنا

ايضا عن الكاتب محمد غريط والعباس احمد الصويري ومحمد عبد الله بن محمد بن احمد كنسوس الذي قال الشعر في مناسبات عديدة واستطاع ان يخلف وراءه ثروة شعرية لا تعد ولا تحصى .

ويذكر المؤلف بين الكتاب الفقيه الاديب القاضي ابا محمد عبد الواحد ابن المزوار الذي كان نبيه المحل ونبيل العقد والحل ، وكذلك الاديب الكاتب ابا العباس احمد بن محمد الكردودي الذي ترك قصائد قالها مدحا او ثناء مثل القصيدة التي يقول فيها :

وكن لما يوثره مقتبسا
واخضع اذا لان ولن اذا قسا

ولا تكن طلقا اذا ما عبسا
ولا تكن مستوحشا ان انسا

ولا تزر حضرته مختلسا
ولا تشمته اذا ما عطسا

واوضح الامر اذا ما التبسا
من غير جعل رايه منعكسا

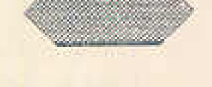
ولا تشع سؤاله محتبسا
ولا تبت في غشه منغمسا

ولا تشاركه باحوال النسا
لم تدر ما في نفسه قد هجسا

فانه كالليث يخفي الشرسا
حتى اذا ريع حماه افترسا

واخيرا يستعرض المؤلف اسماء كثيرة لباقي الكتاب الذين عاصروا هذه الحقبة مثل ابي المكارم العربي المتيمي والاديب الكاتب ابي محمد التهامي المزوار المكناسي ، والفقيه ابي محمد عبد القادر بن عبد الرحمان الفاسي وابي عبد الله محمد بن سليمان والكاتب مولاي احمد البلغيثي وولده مولاي الطاهر وكتاب آخرون عاصروا هؤلاء لا يسع هذا العرض المختصر لذكر مآثرهم الادبية والعلمية لاسيما واننا توخينا في هذا التقدم ابراز اهم الاعمال الفكرية لفترة تقدر بنحو نصف قرن تميزت بنوع من الاساليب الادبية التي انقرضت ولم يبق لها من الذكر سوى هذه الاثار التي نعمل على احيائها بواسطة هذا التلخيص .

الرباط : عبد الرحيم بن سلامة



فهرس العدد السادس

صفحة	الموضوع	الكاتب
1	على هامش مؤتمر ماليزيا	دعوة الحق
	دراسات اسلامية :	
4	مرونة الفقه الاسلامي ، ابتناء الحكم على العوائد	المرحوم الاستاذ محمد السائح
10	ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا	للاستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ
14	حركة الفكر الاسلامي في مواجهة التحدي	للاستاذ انور الجندي
17	هل الثقافة الاسلامية اصبحت خاضعة لمرور الزمن ؟	للاستاذ محمد العنبري
21	لم يكن القرآن بلغة قريش فحسب	للاستاذ الراجي التهامي الهاشمي
25	تعقيب على مقال « الرق والدقة »	للاستاذ عبد الكريم التواتي
	ابحاث ودراسات :	
26	تقويم اللسانيين	الدكتور تقي الدين الهلالي
31	هذا الشعر ماذا اعطى حياة الانسان ؟	للاستاذ عبد العلي الوزاني
39	من هنا ننطلق	للاستاذ الطاهر زنيبر
41	الحسين بن منصور الحلاج	الاستاذ عبد القادر الصحراوي
46	الصهيونية تهدد امن الولايات المتحدة	تعريب الاستاذ احمد عبد السلام البقالي
49	زيارة الوفد المغربي للاتحاد السوفياتي (6)	للاستاذ محمد بنعبد الله
61	مدخل الى علم العروض	الاستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ
64	العربية الفصحى	للاستاذ احمد عبد الرحيم السائح
72	عبد الحميد الكاتب	للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي
77	العادة عند الفارابي وابن سينا	للاستاذ محمد الشوفاني
80	صراع القيم الجاهلية والاسلامية في شعر حسان بن ثابت	الاستاذ الامين ابو احمد
84	الوجادات	للاستاذ عبد القادر زمامة
	ديوان المجلة :	
87	موكب الربيع	للشاعر محمد الحلوي
90	رباض	الشاعر المدني الحمراوي
93	النازحة : من صور المأساة الاليمة والفاجعة العظيمة	للشاعر محمد شمس الدين
	دراسات مغربية :	
99	ابو هارون الاغماتي	الاستاذ سعيد اعراب
103	الروايات التاريخية عن تاسيس سجلماسة وغانة	للاستاذ دانييل ماك كول عربه عن الانجليزية الاستاذ محمد الحمداوي
106	نظرة على الاحوال المغربية في القرن التاسع عشر	الاستاذ المهدي البرجالي
112	دور الادب المغربي في المعركة ضد الصهيونية والاستعمار	الاستاذ محمد التازي
117	خالد بن زيد الكاتب	للدكتور عبد السلام الهراس
121	صفحات ناصعة من تاريخ المغرب الذهبي يسجلها دبلوماسيون اجانب	الاستاذ محمد بن ادريس العلمي
126	القوة البحرية في الغرب الاسلامي بعد الفتح الى قيام دولة الموحدين	الاستاذ عبد الحق حموش
	قصة العدد :	
130	بائع الحلوى	للاستاذ محمد احمد اشماعو
	معرض الكتب :	
133	فواصل الجمان في انباء وزراء وكتاب الزمان	تاليف الفقيه محمد غريط عرض وتقديم الاستاذ عبد الرحيم بن سلامة